

فنُّ الحرب القديم

هاري سايدبوتوم

ترجمة

طارق راشد عليان

سلسلة مقدمات موجزة

فنُّ الحرب القديم

هاري سايدبوتوم

ترجمة: طارق راشد عليان

مراجعة: أحمد خريس

GN799.W26 S53125 2021

Sidebottom, Harry

فن الحرب القديم / تأليف هاري سايدبوتوم ؛ ترجمة طارق راشد عليان ؛
مراجعة أحمد خريس. - ط. 1. - أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2021.

ترجمة كتاب: Ancient Warfare: A Very Short Introduction

تدمك: 978-9948-33-155-1

1- التاريخ الحربي. 2- العلوم الحربية. 3- الحرب والحضارة.

أ- عليان، طارق راشد. ب- خريس، أحمد. ج- العنوان. د- السلسلة.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Ancient Warfare - A Very Short Introduction by Harry Sidebottom

صدر بموافقة مكتب تنظيم الإعلام- وزارة الثقافة والشباب- رقم الطلب -MC-03-01
. 1204183

طبع في المتحدة للطباعة والنشر- أبوظبي- 80022220





مشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية التابع لدائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي

فنُّ الحرب القديم

المحتويات

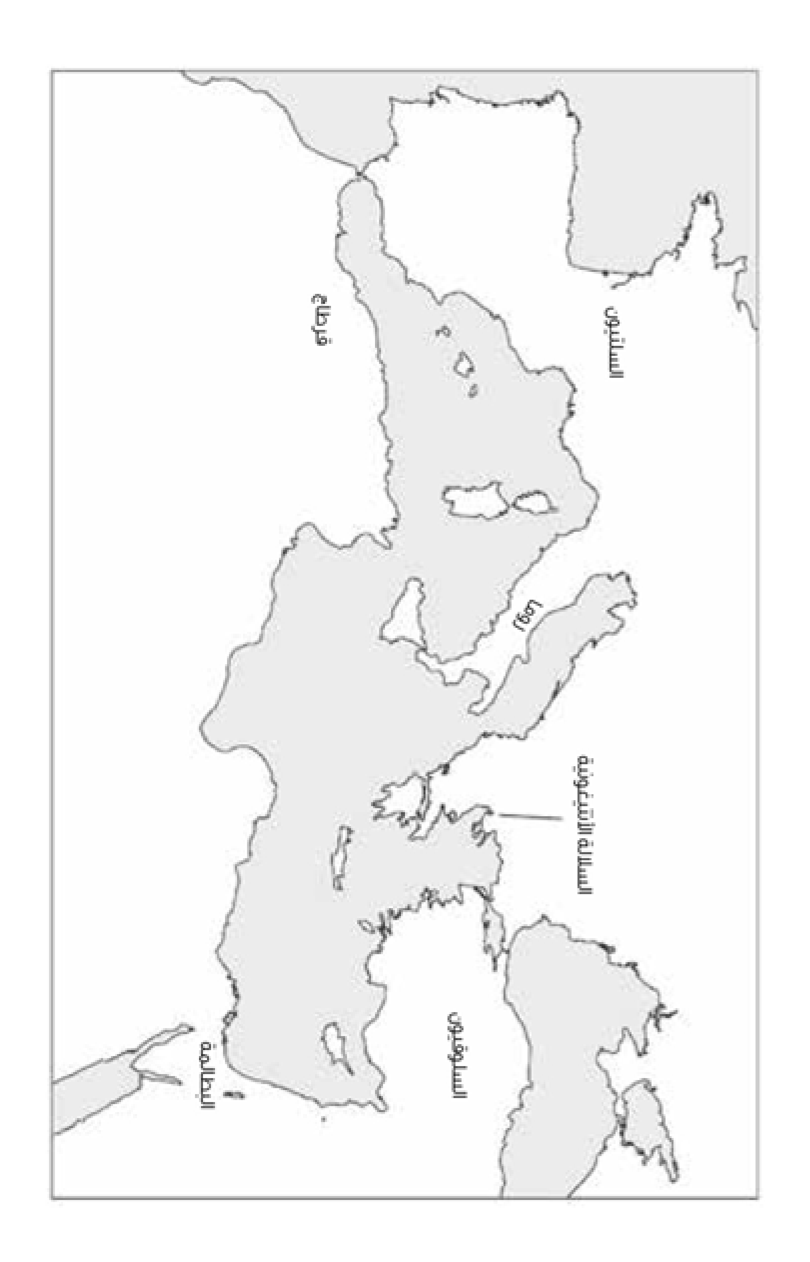
قائمة الصور والرسوم الإيضاحية

يعتذر الناشر والمؤلف عن أي أخطاء أو سهو في القائمة أعلاه. وإذا جرى الاتصال بهما، فسيسرهما تصحيح تلك الأخطاء أو السهوات في أقرب فرصة ممكنة.

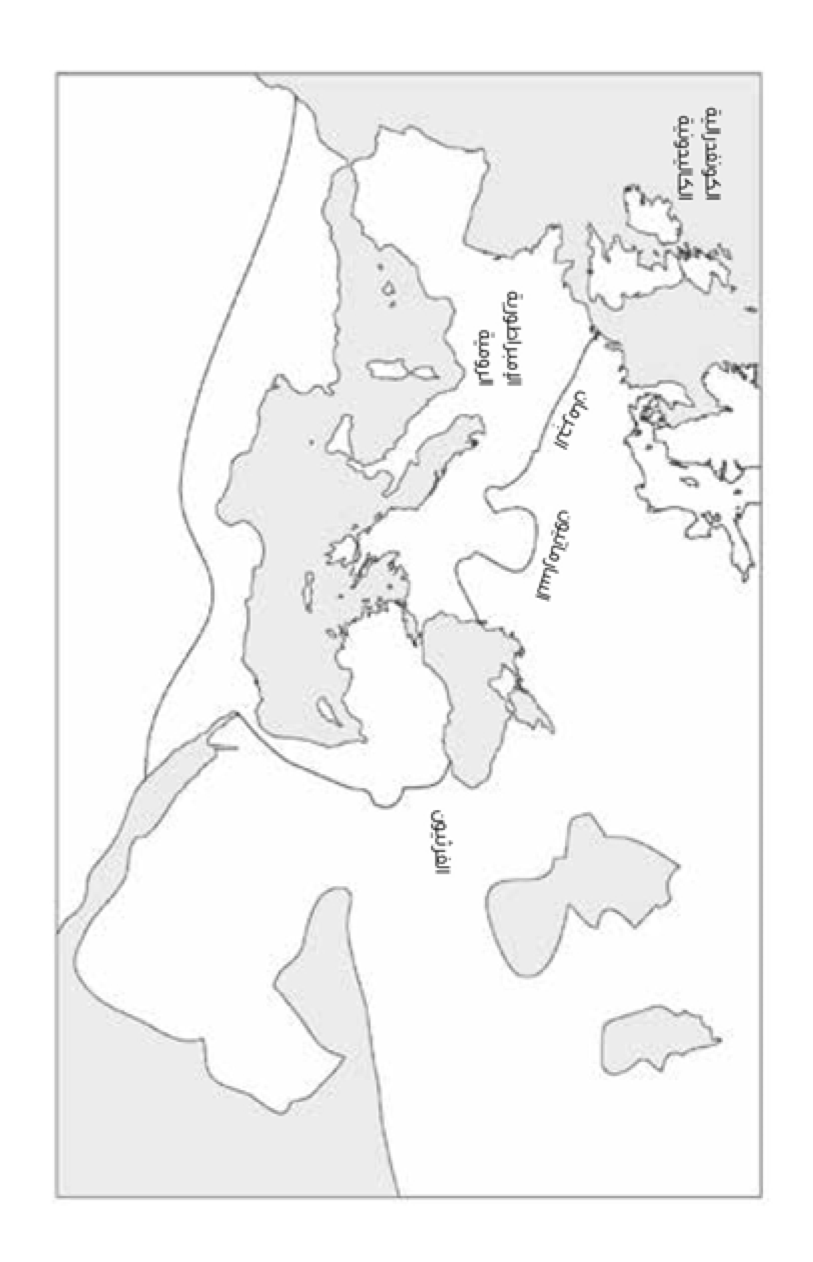
قائمة الخرائط



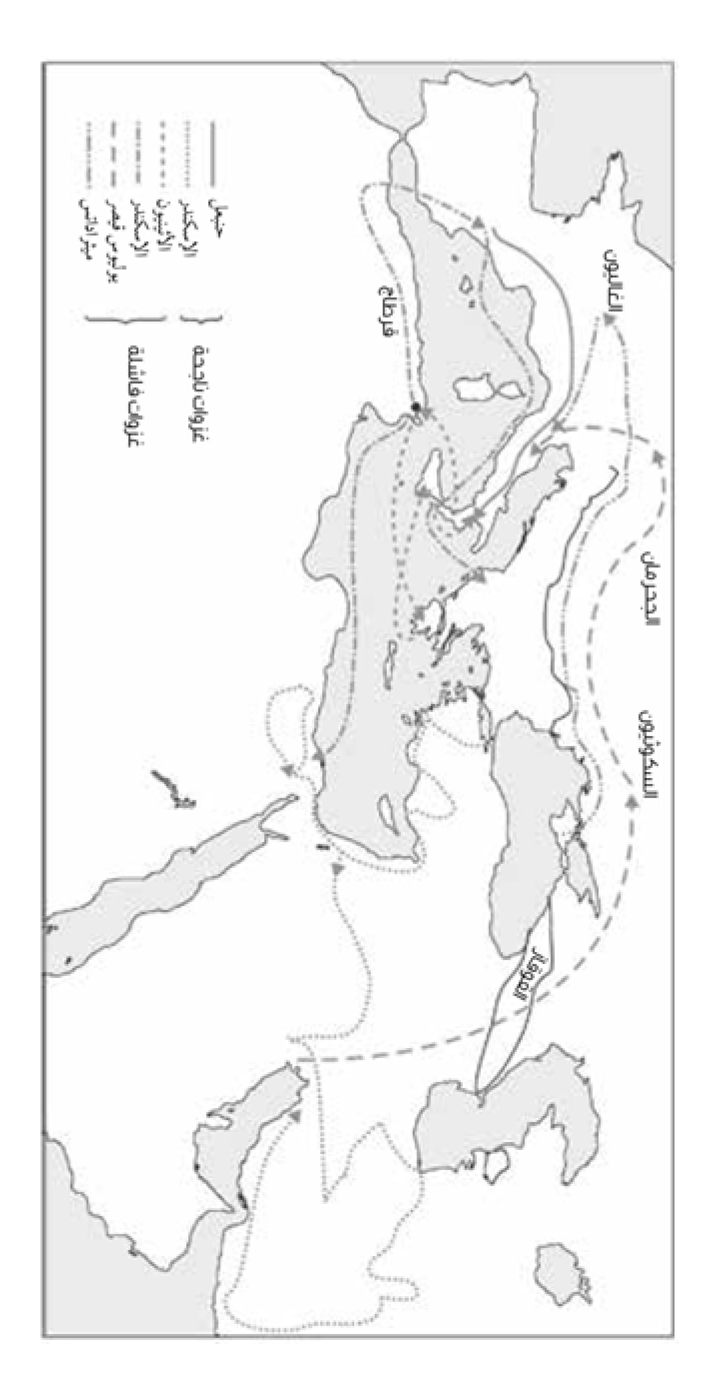
1. أماكن بالغة الأهمية في حروب طروادة والحروب الفارسية



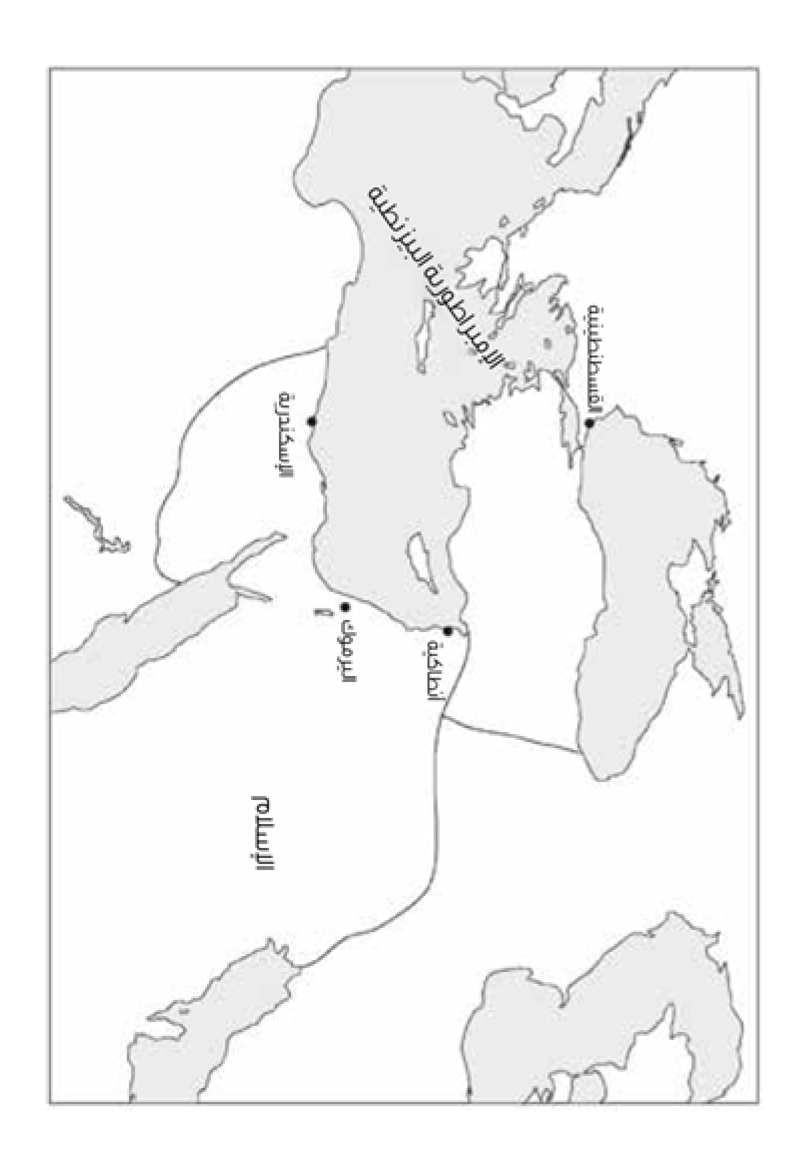
2. القوى العظمى، نحو سنة 270 ق.م.



3. الإمبراطورية الرومية، نحو سنة 117 ميلادية



4. خطط عظيمة للغزو، بعضها تحقق وبعضها لم يتحقق



. 5الغزوات العربية، نحو Sسنة 640 ميلادية

مقدمة

يتناول هذا الكتاب الحروب خلال الفترة بين عامَيْ 750 ق.م و650م، وينصب تركيزه على الحضارات الكلاسيكية لليونان وروما، لكن بعض خصومهما، مثل الفرس والقرطاجيين والجرمانيين والهون والعرب وغيرهم، يحظون بشيء من الذكر. وثمة أسباب تفسِّر هذا التركيز تنبع من التخصص الأكاديمي للمؤلف.

كانت للحرب مكانة راسخة في أعماق الحضارات الكلاسيكية، ورغم ذلك فإن تلك الحضارات في حد ذاتها لم تكن مُتحاربة، على النقيض من الآراء الشائعة. وحتى حين دبت بينها الخلافات، فإنها لم تلجأ دوماً إلى الاشتباك في معارك مباشرة. لقد كان الإغريق والروم ناجحين عموماً في الحروب لفترات طويلة، ولم تكن الحروب قط بعيدة عن تفكيرهم ومخيلتهم. ولقد أفرز عالَم البحر الأبيض المتوسط القديم تفكيراً متطوراً، وبخاصة ما يتعلق بالحروب، ما زال قسم كبير منه راسخاً حتى الآن. واستُغلت المفاهيم التي استُخلصت من الحروب أيضاً لتنظيم الفكر في العديد من المجالات الأخرى. وعُدَّت الحروب من الطرائق الأساسية للتمييز ما بين حضارةٍ وأخرى. وكانت الحروب في الحضارات الكلاسيكية محورية لبناء الرجولة والأفكار المتعلقة بأوجه الاختلاف بين الرجال والنساء. وعند أكثر المستويات حميميَّة، استغل أُناسٌ أفكاراً مُستخلصة من الحروب لفهم شخصياتهم وبنائها. وفي العالمَيْن الإغريقي والرومي، من الممكن أن يستدعي كلُّ ما تقرأه أو تسمعه أو تتطلع إليه فكرةَ الحرب.

راقَ للإغريق والروم اعتقادُ أنهم شنوا حروباً بطريقة مختلفة عن الشعوب التي سبقتهم وعن غيرهم من الشعوب التي عاصرتهم، وذلك أمر يستدعي مجالاً منفصلاً للدراسة.

ولقد بادر بعض العلماء المعاصرين إلى رصد أفكار الحضارات الكلاسيكية المتعلقة بتميزها في شن الحروب، والربط بينها وبين المؤثرات الكلاسيكية في الحضارة الغربية الحديثة، وتوصلوا إلى مفهوم «طريقة الحرب الغربية»، وهو تتابعٌ لا انقطاع فيه للممارسات التي يزعمون أنها تسري من زمن اليونان القديمة حتى عصر الغرب الحديث. ويمثل استكشاف هذا المفهوم وإعادة تقييمه جانبَيْن محوريَّيْن من جوانب هذا الكتاب.

يميل العلماء، الذين يرون تتابعاً وتواصلاً في «طريقة الحرب الغربية»، إلى تعريفها على النحو التالي: الرغبة في المشاركة في معارك مباشرة وحاسمة هدفها إبادة العدو. والشكل المثالي لإدارة تلك الحروب هو القتال المتلاحم بين المشاة المُدججين بالسلاح. والشجاعة التي تُغرس نوعاً ما بالتدريب والانضباط هي العامل الحاسم في الفوز بالمعركة. وغالباً ما يرتبط ذلك بتمتع المقاتلين بالحرية السياسية وامتلاكهم للأراضي، في ظاهرة تُعرف باسم «العسكرة المدنية». ويُنظر إلى «طريقة الحرب الغربية» هذه بوصفها صنيعة الإغريق، وإرثاً ورثه الروم صَمَدَ بطريقة ما خلال العصور الوسطى الأوروبية، قبل أن يصعد نجمه من جديد في عصر النهضة الذي انتقل منه مباشرة إلى الغرب الحديث.

وفي هذا الكتاب، تُفسَّر «طريقة الحرب الغربية» تفسيراً مختلفاً، إذ لا تُعدُّ واقعاً موضوعياً وتعاقباً أصيلاً لممارساتٍ معيَّنة بقدر ما تُعدُّ إيديولوجية قوية أُعيد ابتكارها، ومازال يُعاد ابتكارها، منذ أن وضعها الإغريق وتبدلتْ كلما أُعيد ابتكارها. إن الذين يؤيدون تلك الإيديولوجيَّة لا يحاربون لزاماً بطريقةٍ مختلفة عن الآخرين، وكل ما في الأمر أنهم كثيراً ما يعتقدون أنهم يحاربون بطريقة مختلفة حقاً.

لقد حاربتْ بعضُ الحضارات الأسبق بطرائق لا تختلف كثيراً عن طرائق الإغريق. فمن الواضح أن الآشوريين سعوا إلى خوض معارك مباشرة وحاسمة حاولوا فيها إبادة خصومهم. وكانت جيوشهم مُدرَّبَة ومنضبطة وتألَّفَ جزءٌ منها من مُلاك أراضٍ، وضمت تلك الجيوش-فيما يُعرف باسم الحقبة الآشورية الحديثة (934-609 ق.م)- جنودَ مشاة مُدرعين ومُسلحين بحراب فقط لأغراض الالتحام المباشر. وكان الآشوريون يحاربون-على حدِّ قولهم- لأجل حريتهم السياسية. ولا يمكن استبعاد هذه الحرية دون دراسةٍ مقارنة بالحرية «الغربية». ولا يجوز تعميم مفهوم الحرية؛ فمعنى الحرية لا يختلف من حضارة إلى أخرى فحسب، وإنما يتباين داخل الحضارة الواحدة، إذ يمكن أن يحوي في طياته معانيَ متباينة لفئات مختلفة داخل الحضارة الواحدة، وهذه المعاني يمكن أن تتغير بمرور الوقت.

من غير الواضح على الإطلاق أن الحضارات الكلاسيكية كانت متمايزة في شنها الحروب كما كانت تعتقد. ففي عشرينيات القرن العشرين، أماطتْ عملية تنقيب أثرية داخل مستنقع صغير في يورتشبرينغ Hjortspring على جزيرة ألس Als في الدنمارك، اللثامَ عن مركب وأسلحة رائعة. والأرجح أن المُكتشفات وُضِعَت في المستنقع قرباناً للآلهة عام 350 ق.م تقريباً. ولعلها كانت جزءاً من معدات قوة عسكرية مُنيت بهزيمة في حرب أهلية. وضمَّت الأسلحة سيوفاً ودروعَ الزرد وعدداً كبيراً من الحِراب والرِماح والدروع. وعُدَّت هذه المُكتشفات بحسب التفسير الحديث إشارةً إلى أن هذه القوة الهمجية التي تشكَّلَت بعيداً عن اليونان وروما تكوّنَت من مُلَّاك أراضٍ يتمتعون بحقوق سياسية، بمفهوم مجتمعهم لها، مُنظمين في وحدات قوامها رمَّاحون مُجهزون تجهيزاً موحَّداً يستخدمون تكتيكات مفاجئة في محاولةٍ لتحقيق نتيجة حاسمة في المعركة، شأنهم كشأن جيوش البحر الأبيض المتوسط المعاصرة، ولاسيما الفيلق الرومي في ذلك العصر.

وبعد نهاية حقبة العالَم القديم بفترة طويلة، طوَّرَت حضارات أخرى أسلوب قتال على أرض المعركة شبيهاً بشكل مذهل بـ- «طريقة الحرب الغربية»، دون أيِّ تأثير من الغرب، أو بتأثير

قليل منه. وكما سنرى لاحقاً، غيَّرَ أبناءُ قبائل الزولو في جنوب إفريقيا أسلوب تنظيمهم وتكتيكاتهم ومعداتهم العسكرية في أوائل القرن التاسع عشر بغية خلق معركة ضارية مفتوحة يشتبك فيها جنود المشاة اشتباكاً تلاحمياً، وتهدف إلى تحقيق نتيجة حاسمة.

في الواقع، لم تحارب الحضارات القديمة دوماً ب- «طريقة الحرب الغربية». فعلى مرِّ فترات طويلة من تاريخ الإغريق، يبدو أنهم كانوا بارعين نوعاً ما في تجنيب أنفسهم الاشتباك في المعارك. وخلال السبعة والعشرين عاماً التي دارت فيها رحى الحرب البيلوبونيزية المريرة (431-427 ق.م) بين أثينا وإسبرطة وحلفائهما، كانت هناك معركتان بريتان كبيرتان-أو ربما ثلاث- تدنوان من الطريقة «الغربية». وبالمثل، لم يكن الروم أنفسهم مصرّين دائماً وأبداً على الاشتباك في معارك ضارية. فحين نستدعي إلى الذاكرة الأمير الإمبراطوري جرمانيكوس Germanicus من حملاته وراء نهر الراين عام 16م، نجد أن الإمبراطور تيبيريوس Tiberius كان يعتقد أنَّ الأهداف الرومية ستتحقق على نحو أفضل بتشجيع الجِرمانيين على أن ينقلب بعضهم على بعض. وفي عام 48م، عندما بلغت الحرب الأهلية بين يوليوس قيصر وبومبي Pompey مدينةَ دوريس في اليونان، نُفِّذت المحاولة المبدئية لتحقيق نتيجة ملموسة، تمثلت في إجراء تحصينات ميدانية لا في خوض معركة مفتوحة. وفي عام 83م، في معركة مونس غروبيوس، نَظَّمَ الجنرال أغريكولا Agricola جيشه لمقاتلة الكالدونيين، واضعاً قواته المساعدة في الخطوط الأمامية وقواته من الروم المدنيين في مؤخرة الجيش. وزعم صهره المؤرخ تاسيتس Tacitus حين دَوَّنَ ذلك أنَّ النصر سيكون أعظم مجداً بكثير لو لم تُرَق قطرة دم رومية.

هناك عامل واحدٌ ربما يحثنا على المبالغة في التأكيد على تَمَيُّز المعركة الإغريقية والرومية لا بد أن نضعه دائماً نصب أعيننا؛ ألا وهو أنواع الأدلة المتاحة. وعلى الرغم من أن الآثار قد تشي لنا بالكثير عن خصوم الإغريق والروم، فإن أدلتنا الأدبية في جميع الحالات تقريباً تُستخلص من الحضارات القديمة. ولو أن خصومهم تحمسوا لإنتاج مواد أدبية مثيلة، وقُدِّر لذلك الإنتاج الصمود، فربما اختلفت انطباعاتنا كل الاختلاف.

إن الصِلات بين الواقع والإيديولوجية دائماً ما تكون مُعقَّدَة. فمن ناحية، شكَّلَت إيديولوجية «طريقة الحرب الغربية» النحوَ الذي فُسِّرَ به الواقع. وكما سنرى لاحقاً، كان سكان الإمبراطورية الرومية الشرقية في القرن السابع الميلادي مازالوا يعتقدون أنهم حاربوا بطريقة «غربية» صريحة، وأن خصومهم العرب لم يحاربوا بهذه الطريقة، في الوقت الذي بذلت فيه قواتُهم المسلحة، في حقيقة الأمر، جهوداً مضنية لتفادي المعارك الضارية. ومرة أخرى، عندما تعرَّفَ الأوربيون على آلة حرب قبائل الزولو، افترضوا أنَّ الأفارقة لم يكن بوسعهم إنشاؤها من تلقاء أنفسهم، بل لا بد أنهم قلَّدوا نماذج غربية. ومن ناحية أخرى، يمكن أن تُشكِّل الإيديولوجية الواقعَ. فربما كانت هناك معارك برية قليلة في الحرب البيلوبونيزية، لكن في السنوات الأولى للصراع اقتضت الإيديولوجية أن يَدخل الإسبرطيون إقليماً أثينياً وهم يتوقعون الاشتباك في القتال. لو كان تيبيريوس قد قدَّرَ أن هناك احتمالاً باندلاع معركة حاسمة في جرمانيا عام 17م، لما كان أصدر أوامره على الأرجح لجرمانيكوس بإعادة القوات الرومية إلى ضفاف نهر الراين. ولم تَحْسِم أعمال الحصار في دوريس المشكلة القائمة بين قيصر وبومبي، وإنما حُسِمَت في ساحة معركة فارسالا. ربما زعم تاسيتس أنَّ

النصر بلا إراقة دماء رومية نموذج مثالي، لكن جنود الفيالق في معركة مونس غروبيوس كانت لديهم إرادة القتال والقدرة عليه.

وعلى الرغم من أن الصِلات بين الاثنين ليست مباشرةً بأيِّ حال من الأحوال، فمن الأفضل لنا أن نفسِّر «طريقة الحرب الغربية» بوصفها إيديولوجية أكثر من كونها واقعاً موضوعياً. وإن فعلنا خلاف ذلك، بأن ننظر إلى «الحرب الغربية» بوصفها ممارسة مُتصلة، فإننا بذلك نُحدث تجانساً في التاريخ. ومن الممكن أن يؤدي ذلك بسهولة أكثر من اللازم إلى الاعتقاد بأنه كانت هناك دائماً «طريقة حرب غربية» واحدة فقط، والأرجح-بالتبعية- أن هناك «طريقة» أخرى وحيدة أيضاً. وهذا كفيل بتبديد أوجه الاختلاف بين الماضي والحاضر وبين الحضارات المختلفة، فأوجه الاختلاف بيننا وبين أهل اليونان وروما مثيرة، شأنها شأن أوجه الشبه. ولعلنا عندما نُفاجأ نوعاً ما، حين نعثر على أوجه الاختلاف هذه، نحيط بمعلومات عن أنفسنا أكثر مما نراه انعكاساً لأنفسنا وحسب.

عندما أعدتُ قراءة الكتاب بغية وضع هذه المقدمة، خالجني شعور بأن الحاجة إلى الاقتضاب ساقتني إلى إيلاء اهتمام محدود للقرن السادس الميلادي الذي شهد حروب إعادة الغزو التي شنها الإمبراطور جستينيان Justinian وسجَّلَ أحداثها بروكوبيوس Procopius؛ أحد أواخر المؤرخين الكلاسيكيين العُظماء. ولإصلاح هذا الخلل إلى حدٍّ ما، أضفتُ بعض الأعمال الحديثة المعنية بتلك الفترة، في قسم «مزيد من القراءة» في الكتاب. وينبغي النظر إلى هذا القسم بصفته فصلاً ثامناً للكتاب، كما ينبغي قراءة الأقسام الوثيقة الصلة بالتوازي مع النص الأصلي، إذ تضع تلك الأقسام نقاشاتي وحججي في سياق الاهتمامات والنقاشات العلمية الحديثة، وتُمكِّن القارئ من الانطلاق باهتماماته إلى آفاق أبعد.

يدْرس الكتاب الطريقة التي كانت تشن بها الحروب، ويتناول الموضوع الذي لم يَحْظَ بدراسة وافية، ويُعنى برؤية الناس للحروب وآرائهم فيها. ويتنقل الكتاب ما بين استخدام أدلة محددة لبناء ملاحظات عامة وتحليل بعض الأمثلة المعينة لأفكار وجدالات كبيرة للعلم الحديث، على أمل تشجيع القراء على صنع تاريخ مثيل لأنفسهم في سياقات أخرى.

وتبقى المهمة السارة بالنسبة إليَّ أن أتقدم بخالص الشكر هنا لكثيرٍ ممن ساعدوني على إخراج هذا الكتاب، وأذكر منهم المحرر والصديق العزيز جورج ميلر، أولاً لتكليفه بالكتاب، ولإيضاح العديد من الأفكار في أثناء النقاش. وأود أن أشكر زميلَيَّ وصديقَيَّ ماريا ستاماتوبولو، من كلية لِينكن في جامعة أكسفورد، ومايكل ويتبي، من جامعة ورويك، على نقدهما البنَّاء؛ وأشكر كذلك قراء صحيفة «برِس» Press.

وأخيراً، أود أن أهدي هذا الكتاب إلى ذكرى أبي، الكابتن هيو سايدبوتوم، الذي تطوَّع للقتال في الحرب في الثالث من سبتمبر عام 1939.

الفصل الأول
«عند إشارتي، أطلقوا نار جهنم»:
أهذه طريقة الحرب الغربية؟

يستهِلُّ فيلم «المُجالِد» (Gladiator) أحداثَه بمعركة ملحمية تدور رحاها في الغابات الجرمانية. على أحد الجانبين، يقف الروم في تشكيلات منضبطة، مدجَّجين بأسلحة موحَّدة، ينتظرون في صمت، بأعين ترصد كل ما حولهم، ويهيِّئون أسلحتهم العالية التقنية نسبياً. شعارهم «القوة والشرف». وعند صدور الأوامر من تسلسل القيادة الهرمي، يطلقون سهامهم كرجل واحد، ويزحفون كأنهم بنيان مرصوص. وفي أتون المعركة يهبُّون لنجدة بعضهم، ويُبدون شجاعةً أمام الأعداء. وعلى الجانب الآخر، يقف الهمج بلا تشكيلات تُنظِّمهم، يكسو أجسامَهم الفرو، ولا شيء موحَّداً يجمعهم. بعضهم يحمل دروعاً رومية مسروقة، لكنهم يفتقرون إلى المجانق التي تُمثِّل أرقى ما وصلت إليه التقنية العسكرية. في البداية، يُخفون قوتهم بين أشجار الغابة الكثيفة، ويندفعون إلى الأمام والخلف، طارقين أتراسهم بأسلحتهم، ومردِّدين هتافات وحشية. صيحاتهم محض رطانة غير مفهومة. المؤشرات الوحيدة على وجود تسلسل قيادي بينهم هي اللقطات المقرَّبة لمحارب ضخم الجثة كثيف الشعر. يندفعون إلى ساحة المعركة كالغوغاء، ويقاتلون قتال المتوحشين.

الحضارة على جانبٍ، والهمجية على الجانب الآخر. يصوِّر الفيلم الروم على هيئة محاربين يمارسون ما يوصف غالباً بأنه «طريقة الحرب الغربية»، إذ يكون الهدف معركة مفتوحة حاسمة والنصر فيها حليف الشجاعة التي هي في جزء منها وليدة الانضباط. أمَّا الجرمانيون، فيمارسون نوعاً «خبيثاً» من الحرب، ذلك أنهم يستهدفون نصب الكمائن، ولا يقاتلون بانضباطٍ، وإنما بوحشية جنونية. عندما نشاهد المعركة تبدو لنا «حقيقية»، لأنها تبدو «طبيعية». لكنها ليست «طبيعية»، لأن «طريقة الحرب الغربية» ونقيضها ما هما إلا مُركَّبَان ثقافيَّان. ومن المهم أن نتساءل من أين جاء مفهوم «طريقة الحرب الغربية» هذا؟ ولأي شيء وُضع؟ ولماذا حوفظ عليه؟

الإغريق والطرواديون

يمكننا البدء باستحضار إلياذة هوميروس بوصفها أوَّل عمل من أعمال الأدب الغربي. تدور أحداث هذه القصيدة الملحمية الإغريقية في زمن الأساطير الذي وقعت فيه حرب طروادة، وهو عام 1200 ق.م تقريباً، عندما حاصرَ تحالفٌ من الإغريق، بقيادة ملكِ مايسيني Mycenae، مدينةَ طروادة في آسيا الصغرى ونهَبَها. خرجت القصيدة إلى النور هناك، لكن أجيالاً متعاقبة من الشعراء رووها وأعادوا روايتها، وفي سياق إعادة روايتها تبدَّلت وتغيَّرت، حتى وصلت إلى صيغتها النهائية في القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد، إذ دُوِّنت في نهاية المطاف في القرن السادس قبل الميلاد.

قد توحي بعض عناصر هذه القصيدة بأن فكرة «طريقة الحرب الغربية» موجودة بالفعل؛ يمارسها الإغريق ولا يمارسها الطرواديون. فالطرواديون يتكبَّدون خسائر في الأرواح أكثر مما يتكبَّد الإغريق، ورجالهم يُثْخَنون بجراح أغورَ بكثير من عدوهم. وبعض الأفعال الدالة على الألم لا تُستخدم إلا مع الطرواديين. والطرواديون في القصيدة يتحدثون بنبرات أقلَّ جزماً وأقلَّ حربيةً من الإغريق. ولا يلتمس الرحمةَ تحت أسنَّة الرماح إلا الطرواديون. وفي موضعَيْن مختلفَيْن يقال لنا صراحة إن الإغريق يهبُّون لنجدة بعضهم في أتون المعركة. وفي موضعَيْن مختلفَيْن آخرَيْن نقرأ أن الإغريق يزحفون للقتال في صمت، على النقيض من الطرواديين الذين يَثْغون ثُغاء الشاء، أو يصيحون صياح الطريدة.

ومع ذلك، لا ينبغي على الأرجح أن نستنبط من كل هذا «طريقة حرب غربية» في قصيدة الإلياذة. فلغة الطرواديين التي لا تميل كثيراً إلى الحرب يمكن تعليلها باعتبار أنهم موجودون في ديارهم، يدافعون عن آبائهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأطفالهم، وغالباً ما يتحدثون إليهم. أمَّا الإغريق فيقيمون في معسكر مسلَّح لا يَضمُّ إلا المحاربين وسباياهم من النساء اللاتي اغتُنمن بأسنَّة الرماح. ومحصلة الضحايا أكبر بين الطرواديين لأنهم سيخسرون المعركة في نهاية المطاف. أمَّا التماس الطرواديين الرحمة وتألُّمهم من جراح أكثر إدماءً واستخدام أفعال دالة على الألم معهم، فكلها تعمل على زيادة مشاعر الشفقة والتعاطف مع المصير الذي يعلم كل قارئ أنه محدق بطروادة. ثلاث فقرات فقط (الكتاب 3، الأبيات 2-9، والكتاب 4، الأبيات 428-438، والكتاب 17، البيتان 364-365)، في قصيدة بالغة الطول، هي التي تشكِّل الأساس الذي بُنيت عليه المقولتان الصريحتان بأن الإغريق يهبُّون لنجدة بعضهم في أتون المعركة ويزحفون إلى القتال في صمت. وفي مقابل ذلك، نجد فقرة واحدة تحدِّثنا عن زحف الطرواديين إلى القتال في صمت (الكتاب 13، البيت 41). وفي ثنايا السَّرد نجد الطرواديين يهبُّون لنجدة رفاقهم، شأنهم كشأن الإغريق.

من الملحوظ بوجه عام أن هذه الملحمة الإغريقية، التي تروي لنا جزءاً من قصة نصر إغريقي أسطوري على غير الإغريق، قد خلت من كراهية الأجانب. فالإغريق لا يتميزون عن غير الإغريق. ويشترك الطرواديون وحلفاؤهم والإغريق فيما يتعلق بالبنية الاجتماعية والسياسية. فكلا الجانبين يعيش في مدن، وهذه المدن يحكمها ملوك، وتوجد فيها مجالس حكماء وجمعيات عمومية. وهم يملكون العتاد الحربي ذاته: العجلات الحربية، والخوذات، والدروع البرونزية، والأتراس، والرماح، والسيوف. وعلى كلا الجانبين يستخدم بعضهم القوس والسهام. وهم يستخدمون هذا العتاد بطرائق متماثلة؛ فأحياناً يتقاتلون عن بُعد وأحياناً متلاحمين، وأحياناً يتبارزون فُرادى وأحياناً

أخرى مجتمعين. وفوق هذا كله، ثمة حافز مشترك يجمعهم؛ إذ تستخدم القصيدة أرقى خطبة تسرد تفاصيل ميثاق البطولة الذي يحفِّز الرجال في «سعير المعركة»، على لسان ساربيدون Sarpedon، أمير ليكيا في آسيا الصغرى وحليف الطرواديين.

- يجب أن نأخذ مكاننا في طليعة المقاتلين الليكيين، وأن نضطلع بدورنا في المعركة الحامية الوطيس، ليرانا الليكيون المدرَّعون بشدة فيقول أحدهم: «حقاً، إن أسياد ليكيا هؤلاء، ملوكنا، الذين يأكلون الأغنام السمينة المنتقاة ويشربون الخمر الفاخرة الحلوة المذاق، ليسوا رجالاً أخسَّة، لأن فيهم قوة البسالة ولا ريب، ولأنهم يقاتلون في طليعة الليكيين.

- والآن، ونحن نرى أشباح الموت تُحدِّق بنا في آلاف مؤلفة من كل حدب وصوب، فلا يمكن لبشر أن يولِّيها دُبُره أو يفرَّ منها، فلنمضِ إلى الحرب ولنحرز المجد لأنفسنا، أو نجلبه لغيرنا».

(الكتاب 12، الأبيات 315-328، ترجمة ريتشارد لاتيمور)

قارن بين خطبة ساربيدون وخطبة أحد الأبطال الإغريق.

أمَّا أوديسيوس، المشهور بقوة رمحه، فقد تُرك وحيداً، ولم يبقَ معه أحد من الآرغوسيين [الإغريق]، إذ سيطر الخوف عليهم جميعاً.

وبقلبٍ جريح ناجى روحه النبيلة قائلاً:

«آه يا روحُ، تُرى ماذا ينتظرني؟ سيكون إثماً عظيماً إن فررتُ خوفاً من كثرة عددهم، لكن لو هُزمت وأنا وحيد فسيكون الأمر أسوأ-

ولكن لماذا أسمع قلبي بداخلي يجادل في هذه الأشياء؟ إنني أعلم أن الجبناء هم الذين يهربون من القتال، أمَّا إن أراد المرء أن يحظى بالشرف في المعركة، فعليه أن يصمد ويثبُت بشتى السبل في ساحة القتال، سواء أكان النصر حليفه أم لا».

(الإلياذة، الكتاب 11، الأبيات 401-410، ترجمة ريتشارد لاتيمور)

لا توجد في الإلياذة «طريقة حرب غربية» تميِّز الإغريق عن أعدائهم.

الإغريق والفرس

على الرغم من إقدام الشعراء الإغريق في العصر القديم (776-479 ق.م) من حين إلى آخر على الانتقاص من شأن الأجانب، فإن طريقة التفكير التي قسَّمت العالم إلى إغريق متفوقين وهمج منحطين خرجت إلى الوجود مع اندلاع الحروب الفارسية (490-479 ق.م) وما نجم عنها من آثار. ومع حدوث هذا الانقسام، وُلد مفهوم «طريقة الحرب الغربية».

بحلول زمن الحروب الفارسية، كان معظم الإغريق يعيشون في عدد كبير من «الدول المدن» المستقلة. وبعد موجة استعمارية هائلة (750-550 ق.م تقريباً)، كان هؤلاء قد انتشروا فيما وراء حدود أوطانهم الإغريقية في البر الرئيس اليوناني وجزر بحر إيجة والساحل الغربي لتركيا الحديثة نحو الغرب (صقلية وجنوب إيطاليا وسواحل فرنسا وإسبانيا على البحر المتوسط)، وشواطئ البحر الأسود، فضلاً عن بعض المستوطنات في شمالي إفريقيا. كانت كل دولة مدينة تطبق قوانينها الخاصة، ويسيطر على حياتها السياسية عددٌ من مواطنيها الذكور البالغين، قلَّ أو كَثُر. وكانت نواة القوات العسكرية للدولة المدينة عبارة عن ميليشيا من المواطنين المدنيين، تتألف أساساً من المزارعين.

وكان هؤلاء المزارعون يحاربون بصفتهم جنودَ «هوبلايت» [1] hoplite، وهم جنود مشاة ثقالٌ يسيرون منظَّمين في تشكيلات سُلاميَّة[2] متراصة تراصاً وثيقاً، ومجهَّزون للقتال المتلاحم وحسبُ برمحٍ طاعن طويل وسيف.

غزتْ قواتُ الإمبراطورية الفارسية، التي سبق أن سيطرت بالفعل على المدن الدول اليونانية في آسيا الصغرى وبعض جزر بحر إيجة، البرَّ الرئيسَ اليوناني مرتين، إحداهما في عام 490 ق.م والأخرى بين عامَي 480 و479 ق.م. كانت بلاد فارس إمبراطورية فتيَّة وتوسُّعية. وكانت جيوشها تتألف من حوائط صدٍّ بشرية، مُجدية نوعاً ما، قوامُها أفرادٌ مجندون من الأمم الخاضعة للإمبراطورية، ونواة جيوشها من الإيرانيين. وكانت هذه النواة مزيجاً من الفُرسان والمشاة. امتلك الفُرس القدرة على القتال عن بُعد (بالأقواس والرماح) والقتال المتلاحم (بالحراب والسيوف). مُنيت الحملة الفارسية الأولى، وكانت عملية عسكرية صغيرة نسبياً بالمعايير الفارسية، بالهزيمة في موقعة ماراثون على أيدي جنود الهوبلايت الأثينيين بمشاركة فرقة صغيرة من قرية بلاتايا Plataea. أمَّا الغزو الثاني، بقيادة ملك الفرس شخصياً، فكان على نطاق مهيب بكل ما تعنيه الكلمة. ولم تتَّحد صفوف جميع الإغريق من سكان البر الرئيس في عصبة واحدة للتصدي له. وفي عام 480 ق.م، اندحرت قوة إغريقية صغيرة، بقيادة 300 مقاتل إسبرطي، في موقعة ترموبيل Thermopylae، على الرغم من مقاومتهم البطولية. وفي الوقت نفسه، انتهت معركة بحرية دارت رحاها قبالة أرطيميسيوم Artemisium بعدم إحراز أيٍّ من الفريقين نصراً حاسماً. وفي وقت لاحق من ذلك العام، أحرز الإغريق نصراً بحرياً في موقعة سلاميس Salamis. وفي العام التالي، ألحق الإغريق بالجيش الفارسي هزيمة ماحقة في موقعة بلاتايا.

يجب أن ننظر إلى الانتصارات الإغريقية على أنها كانت مفاجِئة وغير متوقعة، فقد فاقهم العدو عدداً. وكانت تشكيلاتهم السُّلامية من مشاة الهوبلايت أداةً بسيطة مقارنة بالقوات الفارسية التي تتمتع بالمرونة. وكان الفُرس قد ألحقوا بالقوات الإغريقية الأخرى هزائم في معارك سابقة.

بصرف النظر عن تكتيكات وظروف بعينها، يفسِّر هيرودوت، المؤرخ الإغريقي العظيم الذي أرَّخ للحروب الفارسية، نتيجة موقعة بلاتايا على النحو التالي: «كانوا (أي الفرس) في الشجاعة والقوة على المستوى ذاته الذي يتمتع به خصومهم، لكنهم عانوا نقصاً في الدروع، وقصوراً في التدريب، وتدنياً كبيراً في المهارة». وكما جاء في سرده، يقاتل الفرس باستبسال قتالاً متلاحماً إلى أن تنهار معنوياتهم بموت قائدهم. كان هيرودوت من القائلين بالنسبية الأخلاقية، والهدف المعلن من تأريخه تخليد أعمال الإغريق والهمج على حد سواء. وكان يرى أن الهمج غالباً ما يتباينون مع الإغريق في عاداتهم، لكن ذلك لم يجعل الهمج أسوأ من الإغريق، عدا ناحية واحدة. فبينما عاش الإغريق في حرية سياسية، عاش الهمج في عبودية سياسية تحت حكم ملوكهم. لم يكن موقف هيرودوت الموقف السائد في أعقاب الحروب الفارسية، عندما خرج الإغريق بقيادة الأثينيين لشن الهجوم الاستراتيجي.

يمكن العثور على موقف إغريقي نمطي بدرجة أكبر يعود إلى زمن مبكر، وتحديداً عام 472 ق.م، عندما مُثِّلت مسرحية «الفُرس» (The Persians) للكاتب أسخيلوس Aeschylus في أثينا. تدور أحداث المشهد في البلاط الفارسي، إذ يُنتظر وصول نبأ الهزيمة في سلاميس، ثم يصل نبأ الهزيمة. تصوِّر المسرحية آسيا على هيئة أرض غنية وخصبة ومترفة ومؤنثة في جوهرها. أمَّا اليونان، فعلى النقيض من ذلك؛ أرض صخرية وعرة ذات طابع ذكوريٍّ. الفرس يقاتلون في سبيل مَلِكهم، وهو ملكٌ قاسٍ ورعديد ولا يأبه لحرمة المقدسات. وهم مستعبدون، فتراهم يسجدون لحكامهم ويخشون الكلام حتى أمام أشباحهم. وهم عاطفيون، إذ يستسلمون للحزن المبالغ فيه. أمَّا الإغريق، فيقاتلون في سبيل الحرية. في بلاد فارس، الملك هو الدولة، وأمَّا في اليونان فهذه الدولة هي الرجال الذين تتألف منهم الدولة المدينة. كثيرٌ من الفرس ذُكروا بالاسم، وأمَّا الإغريق فلا؛ ما يعطي انطباعاً بأن الإغريق ينطلقون من الروح الجماعية خلافاً للفرس. ويوصَف الفرس مراراً وتكراراً بأنهم فرسان ورماة، وأمَّا الإغريق، على النقيض من ذلك، فهم رمَّاحون، مثلما يتبين في المقتطف التالي من الحوار الذي دار بين الملكة الأم الفارسية (امرأة، وهذا له دلالته) وجوقة الشيوخ (وهذا له دلالته).

الملكة: هل لديهم [أي الأثينيين] مثل هذا المَعين الوافر من المقاتلين؟

الجوقة: لديهم جنود وجَّهوا للأسلحة الفارسية ضربة رهيبة [أي في موقعة ماراثون].

الملكة: أهم بارعون في الرماية؟

الجوقة: كلا، كلا البتة. فهم يحملون أتراساً ضخمة، ويخوضون قتالاً متلاحماً بالرماح.

الملكة: فمن يسوسهم؟ مَن السيِّد الذي يطيعه عامتُهم؟

الجوقة: سيِّد؟ إنهم لا يُدعون عبيداً لأحد.

الملكة: وهل يمكنهم مقاومة الغزو بلا سيِّد؟

الجوقة: نعم! لقد دمروا جيش دارا الهائل النبيل [مرة أخرى، يقصد موقعة ماراثون].

(الصفحات 235-244، ترجمة فيليب فيلاكوت، بتصرف طفيف)

لكن ازدراء الآسيويين يبدو أوضحُ في عمل كاتبٍ إغريقيٍّ مجهول عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وكُتب له البقاء في كتابات المؤلِّف الطبي أبقراط Hippocrates.

إن التغيرات الطفيفة في المناخ، التي يتعرض لها الآسيويون، إذ يتجنبون درجات الحرارة المتطرفة حراً وبرداً على السواء، تفسِّر ميوعتهم وجبنهم-

مثل هذه الأشياء تبدو لي السبب في ضعف العرق الآسيوي، لكن هناك سبباً ثانوياً يكمن في تقاليدهم، إذ ترضخ غالبيتهم للحكم الملكي.

(«الأجواء والمياه والأماكن»، ص 16، ترجمة بول كارتليدج)

لقد رسَّخت الحروب الفارسية إيديولوجية «طريقة الحرب الغربية» تماماً. فالإغريق يقاتلون في سبيل الحرية، ويبغون معركة تدور في أرض مفتوحة يخوضونها بالقتال المتلاحم وينتصرون فيها بفضل تدريبهم وشجاعتهم. أمَّا الفرس الخانعون، فيقاتلون تحت قيادة حاكم مستبد. إنهم جبناء مخنثون، تراهم رماةً يسعون إلى اجتناب القتال المتقارب، وفرساناً يسارعون بالفرار.

إن هذا بالطبع ليس تحليلاً متجرداً، لكنه مركَّبٌ إيديولوجي قوي. ففي الحروب، كان الفرس-كما يروي لنا هيرودوت- يبغون معركة تدور في أرض مفتوحة ويخوضونها بالقتال المتلاحم في شجاعة واستبسال. ويذكِّرنا هيرودوت بأنه لم يكن جميع الإغريق في كل الأزمنة يدينون بالإيديولوجية السائدة، فهناك بعض الفرس الذين كان الإغريق يرونهم رجالاً بواسل. ويمكن عدُّ الفرس، على وجه الإجمال، ممثلين لثقافة حكيمة قديمة. ولقد تبنى الإغريق بعد انتهاء الحروب العديد من السلع المادية الفارسية. ويعزو ذلك إلى أن تعريف الثقافة يتمثل جزء منه في أنها تسمح لأفرادها بتبني وجهات نظر متعارضة منطقياً.

الروم والقرطاجيون

قُدِّر لمفهوم «طريقة الحرب الغربية» أن يثبت ديمومته الملحوظة وقابليته للتكيف والتصدير، ولاسيما فيما يخص روما. فمنذ البداية، تعرضت روما لمستوى معين من التأثير الإغريقي. وبحلول عام 270 ق.م، كانت روما تحكم المدن الإغريقية الواقعة في جنوبي إيطاليا. وانتهت «الحرب البونية الأولى» (الاسم التقليدي للحروب التي خاضتها روما أمام قرطاجة، وهو مشتق من «بوني» Poeni، اسم القرطاجيين باللغة الرومية)، التي دارت رحاها ما بين عامي 264 و241 ق.م، بسيطرة الروم على الكثير من المدن الإغريقية الواقعة في صقلية. وتمخضت الحرب البونية الثانية (218-201 ق.م) عن هيمنة الروم على منطقة غرب البحر المتوسط. وأسفرت الحرب البونية الثالثة (149-146 ق.م) عن دمار قرطاجة.

كان المجتمع والتنظيم الروميان في عهد الجمهورية عدوانيَّين للغاية من الناحية البنيوية، فقد كانت رغبات أبناء النخبة في نيل المجد وتحقيق المكاسب دافعاً إلى التوسع، وهي الرغبات التي وافقهم عليها أبناء غير النخبة. وكانت سيطرة روما على حلفائها الإيطاليين أيضاً دافعاً إلى التوسع. لم تفرض هناك ضرائب على هؤلاء الحلفاء عدا إمداد الجيوش الرومية بالجنود. وكانت الفيالقُ الأسلحةَ الرئيسة لدولة مدينة روما، وهذه الفيالق عبارة عن ميليشيا مواطنين من المشاة الثقيلين، وتتألف غالباً من المزارعين أصحاب الأراضي. وقد سُلِّح هؤلاء، في وقت من الأوقات، على هيئة المشاة الثقيلين، لكن بحلول زمن الحروب البونية، كانوا مسلحين بالبيلوم (وهي حربة رماية ثقيلة) والسيف.

كانت قرطاج دولة مدينة في شمال إفريقيا تأسست إبان القرن الثامن ق.م على أيدي الفينيقيين الذين جاؤوا من الشرق الأدنى، وشادوا-بحلول الحرب البونية الأولى- إمبراطورية خارجية ضمت أجزاء من صقلية وسردينيا وجزر البليار ومناطق من إسبانيا. وبعد أن خسرت قرطاج أراضيها في صقلية وسردينيا في أعقاب الحرب الأولى مع روما، عمدت قبل الحرب الثانية إلى توسيع المناطق الإسبانية الواقعة تحت سيطرتها. وبحلول زمن الحروب البونية، لم تكن القوات القرطاجية تتألف من مواطني قرطاج، لكنها كانت تحت قيادة القرطاجيين. وبدلاً من ذلك، استعانت قرطاج بالرعايا والحلفاء والمرتزقة، وسمحت لهم جميعاً بالقتال بطريقتهم الأصلية، وقد أدى الأسلوب القرطاجي في شن الحرب إلى تصوير الروم إياهم على هيئة «شرقيين» لا يتَّبعون «طريقة الحرب الغربية».

يبدو أن الروم، بتصويرهم القرطاجيين على هيئة همج «شرقيين» جبناء، لم يستغلوا أصول قرطاج الشرقية الحقيقية إلا قليلاً نسبياً. ومن الجائز أن أصول الروم أنفسهم، بوصفهم طرواديين جاؤوا من الشرق كما تقول أساطيرهم، حالت دون الاستناد بقوة إلى هذا العامل. وبدلاً من ذلك، مدت الجغرافيا والمناخ يد العون. فبفضل العيش في ميناء تجاري، صار القرطاجيون جشعين وكذابين. فكان الخداع، في أعين الروم، إحدى سمات القرطاجيين، والغدر والخيانة مرادفين للقرطاجيين. وكانوا فوق ذلك غلاظ القلوب مؤمنين بالخرافات. واجتمعت هذه الصفات في قرابينهم البشرية، ولاسيما في تقديمهم أطفالهم قرابينَ، وأُضفي الطابع الأنثوي على قرطاج. كانت النساء القرطاجيات فاتنات دواهيَ، مثل الملكة عليسة التي تحدثت عنها الأساطير. وكان الرجال

القرطاجيون مخنثين يرتدون ملابس فضفاضة بلا أحزمة، وعديمي السيطرة على رغباتهم الجنسية. ولقد كشف جَلبُهم جنوداً غيرِهم لخوض حروبهم عن جبنهم. وعزا الروم السبب في هذا إلى عيشهم في إفريقيا. كانوا يرون أن حرارة الشمس كادت تجفف الدماء في عروق الأفارقة، وهكذا فإنهم يخشون إصابتهم بجراح لئلا يفقدوا ما في عروقهم من دماء قليلة، ومن ثمَّ كانوا جبناء. وهناك «دليل» آخر على همجيتهم-أي أنهم يمثلون الآخر- وهو اعتقاد أنهم كانوا يأكلون الكلاب.

لقد تكوَّن جزءٌ من الصورة الإثنوغرافية السلبية للقرطاجيين بناءً على الواقع (إذ كانوا يقدمون فعلاً بعض أطفالهم قرابين) وتكوَّن الجزء الآخر اعتماداً على الخيال (من شبه المؤكد أنهم لم يكونوا يأكلون الكلاب). ولقد أصرَّ الروم على هذا الاعتقاد رغم الأدلة التي تثبت العكس. كانت الجيوش القرطاجية تسعى إلى خوض معارك حاسمة في أرض مفتوحة ضد الجيوش الرومية، وغالباً ما كان النصر حليفهم في تلك المعارك بقيادة حنبعل، وذلك أمر يمكن تفسيره. فالقرطاجيون اعتمدوا على شجاعة الآخرين لخوض المعارك نيابة عنهم، ودهاء حنبعل الفائق هو الذي ضمن لهم النصر.

من الممكن-كما رأينا- أن يقال إن الإغريق جمعتهم بالحضارة الفارسية علاقة متناقضة، قوامها الحب والكراهية في آنٍ واحد، ربما مع التشديد على الكراهية. ولا يصْدق الشيء نفسه إلا قليلاً جداً على علاقة الروم بالحضارة القرطاجية. فعندما دمر الروم قرطاجة، تبرعوا بمكتباتها إلى «الأمراء الأفارقة»، باستثناء كتاب عن الزراعة تُرجم إلى اللاتينية. وعن طريق الجيش على الأرجح، وصلت الكلمة الغريبة «بونيٌّ» إلى اللاتينية، ربما مع اقتباس الروم لشيء يوصف بأنه «بونيٌّ»، ولم تتعرض الثقافة واللغة البونية للقمع. وبحلول الوقت الذي لم يعد فيه لقرطاجة وجود سوى كونها مدينة بُنيت من جديد يسكنها مواطنون روميون، كان بإمكان أحد كتَّاب الجغرافيا باللغة اللاتينية أن يشير باعتزاز إلى رؤيته البونية للعالم، ومثلما أوضح المؤرخ تاسيتس في مطلع القرن الثاني الميلادي، فلم يعد يهمُّ آنذاك إن أشدتَ بروما أو أشدتَ بقرطاج. لكن القالب النمطي الإثنوغرافي كُتب له البقاء. ولا نستغرب أن يَعد كثيرون أولَ إمبراطور رومي ينتمي إلى أصول بونية، وهو سيبتيموس سيفيروس Septimius Severus، غليظَ القلب ماكراً ويؤمن بالخرافات.

الروم والإغريق

إن التغيير الأخير الذي سنتناوله في هذا الفصل في الحدود الممتدة بين مَن يُعَدُّون أتباع «طريقة الحرب الغربية» ومَن يُعَدُّون «شرقيين»، ومن ثمَّ لا يتبعون «طريقة الحرب الغربية»، ينطوي على مفارقة شديدة السخرية ونحن ننتقل إلى فتح الروم للعالم الإغريقي.

كان الإسكندر المقدوني عند موته (323 ق.م) يحكم اليونان والإمبراطورية الفارسية القديمة. وخاض خَلَفُه معارك لاقتطاع دول لأنفسهم من إمبراطوريته. ومن قلب الدسائس والحروب،

برزت ثلاث «قوى كبرى» طويلة الأمد ومستقرة بحلول عام 270 ق.م، وهي المملكة الأنتيغونية «الهيلينية» التي حكمها المقدونيون (وتتمحور حول مقدونيا وتهيمن على اليونان)، والمملكة السلوقية (وقاعدتها في الشرق الأدنى وتسيطر على أجزاء من آسيا الصغرى)، والمملكة البطلمية (وقاعدتها الرئيسة مصر). وخلال القرن الثاني قبل الميلاد، تغلبت روما على الأنتيغونيين والسلوقيين. وبعد ثلاث حروب وثورة، صارت مقدونيا مقاطعة رومية في عام 147 ق.م. وفي العام التالي دُمجت اليونان في أرض مقدونيا. وبعد حرب ضد أنطيوخوس الثالث Antiochus III (192-189 ق.م)، طُرد السلوقيون من آسيا الصغرى وصاروا تابعين لروما. وفي عام 133 ق.م، أنشئت مقاطعة باسم آسيا الرومية عندما أوصى آخر حكام مملكة بيرغاموم في آسيا الصغرى لروما بأملاكه بعد موته. وكانت الفيالق الرومية قد تغلبت تماماً، في سلسلة من المعارك، على جيوش الممالك الهيلينية المنظمة على الطراز المقدوني والقائمة على تشكيلات سلامية مسلحة برماح البايك.

في القرن الثاني قبل الميلاد، وبينما كان الروم يغزون الإغريق شرقاً، بدأوا يكتسبون قدراً كبيراً جداً من الثقافة الإغريقية، وهي العملية التي نعرفها باسم الهَلْيَنة. وهذان العاملان متصلان. فكما رأينا، كانت روما عرضة للتأثيرات الإغريقية منذ البداية، وحكمتْ المدن الإغريقية منذ بداية القرن الثالث قبل الميلاد. لكنْ حدث في القرن الثاني أن تغلغلت روما في البر الرئيس اليوناني، موطن الأثينيين والإسبرطيين، الذين كانوا في أعين الروم يتمتعون بمكانة ثقافية أرفع من إغريق إيطاليا وصقلية. وحدث أيضاً في القرن الثاني أن بدأ الروم، ولاسيما النخبة الرومية، يَجنون ثروات طائلة من فتوحاتهم، وكانت الثروة ضرورية تماماً لهَلْيَنة روما. كانت النخبة الرومية تشهد تنافساً عميقاً من الداخل، وأتاحت الهَلْيَنة طريقة جديدة ينافس بها أفراد النخبة بعضهم بعضاً، مثلما كانوا يتنافسون مثلاً في اقتناء المزيد من الأعمال الفنية الإغريقية. وحققت الهَلْيَنة أغراضاً أخرى لأبناء النخبة الروميين، إذ ميَّزتهم عن الروميين من غير أبناء النخبة الذين لم يكن بوسعهم السير على خطاهم، وربطتهم بالنخب الإيطالية المتحالفة معهم التي تملك الموارد المالية اللازمة. مُنحت الفنون والعمارة مسارات جديدة، وخرج الأدب والفلسفة من حالة ركود. وبحلول القرن التالي، لم يكن هناك مجال من مجالات حياة النخبة الرومية لم يطله التأثير. كان أبناء النخبة الروميون يعلِّمون أبناءهم باللغة الإغريقية، واتخذوا معماريين إغريقيين لتصميم أبنيتهم، وفنانين إغريقيين لزخرفتها. وكانوا في بيوتهم يكثرون من ارتداء الملابس الإغريقية والتحدث باللغة الإغريقية، وصار المنتدى الإغريقي (وهو احتفالية لتناول الطعام واحتساء الشراب) ملتقاهم الاجتماعي المفضل. ولم يكن لبيتٍ رومي رفيع المنزلة أن يكتمل، على ما يبدو، دون أن يكون فيه مثقف إغريقي حسن المعشر.

لم يعنِ التَّهلْيُن بالضرورة أن الروم أقروا، أو أحبوا، الإغريق الذين غزوا أراضيهم وحكموهم. فقد كان الإغريقي القديم يَعدُّ نفسه هيلينياً. أمَّا الروم، فقد بخلوا عليهم بهذه المجاملة، وكانوا يسمون الإغريقي «إغريقوس»، وهي كلمة معروف أنها مهينة. لكن الكلمة الأشد إهانة هي «إغريقولوس»، وتعني الإغريقي الصغير (وبالمثل كانوا يَدْعون القرطاجي «بوينولوس»، بمعنى القرطاجي الصغير). وربما كانت مضامين هذين اللقبين أشبه بحالة الرجل الأبيض في الولايات الأمريكية عندما يدعو الرجل الأسود «فتى». كان الروم يَعُدُّون الإغريق القدامى رجالاً صالحين،

وذلك قبل أن يحاربوهم بزمن طويل، ومن الجائز حتى أنهم كانوا يشبهون الروم كثيراً. لكنهم كانوا يرون أحفادهم منحطين، فعدوهم جشعين وفاسدين. كان الكذب يجري في دمائهم، وبعض الإغريق أسوأ من بعضهم الآخر. وكان الإغريق الآسيويون خانعين بطبيعتهم، فقد كتب المؤلف الرومي الساخر جوفينال Juvenal بغضب عن مجيء الإغريق إلى روما (3.58-125)، وكان يمقت الإغريق القادمين من سوريا على وجه الخصوص، إذ قال: «كانت القذارة من نهر أورنطس [العاصي] تتدفق في نهر التيبر» (3.62-66). لكن كان يمكن عدُّ الإغريق كافة مترفين وفاسقين ومخنثين. والمنتجات الثقافية ذاتها التي اعتنقها أبناء النخبة الروم بقوة كانت أشياء محل شبهة، وربما نُظِر إليها باعتبارها تقوض «رجولة» الروم ذاتها. كانوا يرون أن الفلسفة تجعل الرجل غير لائق لحياة مفعمة بالعمل والحركة. ورأى الروم أن رياضيي ألعاب القوى الإغريق العراة يحرضون على التهتك والخلاعة، والحقيقة أن هناك من زعم أن الشذوذ الجنسي سلعة إغريقية استُوردت عن طريق ألعاب القوى. وشكا بلينيوس الأصغر Pliny the Younger من أن التدريب البدني في زمانه لم يعد ميداناً للجنود كبار السن حملة الأوسمة العسكرية، وإنما للإغريقولوس (رسائل المديح، 13.5). لم تكن الرياضات الإغريقية تدريباً جيداً للحرب، وكانت الحرب شيئاً لا بد منه لصوغ قالب نمطي سلبي للإغريق.

لم يكن الإغريق في أعين الروم بارعين في الحرب. فكما بيَّن تاسيتس، كان يمكن تنظيم الإغريق وفق التنظيم العسكري الرومي، وتسليحهم بالأسلحة والعتاد الروميَّيْن، فضلاً عن منحهم حق المواطنة الرومية، لكنهم مع ذلك يظلون إغريقاً كما هم، أي كسالى وغير منضبطين (تاريخ هيرودوتس 3.47). والأهم من هذا كله أنهم كانوا جبناء. ولو وجدتَ رجلاً شجاعاً، كما حدث مع مؤلف كتاب «الحرب الإسكندرية» (The Alexandrian War) (15.1)، لقارنتَه بالروم لا بالإغريق الآخرين. وقد صاغ الشاعر الرومي لوكان Lucan إدانة قاسية للإغريق على لسان يوليوس قيصر. كانوا مثقفين أكثر من اللازم، ومترفين وخوراً وكسالى ويرتعد الواحد منهم خوفاً من ظلِّه (فرساليا، 7.400-410). وتنطوي إحدى الحكايات التي تناقلها الروم عن حنبعل على مضامين كثيرة بشأن مواقفهم تُجاه الإغريق والحرب. فبينما كان القائد القرطاجي العظيم في منفاه بمدينة أفسس الإغريقية، استمع إلى فيلسوف يحاضر عن القيادة والشؤون العسكرية بشكل عامٍّ. وبعد انتهاء المحاضرة، التي دامت ساعات، أبدى الجمهور الإغريقي رد فعل حماسياً. وعندما سُئل حنبعل عن رأيه فيما سمع، قال إنه استمع إلى كثير من الحمقى الخَرِفين في زمانه، لكن لم يستمع قط إلى من يداني ذلك الخَرِف في حمقه (شيشرون Cicero، «في الخطابة»، 2.75-76).

هناك عوامل كثيرة سهَّلت وصف الروم للإغريق بأنهم جبناء و«شرقيون» في الحرب. فالإغريق الأوائل الذين حكمهم الروم كانوا إغريق إيطاليا وصقلية، وهم فئة لطالما عدَّها الإغريق الآخرون خائرة ومترفة. بل إن كلمة sybaritic الإنجليزية (ومعناها «منغمس في الترف») مشتقة من اسم مدينة سيباريس Sybaris الإغريقية في إيطاليا. وكانت فتوحات الإسكندر الأكبر قد نشرت الإغريق في كل أنحاء الشرق الأدنى، وانضم إلى هؤلاء المستوطنين أهالي تلك المناطق الذين اعتنقوا الثقافة الإغريقية. وكان من البديهي أن تطبَّق القوالب النمطية الجامدة المنسوبة من قبل إلى سكان الشرق الأدنى على الإغريق وعلى «معتنقي الثقافة الإغريقية» الذين يعيشون هناك، ثم على الإغريق بشكل عام. والحقيقة أن التشكيلات السلامية الهيلينيَّة المسلحة برماح البايك كانت تخوض

قتالاً متلاحماً، بفاصل بضع أقدام، بما يعادل بروز رماحهم من الصف، لكن هذا لم يكن قتالاً متلاحماً بالمعنى الذي يستهدفه الروم في معاركهم، أي عند سِن السيف. لقد غز ت روما الإغريق في عهد الجمهورية، وكانت غالبية الجيوش المنظمة على الطراز الإغريقي، التي غلبها الروم، تخدم ملوكاً. لم يكن أحدٌ من المعلِّقين القدامى يرى الجمهورية الرومية دولة ديمقراطية (وإنْ كان بعض الباحثين في العصر الحديث يرونها أشبه بدولة ديمقراطية). كان الروم يعزون اضمحلال الإغريق إلى ديمقراطيات الماضي العتيق التي سيطر فيها الفقراء على الشؤون السياسية وتسببوا في سقوط الإغريق. كان الفقراء («حثالة المجتمع» كما كان الروم يسمونهم) في أعين النخبة يضاهون الهمج في عدم عقلانيتهم وافتقارهم إلى الجَلَد.

كل ما سبق ذكره كان له دور، لكن إسقاط الروم على الإغريق القوالب النمطية المنسوبة إلى الشرقيين الجبناء الذين لا يتبعون «طريقة الحرب الغربية»-وهي قوالب نمطية سبق أن اخترعها الإغريق أنفسهم- جاء في الأساس نتاج حقيقة واضحة؛ ألا وهي انتصار الروم وهزيمة الإغريق.



1- جزء مفصَّل من زخرفة على باطية إغريقية، وهي وعاء لخلط النبيذ والماء، من جنوبي إيطاليا يرجع إلى عام 440 ق.م تقريباً.

الفن و«طريقة الحرب الغربية»

إن الفن يعكس الفكر، بل يبلوره أيضاً. ويتبادر إلى أذهاننا حين ننظر إلى صورة مرئية للقتال (شكل 1) كثير من الأفكار التي تدور حول «طريقة الحرب الغربية» ومقابلاتها.

على يسارنا رمَّاح إغريقي، يجسِّد «طريقة الحرب الغربية»، وعلى يميننا أحد الشرقيين. في مشاهد المعارك، كما يصورها الفن الإغريقي والرومي، يتحرك المنتصرون عادةً من جهة يسار الناظر (ربما كان ذلك تأثراً بالممارسة الأوروبية في قراءة النصوص من اليسار إلى اليمين). فالغربيُّ عاري الجسد، وهو شيء متعارف عليه فنياً، ويشار إليه عادة باسم «العُري البطولي»، ويسمح للفنان بإظهار الجسد اليوناني الصلب مفتول العضلات، بفضل العمل الشاق في الزراعة أو التدريبات الرياضية القاسية، أو الاثنين معاً. أمَّا الشرقيُّ، فكاسٍ إذ لا نرى ما إن كان جسده غضاً أو مفتول الساعد، مدرباً أو عديم التدريب. والغربي أشعرُ وبادي الذكورة. أمَّا الشرقي، فأمرد عديم الشعر. هذا الافتقار إلى الخصائص الجنسية الثانوية الذكورية، مقروناً بالأعضاء التناسلية الذكرية المرسومة بوضوح لكل من الخصم والحصان، يخلق انطباعاً عن الأنوثة، الأمر الذي قد يؤدي إلى تأويل ذلك الشخص على أنه إحدى الأمازونيات، وهنَّ محاربات أسطوريات من الشرق. والغربيُّ مترجِّل، يقف على الخط الأساسي للمشهد، بل إن قدمه اليمنى «مزروعة» في هذا الخط. أمَّا الشرقي، فيمتطي حصاناً، ويظهر لنا الحصان سابحاً في الهواء، ويبدو كأن راكبه يكبحه (يتجلى هذا على ما يبدو في حبل اللجام المشدود بين الشكيمة واليد اليسرى، وفم الحصان المفتوح، وخطوط الانضغاط السميكة على رقبته). والانطباع الذي تستحضره الصورة إلى أذهاننا أن أحدهما يقف صامداً لا يتقهقر. أمَّا الآخر، فهو «متقلب» ومتأهِّب للفرار، وهو انطباع تعززه الزوايا الجسدية لكليهما: فالغربي يُميل بأعلى جسده إلى الأمام في اتجاه الخط الوهمي الواصل بين كلا السلاحين. أمَّا الشرقي، فيميل إلى الوراء، وهناك تباين واضح في الطريقة التي يقبض بها كل منهما على سلاحه، فالغربي يقبض على سلاحه بقوة، مطوقاً ساقه بأصابعه الأربع. أمَّا الشرقي، فمسكته أقلُّ إحكاماً، إذ يقبض على سلاحه بإصبعيه الأوسطين فحسب. فكل واحد منهما يستخدم أسلحته بطرق مختلفة: إذ يستخدم أحدها للطعن والآخر للرمي.

لكن ثمة جوانب غامضة في الصورة، فالشرقي لا يجرَّد من إنسانيته ولا يشيْطَنُ بشكل مباشر، ولديه مقتنيات رائعة من ملابس أنيقة وجواد مهيب، ووجه الشرقي لا ينبئ عن أيِّ خوف، بل هو جميل وهادئ. والملاحظ أن هناك تواطؤاً ومعاملة بالمثل بين المقاتليْن، إذ ينظر كل منهما إلى الآخر في عينيه مباشرة. وفي منتصف المسافة على خط النظر الممتد بين المقاتلين، يطل الحصان بناظريه من الصورة إلى المشاهد، جاذباً إياه إلى قلب المشهد، وإلى إجراء تقييم لـ «طريقة الحرب الغربية».

الفصل الثاني
التفكير بالمنطق الحربيِّ

كان التفكير بالمنطق الحربيِّ أمراً مستحسناً في العالم القديم. وبتعبير آخر، كَثُر استخدام الإغريق والروم للأفكار المرتبطة بالحرب في استيعابهم العالم وفهم مكانتهم فيه، فاستُخدمت الحروب في صياغة معتقداتهم الخاصة بموضوعات أخرى مثل: الثقافة، والنوع الاجتماعي، والفرد. وكانت الحروب مهيمنة على الفكر الكلاسيكي.

الثقافة

عندما استغرق الإغريق والروم في التفكير في الثقافات «الشرقية»، وفي ثقافتهم ذاتها عن طريق انعكاس تلك الثقافات عليها، كانوا يفعلون ذلك من منظور حربيٍّ. ولم يقتصر نمط التفكير المذكور على تحديد معالم كل ما هو شرقي، وإنما كان نهجاً عالمياً، لكن نطاق الثقافات الأخرى المُتخيَّلَة كان محدوداً. على سبيل المثال، لا غرو أنَّ سكان الإمبراطورية الرومية كانوا إذا ولَّوا وجوههم صوب الشرق يرون أن ثقافاته «شرقية» (من واقع منظورهم، إذ يرونها يونانية أو فارسية، وهلم جراً)، وعندما نظروا إلى الجنوب، كانوا كذلك يرونه وقد غلبت عليه الثقافات «الشرقية» (القرطاجية والمصرية). أمَّا جهة الغرب، فلم يروا هناك سوى المحيط الذي يتكون من جُزرٍ يخيم عليها الطابع الخرافيُّ (مثل جزر المبارَكين التي يقطنها عدد قليل من الموتى وافري الحظ). وأمَّا بالنسبة إلى الشمال، فكان الوضع مختلفاً، إذ كان «الشمالي» هو الشق الثاني لمفهوم «الآخر» لدى العالم الكلاسيكي. وحقيقة الأمر أنه قبل رَوْمَنَة سكان الغرب (أي إسباغ الطابع الرومي عليهم)، وكذلك كان يشار إلى الإسبان، فيما بعد على سبيل المزاح، أنهم ذوو طابع «شماليٍّ».

لنمعن النظر الآن في أقصى الشمال، وأعني اسكتلندا في العصر الحديث، وكيف تصوَّر الروم الثقافة الكالدونية، وحكموا عليها بدرجة كبيرة ضمنياً من أسلوبها في خوض الحرب. وبمقدورنا أن نتناول هذا الأمر بفحص ثلاثة أدلة متباينة تماماً: لوحٍ منقوش ومنحوت من الحجر الرملي، ولوحٍ خشبي عليه بقايا مِن نص، وأخيراً تفحص نص أدبيٍّ. لا تكشف هذه الأدلة عن تعدد المصادر

المتاحة لمؤرخ العالم القديم فحسب، وإنما تكشف كذلك تعدد التفاسير التي يمكن أن يستدعيها كل واحد من الأدلة.

امتدت الحدود الرومية في بريطانيا، إبان عهد الإمبراطور أنطونيوس بيوس Antoninus Pius 138-161)م)، مؤقتاً باتجاه الشمال من سور هادريان إلى خور فورث وكلايد، حيث بُني السور الأنطونيوسي المصنوع من الخشب والطين. ونَصَبت الوحدات العسكرية المشاركة في البناء قِطعاً حجرية مزخرفة لتخليد الجزء الذي شيدوه من العمل، وعُثر على عشرين حجراً من هذه الأحجار التي تُعرف في الوقت الحالي باسم «ألواح تحديد نطاق عمل الفيالق». ومن بين هذه الألواح لوح عُثر عليه في بريدجينيس Bridgeness، ويُرجح أنه يعود إلى عام 142/143م، وهو يحدد الطرف الشرقي للحصن (شكل 2).

تؤرِّخ النقوش قيام الفيلق الثاني بإكمال بناء السور بطول 4652 خطوة. وتحيط بالنقوش صورتان منحوتتان: فإلى يسار الناظر صورة لرومي يقهر همجاً محليين، وإلى اليمين صورة لأفراد الفيلق وهم يستعدون لتقديم القربان للآلهة. ويُظهر اللوح التسلسل الهرمي للفيلق، إذ ترتدي الشخصية الرئيسة ثوب التوغا الرومي، في حين يرتدي البقية غلالة وعباءة عسكرية.



2. لوح بريدجينيس

ويُشكِّل تفسير اللوح تحدياً بالنسبة لمتأمله، إذ يحاول الربط بين العناصر المختلفة للزخارف، فمن الممكن فَهْم مشهد المعركة الناجحة على أنه مشهد سابق لمشهدالنشاط السلمي والأساس الذي ارتكز عليه ذلك المشهد: النصر في الحرب بوصفه سابقة ضرورية للحياة المتحضرة. وبدلاً من ذلك، يُمكن النظر للقربان على أنه ضمانة لرضا الآلهة عن الروم، ومن ثم فإنه يُعزز النصر العسكري. ومرة أخرى، يُمكن النظر للقربان على أنه تطهير شعائري للمهام في المستقبل. وعليه، يمكن الربط بينه وبين النص المنقوش، وكما أنه لا توجد طريقة واحدة لفهم العلاقات بين الأجزاء

المختلفة، فإن مشهد القتال يمكن تفسيره بطرائق شتى. فبدلاً من النظر للمشهد على أنه يصوِّر رومياً واحداً يهزم أربعة بريطانيين، اقترح بعض المشاهدين أنَّ المشهد يصوِّر بريطانياً واحداً في أربع مراحل زمنية من الهزيمة (تُحلَّل الشخصياتُ بترتيبها باتجاه عقارب الساعة من أقصى اليسار: سقط أرضاً، ثم جُرح، ثم أُسِر، وأخيراً بُترت رأسه). ومن المحتمل أن تكون تلك التحليلات محددةً بشكل مبالغ فيه، بما أن اللوح الحجري نُصب من قِبَل الفيلق بأسره، في حين أن الخيالة كانوا جزءاً صغيراً من الفيلق ليس إلا، إذن فإن الفرد يمثل المجموع، والجندي الرومي يمثل الجهد الجماعي، كما أنه يُمثل الحضارة؛ فهو يحمل معدات «ذات تقنية متقدمة» بالغة التفصيل، كما أن وضعية وقوفه يمكن أن تُنسب إلى نصب جنائزيٍّ شهير من أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد. ويُشكِّل البريطانيون تناقضاً صارخاً؛ فهُم همج عُراة، ولا يملكون من أدوات الحضارة سوى أسلحة الحرب، وليست هناك إشارة إلى أيِّ تسلسل قيادي لديهم، فعلى الرغم من أنهم أربعة، فإن وضعية وقوفهم المنفردة تشير إلى أنهم يقاتلون فُرادى. وهم محصورون بين رموز حضارية رومية، إذ تحيط بهم من اليسار إحدى دعائم قنطرة، ومن فوقهم الخيالة، وإلى يمينهم عمود، فلا مستقبل لهم سوى ذلك الذي تسمح لهم به روما. وبالنسبة إلى الرجلَيْن الماثلَيْن في منتصف المشهد، فليس لهما سوى الموت في المعركة. أمَّا الاثنان الواقفان في الأسفل، فالأسر نصيبهما، والأخير مصيره الإعدام. وفُسِّرَت حال الأسير الحي (في الوقت الراهن) بصورٍ شتى؛ فقيل إنه مصدوم أو مستسلم أو متأمل أو يغمره شعور بالخزي. وهنا لا يُنظر للثقافة الكالدونية إلا من منظور الحرب، وتحديداً الهزيمة في الحرب. ومن المثير للاهتمام، أنه يَظهر من ظروف اكتشاف رموز القوة الرومية المعبرة تلك أنها قد دُفنت بعناية ساعة التخلي عن السور الأنطونيوسي.

منذ عام 1973، أثمر التنقيب في حصن فيندولاندا Vindolanda، الواقع بالقرب من سور هادريان، عن اكتشاف عدة مئات من ألواح الكتابة. ومن بين ألواح فيندولاندا، التي رُميت ودُفنت كأنها نفايات، لوح يعود إلى الفترة بين عامَيْ 79-102/103م، ويتناول السكانَ المحليين البريطانيين. ويمكن ترجمة السطور الستة المتبقية منه على النحو التالي.

لا يحتمي البريطانيون بالدروع [أو يشاركون «عُراة»]، وهناك الكثير من الخيالة. وفرسان الخيالة لا يستخدمون السيف، وكذلك فإن البريطانيين الصعاليك [أو «الضعفاء»] لا يتخذون متاريس [أو «لا يتخذون مواقعَ ثابتةً»] لرمي الرماح.

(رقم 164)

جرى تفسير اللوح على أنه تقرير استخباراتي، أو مذكرة كُتبت لقائد جديد وتشير إلى رجال القبائل المعادين. ومن قبيل التفسير البديل، نُظر إلى اللوح على أنه تقرير عن مجندين محليين جدد في الجيش الرومي، ومن المحتمل ألا يعدو كونه جزءاً من نصٍ أدبي. وبغض النظر عن ماهيته، فقد خضعت الثقافة البريطانية مجدداً إلى حُكمٍ من منظور خوض الحرب ليس إلا، وانتهى الحكمُ عليها إلى أنها ثقافة قاصرة. فهنا يقاتل كثيرون ضمن الخيالة، لكن ليس على الطريقة الرومية. وأخفق البريطانيون في استخدام المتاريس (أو اتخاذ مواقع ثابتة للقتال)، وهم لا يشتبكون في قتالٍ بالأيدي، ولم يحققوا سوى القليل من الإنجازات الثقافية، وهم بلا دروع (أو مكشوفون)، وليس لديهم سيوف. ويُشار إليهم بـ- «التعساء/الضئيلين»، وهو الوصف الذي ينم عن التسلط والتعالي.

وبينما قد يُعتقد أن تحليل الثقافة البريطانية، من منظور الحرب وحده عبر أدلة جاءت من حدود الإمبراطورية ذاتها وأُنتجت في سياقات عسكرية تحديداً، أمرٌ لا يأتي من قبيل المفاجأة، فإن الأمر ذاته لا يسري على دليلنا الثالث، ألا وهو كتاب المؤرِّخ تاسيتس المعنون «أغريكولا». فمن الصعوبة بمكان إدراج السيرة الذاتية المُبجّلَة لوالد زوجة تاسيتس تلك ضمن أيِّ نوع من أنواع الأدب القديم؛ فقد كُتبت السيرة عام 98م في روما، وتحوي ملامح من السيرة الذاتية والتاريخ والجغرافيا وعلم الأعراق البشرية والأطروحات السياسية. وبما أن أغريكولا كان حاكماً لبريطانيا خلال الفترة من 77م إلى 84م، فإن علم الأعراق البشرية، الذي يقدمه الكتاب، يتناول البريطانيين (انظر الفصلين الحادي عشر والثاني عشر). ويُستهل الحديث باستعراض ما تشي به الخصائص البدنية لمختلف القبائل البريطانية عن أصولها الجغرافية والعرقية. ويُشير الشَّعَر الأحمر والبنية الجسدية الكبيرة للكالدونيين إلى أصولهم الجِرمانية. وعلى غرار الغاليين، يهبُّ البريطانيون سريعاً لمواجهة الخطر، لكنهم سرعان ما يولُّون الأدبار. ولدى البريطانيين الذين هزمهم الروم في البداية حماسٌ أقل من بقيتهم. ويتبع ذلك إيضاحٌ لأساليبهم التكتيكية، إذ تكمن نقطة قوتهم في المشاة، لكن بعضهم يستخدم أيضاً العربات الحربية. ويقود النبلاء العربات الحربية، ويقاتل أتباعهم دفاعاً عنهم. ولم يساعد الرومَ شيءٌ أكثر من عجز القبائل البريطانية عن الاتحاد. ومرة أخرى، عندما يرغب رومي في مناقشة الثقافة البريطانية، فإن ذلك يكون في الأساس بتناول أفكار تتعلق بالحرب. لقد كانت الحرب دوماً من أكثر الأساليب المهمة في فهم أوجه الاختلاف بين الثقافات.

عندما رسم الإغريق والروم صورة نمطية عرقيَّة عن «الشمالي»، كانت غايتهم إظهار أوجه التناقض، ليس بينها وبين تصورهم لأنفسهم فحسب، وإنما بينها وبين تصورهم «للشرقي» أيضاً. فبينما كان الشرقيون ضئيلين وفوضويين ومهرة وجبناء، كان الشماليون ضخام الجثة وبدائيين وأغبياء وشرسين (على الأقل في البداية). وبطبيعة الحال، افتقد كلا الفريقَيْن للعقلانية وضبط النفس والانضباط الذي يتحلى به المراقب الكلاسيكي للمشهد. ورغم ذلك، وكما هي الحال بالنسبة للشرقي، فمن الممكن أن تنقلب صورة الشمالي كلياً. فكما رأينا، من الممكن أن يُنظر للشرقيين على أنهم أصحاب حضارة أقدم من حضارة الكلاسيكيين (الإغريق والروم). وبالنسبة إلى الشماليين، فإن بدائيتهم بحد ذاتها يمكن أن تُستخدم في وصفهم بأنهم شعوب لم تُفسدها حضارة انزلقت إلى هوة الانحلال. ويمكن إلى حد كبير فهم كتاب تاسيتس عن وصف الأعراق المعنون «جرمانيا» (Germania) باعتباره إدانة لروما المعاصرة مقارنة بالجرمانيين النبلاء.

لم يستنفد الشماليون والجنوبيون المخيلة العرقيَّة الكلاسيكية، إذ كانت الصورة النمطية العظيمة الأخرى التي صاغتها تلك المخيلة هي صورة البدو. ويمكن العثور على البدو في الشمال (على سبيل المثال لا الحصر، السكوثيون والهون)، وفي الشرق (العرب والسراسنة)، وفي الجنوب (الليبيون والموريون)، وكان يُنظر إلى البدو على أنهم نقيض الثقافتين الإغريقية والرومية، لأنهم يفتقرون إلى الزراعة والمنازل، ناهيك عن المدن (وهي أكبر مؤشر على الحضارة الكلاسيكية). ومن هذا المنطلق، قلما أوردت الكتابات الكلاسيكية ثقافة البدو بوصفها تجسيداً لأسلوب حياة سليم بديل، على الرغم من وجود استثناءات (على سبيل المثال، راجع كوينتوس كورتيوس Quintus Curtius 7.8.12-30) يمكن النظر إليها على أساس أن الثقافة أنجبت حكيماً واحداً متفرداً، مثل الفيلسوف السكوثيِّ آناكارسيس Anacharsis.

لقد أثبتت هذه الصور النمطية قدرتها على الصمود بشكل مذهل. يميل الإغريق والروم إلى الاعتقاد أن أعداءهم بقوا على حالهم، مع أنهم في الحقيقة قد تغيَّروا، ويتضح ذلك بالنظر إلى القبائل الجرمانية التي واجهتها روما في القرن الأول الميلادي وتلك التي واجهتها بعد ذلك بثلاثة قرون، فقد انتظم الجرمانيون بحلول القرن الرابع الميلادي في قبائل أقل عدداً وأكبر حجماً عما كانوا عليه سابقاً. وقد أفرزت زيادة كثافة النشاط الزراعي طفرة سكانية ونمواً اقتصادياً أيضاً، وشهد المجتمع الجرماني زيادةً في المركزية السياسية والطبقية الاجتماعية، مع ظهور أُسَر مَلَكيَّةٍ حاكمة مستقرة نسبياً، وظهور طبقة الصفوة المقاتلين التي يمكن النظر إليها بوصفها «طبقة نبلاء في طور التكوين». ومن الممكن اعتبار أن هذه الأمور قد زادت على الأرجح من السلطات القسرية لدى القبائل، ومن ثم حسَّنَت كذلك من القيادة والسيطرة التي يمكن ممارستها في أثناء المعركة. ومن المحتمل أن الجيوش الجرمانية كانت أكبر حجماً وأفضل تجهيزاً وبها عدد أكبر من الخيالة والرماة، لكن مصادرنا الأدبية الرومية تجعل من الصعب التحقق من هذه التكهنات. بالنسبة إلى الروم، ظل الجرمانيون دوماً على حالهم، ويتضح ذلك عندما نقارن الوصف الذي قدمه أميانوس مارسيلينوس AmmianusMarcellinus، الذي عاش في القرن الرابع الميلادي (16.12) لمعركة ستراسبورغ عام 357م بالوصف الذي قدَّمَه تاسيتس في أوائل القرن الثاني الميلادي (انظر على وجه التحديد 2.14) للحملات التي شُنت في جرمانيا من عام 14 إلى عام 16م في كتابه «الحوليات» (Annals). يتفق الكاتبان في عدة أمور، منها أن الجرمانيين يتمتعون بأبدان ضخمة تصاب بالإنهاك بسهولة، ويقاتلون بشراسة ينقصها الانضباط تفسح المجال في نهاية المطاف إلى الهلع التام. وتُمثل الصورة التي رسمها أميانوس للتلاحم في المعركة تعبيراً خالداً عن الإيديولوجية الرومية.

تمتعوا [أي الجرمانيون] بميزتي القوة والتطاول في البنيان، في حين تمتع الروم بميزتي التدريب والانضباط. كان أحد الفريقين متوحشاً وعنيفاً، في حين كان الآخر حاذقاً وحذراً. واعتمد رجالنا على شجاعتهم، في حين اعتمد الأعداء على بنيتهم الجسمانية الضخمة.

(ترجمة ويليام هاملتون، 16.12.47)

والأغلب في هذا السياق أن التغييرات التي حدثت في الجيوش الرومية أو في خصومها حُذفت من صفحات التاريخ.

بالنسبة إلى اليونانيين والروم، يميل الهمج إلى البقاء على حالهم. ليس ذلك فحسب، بل سرعان ما كان الإغريق والروم يساوون بين القبائل التي يصادفونها حديثاً وتلك التي عرفوها من قبل. فعندما اقتحم الهون عالم الإمبراطورية الرومية في أواخر القرن الرابع الميلادي، أقرَّ أميانوس بأنه لا يجد عن أصولهم سوى القليل، وأنه سمَّاهم باسمهم المعاصر. ولكن حتى أميانوس نفسه استند إلى مُؤَلَّفَات سابقة عن شعوب أخرى في وصفه لهم. وتمادى كُتَّاب آخرون، ولاسيما الإغريق، فربطوا

بين الهون وعددٍ من الشعوب الهمجية التي عُرفت في الماضي السحيق في القرن الخامس قبل الميلادي، وربما في وقت أسبق من ذلك. وهؤلاء كانوا السكوثيين والماسجيتاي والكيميريين، وهلم جراً. وكان المؤلفون يحاولون عن طريق صياغة هذه الارتباطات إظهار معرفتهم بالمؤلفات الكلاسيكية، وفي مقدمتها كتابات هيرودوت، وبذلك يستعرضون مكانتهم الاجتماعية السامية. تَمَثَّلَ المبررُ الرئيس لهذه الممارسة في الشعور بأنه من المؤكد أن كتّاب الماضي العظماء قد نما إلى علمهم وجود هؤلاء الهمج الذين يبدون في ظاهرهم قبائل «جديدة». علاوة على ذلك، وبما أن الذين ظهروا حديثاً جاؤوا من البقعة نفسها من العالم التي جاءت منها قبائل معروفة سلفاً، فإن السابق منها يشمل حتماً اللاحق. والأهم من كل ذلك أن هذا الأسلوب في النظر إلى العالم يؤدي وظيفة «حيلة الدفاع النفسي» أو «غطاءٍ للراحة النفسية». فقد أصبحت القبائل الجديدة التي تشكل تهديداً مجهولةً بدرجة أقل ويمكن التعامل معها بدرجة أكبر، إذ هُزمت وجرى احتواؤها من قبل، وسيتكرر ذلك مجدداً.

لقد كان هذا التفكير العرقيُّ متأصلاً بشدة لدرجة أنه بقيَ بصورةٍ مذهلة حتى بعد سقوط الإمبراطورية الرومية الغربية. ففي القرن الخامس الميلادي استخدمه بعض الرعايا الروم في الممالك الهمجية الجديدة في الغرب لإعادة كتابة الواقع ولتحسين شعورهم تجاه ظروفهم السياسية الراهنة. فصوَّروا حكامهم الهمج الجدد على هيئة مماثلة تماماً للروم، إن لم يكونوا في واقع الأمر ذوي أصول رومية منذ البداية. وشعرَ بعض الحكام الهمج بالإطراء من تلك الرواية، ومن المرجح أنهم شعروا كذلك بقيمتها المحتملة في تشجيع الولاء لدى رعاياهم الجدد، فكانوا سعداء بقبول استراتيجية التفكير تلك.

إن حقيقة أن العالم الكلاسيكي كان فيه نطاق محدود من الصور النمطية العرقيَّة للثقافات الأجنبية؛ وأن هذه الصور تكونت من عدد محدود من المكونات الوصفية (كبير/صغير، جبان/شرس، مُنحط/بدائي، وهلم جراً)؛ وأنها كانت صامدة وقابلة للنقل والتكيف؛ وأنها استُخدمت لتحديد المركز (الإغريق والروم) في مقابل المحيط الخارجي (الهمج)، لا تعني أن هذه الصور لا تشي لنا بشيء عن العالم غير الكلاسيكي. فالعالم الكلاسيكي لم يوجد في فراغ، وإنما كانت هناك ثقافات أخرى من حوله. والسعي إلى فهم ثقافة أخرى وفق منظورك الخاص، لا يعني أنك منغمس في تأليف قصص من نسج خيالك. ولو كانت الحضارة الكلاسيكية ترغب في امتلاك مرآة ترى فيها نفسها وحسب لما كانت هناك حاجة لتشكيل أكثر من حضارة واحدة «أخرى».

ولا ينبغي أن تقودنا طبيعة النزعة العرقية الكلاسيكية المصطنعة، بحسب منظورنا، إلى الاعتقاد بأنها لم تكن سوى لعبة تافهة يمكن أن ينغمس فيها الإغريق والروم، على سبيل المثال، عند قراءة كتاب «أغريكولا» لتاسيتُس، لكنهم سينبذونها عند مواجهة واقع الهمج في أرض المعركة. كان الروم الذين قاتلوا في معركة ستراسبورغ، التي وصفها أميانوس (أعلاه)، سيروْن واقع الجيوش الجرمانية في القرن الرابع الميلادي، لكنهم كانوا سيفسرون ذلك باستخدام الصور النمطية العرقية الموجودة منذ قرون. واستناداً إلى مقارنة حديثة، فإن واقع قتال الشعوب الأخرى على الجبهة الشرقية في الحرب العالمية الثانية لم يزعزع الإيديولوجيات النازية المغروسة في الجنود الألمانيين، وإنما عززها.

النوع الاجتماعي

تخضع مسألة النوع الاجتماعي والمجال الجنسي المتصل بها لقدرٍ كبير من الدراسة في الوقت الحالي من جانب مؤرخي التاريخ القديم (انظر الفصل الثالث للتعرف على التكهنات الخاصة بأسباب تغيُّر اهتمامات العلماء ووجهات نظرهم). لا يتناول الحربَ من هذه الأعمال سوى القليل، بيد أنَّ الحرب في الآثار الكلاسيكية ارتبطت بقوة بالنوع الاجتماعي، فكانت بشكل قاطع نشاطاً قاصراً على الرجال دون النساء. وكان يُعتقد أن الآلهة قد تظهر في ساحة القتال. ففي إلياذة هوميروس، قاتلت أثينا وأرتميس وهيرا وأفروديت، بل جُرِحَت أفروديت على يد أحد الرجال. لكن ما كان مقبولاً بالنسبة إلى الآلهة لم يسرِ على نساء الإغريق والروم الفانيات، ويظهر هذا جلياً في حديث هيكتور إلى زوجته في الإلياذة.

عودي إذن إلى بيتنا، وأدِّي العمل المنوط بك، النول والمغزل، وتأكدي من أن خادماتك أيضاً يؤدين عملهن، ودَعي الحربَ للرجال.

(6.490-2، ترجمة ريتشارد لاتيمور، بتصرفٍ بسيط)

عُرضت مسرحية ليستراتي Lysistrata الكوميدية لأريستوفان Aristophanes، أولَ مرة، في أثينا عامَ 411 ق.م وبها قُلبت عادات الإغريق رأساً على عقب لإحْدَاث أثر فكاهي. فمن أجل إنهاء الحرب البِيلوبونِيزِيَّة، أضربت نساء أثينا عن معاشرة الرجال، واستولين على خزائن الأموال التي تُنفق على الحرب. ويتمثلُ جزءٌ من أسلوب قَلْب الأدوار الكوميدي هذا في أن تخبرنا البطلة بأنه عندما استشهَد لها زوجها بمقولة هكتور، تجاهلتها وقالت: «لتكن الحرب شأناً من شؤون النساء» (الأسطر 520-538).

ومن علامات اختلاف الشعوب الهمجية اضطلاع نساء العديد من تلك الشعوب بدور فاعل في الحرب. ففي كتاب «أغريكولا» لتاسيتس، كان «عدم التمييز بين البريطانيين على أساس النوع الاجتماعي عند تعيين القادة جزءاً من طبيعتهم الغريبة» (16؛ انظر رقم 31 للمقارنة). وفي الأدب الكلاسيكي سلسلة من الملكات المحاربات الأجنبيات المهيبات والجذابات في الوقت نفسه: أرطميسيا Artemisia ملكة كاريا في آسيا الصغرى، وأوليمبياس Olympias ملكة مقدونيا، وكليوباترا ملكة مصر، وبوديكا Boudicca وكارتيمانديوا Cartimandua ملكتا بريطانيا، وزنوبيا ملكة تدمر في سوريا. وكانت الأمازونيات الأسطوريات أبلغ مثال على النساء المقاتلات، واعتُقِد أنهن إمَّا يعشن من دون رجال، فيما عدا حدث للتزاوج السنوي مع قبيلة محلية، أو يَقصرنَ دورَ الرجال على القيام بمهام تقوم بها النساء عادةً في المجتمعات الكلاسيكية، وذلك بإحداث إعاقات في أطفالهن الذكور. ولقد وُجِدَت الأمازونيات في الأساطير ليقاتلهن الرجال ويهزموهن. وكانت «المعارك ضد الأمازونيات» شائعة للغاية في الفن، إذ ظهرت في منحوتات العديد من

المعابد الإغريقية، ومنها معبد بارثينون في أثينا. وفي نهاية المطاف، أسهمت هؤلاء المعتديات على حدود النوع الاجتماعي بهزيمتهن في الحرب في التأكيد مجدداً على تلك الحدود ذاتها. وكانت الأمازونيات في العادة يعشن في أقصى شرق آسيا الصغرى، ومن هنا ارتبطت أساطير الأمازونيات بالأفكار الكلاسيكية عن الطبيعة المخنثة للرجال الشرقيين.

وبمقدورنا التعمق في مسألة النوع الاجتماعي وعلاقته بالحرب بالنظر إلى إحدى الصور المرئية (شكل 3). تمثل هذه الصورة جزءاً من زخارف منحوتة بارزة لمقبرة في ليقيا Lycia في آسيا الصغرى تعود إلى الفترة بين عاميْ 390-380 ق.م، وتُعرف باسم نُصب نيريد Nereid Monument. وتُظهر المنحوتة مدينة مُحصنة تتعرض للهجوم. ويتمركز تسعة من المقاتلين فوق الأسوار، ويعتمرون خوذات ويحملون دروعاً دائرية تخص الرمَّاحين الإغريق. ويحمل الجنود الحجارة ليرجموا العدو. وفي منتصف المدينة، ثمة امرأة هي الوحيدة التي تُطل من المنحوتة مباشرةً تجاه الناظر، لتجذبنا إلى المشهد. طَوَت المرأة ذراعها اليمنى فوق رأسها، بينما رفعت ذراعها اليسرى إلى أعلى. فما الذي تفعله؟ قد يُخمن الناظر في العصر الحديث أنها تصلي، لكن هذا أمر مستبعد في العصر القديم. فعلى الرغم مما تتمتع به النساء من أهمية في عقائد الإغريق والروم، فإنهن لم يشاركن في شعائر الحرب إلا قليلاً.

يصوِّر المشهد هجوماً على إحدى المدن. عندما تصل الحرب إلى أعتاب المنازل، إذا جاز التعبير، كانت النساء يضطلعن بعدة أدوار، هذا إنْ لم يُرسَلن بعيداً حفاظاً على سلامتهن. وفي كتاب «شجاعة النساء» (The Bravery of Women)، لكاتب السير الذاتية اليوناني بلوتارك Plutarch، يمثل الحصار عادةً ساحةً لاستعراض مناقب النساء، فبمقدورهن تحضير الطعام لمن يدافعون عنهن، على غرار ما قامت به 110 نساء ممن لم يُنقلن إلى أثينا في أثناء معركة بلاتايا عام 429 ق.م. وبعد اختراع المنجنيق، كان من الممكن أن يتبرعنَ بشعرهن لاستخدامه في صناعة الحِبال الضرورية لاستخدام المنجنيق، كما حدث في عهد الإمبراطورية البيزنطية عندما استخدمته قوات الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس في أواخر القرن الثاني الميلادي. وكان من الممكن أن يجلبنَ القذائف إلى الأسوار، وأن يحمسنَ الرجال، كما فعلت نساء جزيرة خيوس



3. نُصُب نيريد الذي يُظْهر حصاراً لإحدى المدن

Chios في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد. لقد أوصى مؤلف كتابٍ استرشادي، صَدَرَ في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد عن كيفية الدفاع عن المدن المُحَاصَرَة، بأنه من الممكن إلباس

النساء ملابس الرجال، وتوزيعهن على الأسوار، حتى يبدو عدد المدافعين عنها أكبر. ولكن لا تدعهن أبداً يُلقين بأي شيء تحت أيِّ ظرف؛ «فعاجلاً أو آجلاً، ستكشف المرأة عن جنسها وهي تحاول الرمي» (إينيس تاكتيكوس Aeneas Tacticus، 40). لكن هناك أسطورة عجيبة تَنسِب لنساء مدينة أرغوس الفضلَ كاملاً في صد هجوم إسبرطي عن أسوار المدينة في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد. وفي حالة وإذا ما اقتحم العدو المدينة، فبمقدور النساء أن يُلقينَ قطع البلاط عليه من فوق أسطح المنازل. ويالها من قذيفة تلك التي ألقتها عجوز من آرغوس، ففتكت بالملك بيروس الإبيري Pyrrhus of Epirus عام 272 ق.م! ويجب أيضاً مراقبة النساء في أثناء الحصار، فهنَّ أقل حرصاً من الرجال، كما أنهنَّ أقل عقلانية وشجاعة، فلربما خُنَّ المدينة لحساب الأعداء، على غرار ما حاولت فعله تاربيا Tarpeia الأسطورية في روما.

لا ينبغي النظر إلى امرأة نُصب نيريد بأيِّ طريقة من الطرائق السالفة الذكر، وليُنظر إليها بدلاً من ذلك على أنها تشدُّ شعرها وتندب مصيرها المحتمل، لأن المدينة، إن سقطت، فإن مصيرها سيكون إمَّا الاغتصاب وإمَّا العبودية وإمَّا القتل الوحشي وإمَّا حياة اللاجئين.

كانت الحرب عنصراً مهماً في بناء صفة الرجولة في اليونان وروما. وكان أبطال أعمال هوميروس يحمِّس كلٌّ منهم الآخرين في المعركة بقوله: «يا أصدقائي، كونوا رجالاً!». ويسهب الخطيب الأثيني المفوه إيسخينيس Aeschines، في معرض دفاعه عن نفسه في المحكمة، في الحديث عن سجله الحربي هو وأقاربه الرجال. وعلى الجانب الآخر، يهاجم إيسخينيس المدعي العام في قضيته، ويُدعى ديموسثينيس Demosthenes، قائلاً له: «تدَّعي أنك رجل، لكنني لا أعدك رجلاً، لأنك حُوكمت بتهمة الهروب من الخدمة العسكرية». كان ديموسثينيس مَأْبُوناً kinaidos، وتعني المخنث الشاذ جنسياً الذي تُفعل فيه الفاحشة (2.148-51؛ 167-9). ولقد كان فقدان القدرة على التحكم بالذات والسلبية هما ما نزعا عن المأبون رجولته وليس رغبة الرجل في الرجل. ولقد تمنى أفلاطون، وهو يصوغ تصوُّره لتشريع مدينة فاضلة، لو تحوَّلَ كل رجل يثبُت جُبْنه إلى امرأة. ولأن هذا مستحيل، «فإننا نجازيه بأقرب ما يكون إلى تلك العقوبة»، فعليه أن يقضي بقية حياته في أمان، وأن يتعايش مع العار الناجم عن ذلك («القوانين»، 944A). وامتدح المؤرخ بلينيوس الإمبراطور الرومي تراجان Trajan بسبب تنظيمه ألعاب المصارعين المجالدين حتى الموت، «فليس بها لين أو تراخٍ تضعُف وتندثر بسببه روح الرجولة لدى رعاياه» («رسائل المديح»، 33.1). وتجسدت العلاقة بين الحرب والرجولة في اللغة، ففي اللغة اليونانية كانت كلمة «andreia» تعني الرجولة أو الشجاعة. أمَّا في اللاتينية، فكانت كلمة «virtus» تُشير إلى فضيلة الرجولة أو الشجاعة.

الفرد

لم يكن من المستحسن التفكير بالمنطق الحربيِّ في عظائم الأمور فحسب، مثل الثقافة أو النوع الاجتماعي، وإنما كان ذلك مفيداً أيضاً في صغائر الأمور، وفي الأمور الخاصة، مثل الشخصية الفردية. سنمعن النظر هنا في النحو الذي شَكَّلَ به أعضاء ثلاث مجموعات شخصياتهم من خلال

منظور الحرب، على الرغم من أن تلك المجموعات كانت في الواقع أبعد ما تكون عن الميل إلى النزعة العسكرية.

لطالما ارتبط الحب بالحرب، لكن لم يتناولهما الشعراء اللاتينيون، وبالأخص بروبرتيوس Propertius وأوفيد Ovid، بإسهاب تام سوى في عهد الإمبراطور أغسطس Augustus، أول الأباطرة الروم (31 ق.م - 14م). وقد نجد الشاعر يصور نفسه وهو يقاوم الحب ويحاربه. وعلى الجانب الآخر، قد يكون مُجنداً في جيش معشوقته أو في جيش تحرك بدافع الحب ذاته. وقد ينهض محارباً منافسيه على حب محبوبته، أو يحارب زوجها، أو يحارب من أجل شرفها. وعلى غرار الجندي الحقيقي، يجب أن يتصف الجندي العاشق بالقوة، فالجنديَّة في كلا الصنفين تتطلب التحلي بالقيم ذاتها، وخوض غمار المخاطر عينها: الحيرة والمعاناة، بل ربما الموت ذاته. وقد تمثل مهمة الجندي المُستنفَر للحب شغفاً ومتعة يرغب الشاعر فيها أو ضرورة ملحة تُفْرَض عليه. وأيَّاً كانت الحال، فقد اقتضى ذلك التنازلَ عن دور الجندي الحقيقي. ويقودنا ذلك إلى أولى المشكلتين التفسيريتَيْن الأساسيتَيْن المتعلقتَيْن بتفسير هذا التاريخ الأدبي: هل هو مُوالٍ للمؤسسة أم مناهض لها؟

طفق أغسطس، الذي تولى السلطة عن طريق حرب أهلية، يؤسس نظاماً سياسياً جديداً، على الرغم من أنه ألبسه عباءة استعادة الجمهورية. ليس ذلك فحسب، وإنما وضع أيضاً نظاماً أخلاقياً جديداً صُوِّرَ هو الآخر على أنه عودة إلى الماضي. وشدد نظام حكم أغسطس كثيراً على أداء الفرد لواجبه تجاه الدولة، ويشمل ذلك حتى الزواج والإنجاب والحرب. ومن ثم، فإن رفض الشعراء أداءَ واجب الجندية الفعلي طلباً لعلاقة حب غير مشروعة خارج نطاق الزواج كان يتناقض مع رغبات النظام الحاكم. ورغم ذلك، فلا ينبغي أن ننظر ببساطة إلى هؤلاء الشعراء بوصفهم معارضين سياسيين، فدائماً ما يسهم إنكار الذات والغلو الشعريُّ في إضعاف تعبير الشاعر عن ذاته.

والسؤال الآخر المحوريُّ بشأن هذا اللون من الشعر هو «هل قصد الشعراء حقاً ما جاء في أشعارهم؟». ومرة أخرى، لا نجد إجابةً بسيطة عن هذا السؤال. كان من الممكن أن تسير في شوارع روما دون أن تضطر إلى أن تخطو فوق أجساد كبار الشعراء طريحي الأرض وقد قتلهم الحب. ولكن، حتى لو زعموا أنَّ العاشق في أشعارهم لا يعدو كونه شخصية خيالية من نسج أشعارهم، فإن صياغة شخصياتهم الخاصة ستتشكل كرد فعل لهذه الشخصية («بطل أشعاري جندي عاشق، أمَّا أنا فلست كذلك»).

أقْصَى عهدُ الزعامة (30 ق.م - 235م)، الذي أسسه الإمبراطور أغسطس، الحربَ إلى هامش الحياة الاجتماعية والحدود الجغرافية الخارجية بدرجةٍ كبيرة، فأصبح الجنود المحترفون هم من يخوضون الحروب. وباستثناء الحروب الأهلية، كانت رحى الحرب تدور في العادة عند الحدود البعيدة للإمبراطورية. ولم يَخُض الفلاسفة الإغريق في هذا العصر الحرب إلا نادراً، لكنَّ ذلك لم يمنعهم من إلقاء مواعظ عنها. ومع ذلك، فمن المؤكد أنهم التقوا عَرَضاً بجنودٍ من الجيش. ولقد هيمنت مشاعر التغريب والاحتقار والخوف على سلوكهم تُجاه أفراد الجيش القائمين على حمايتهم. وكانوا يرون أنَّ حياة الجندي حياة انضباط ومشقة ومخاطرة. وعلى حد وصف الفيلسوف إبيكتيتوس Epictetus (55-135م تقريباً)، لو لم يلتزم الجنود بالانضباط «لمَا حفر أحد خندقاً،

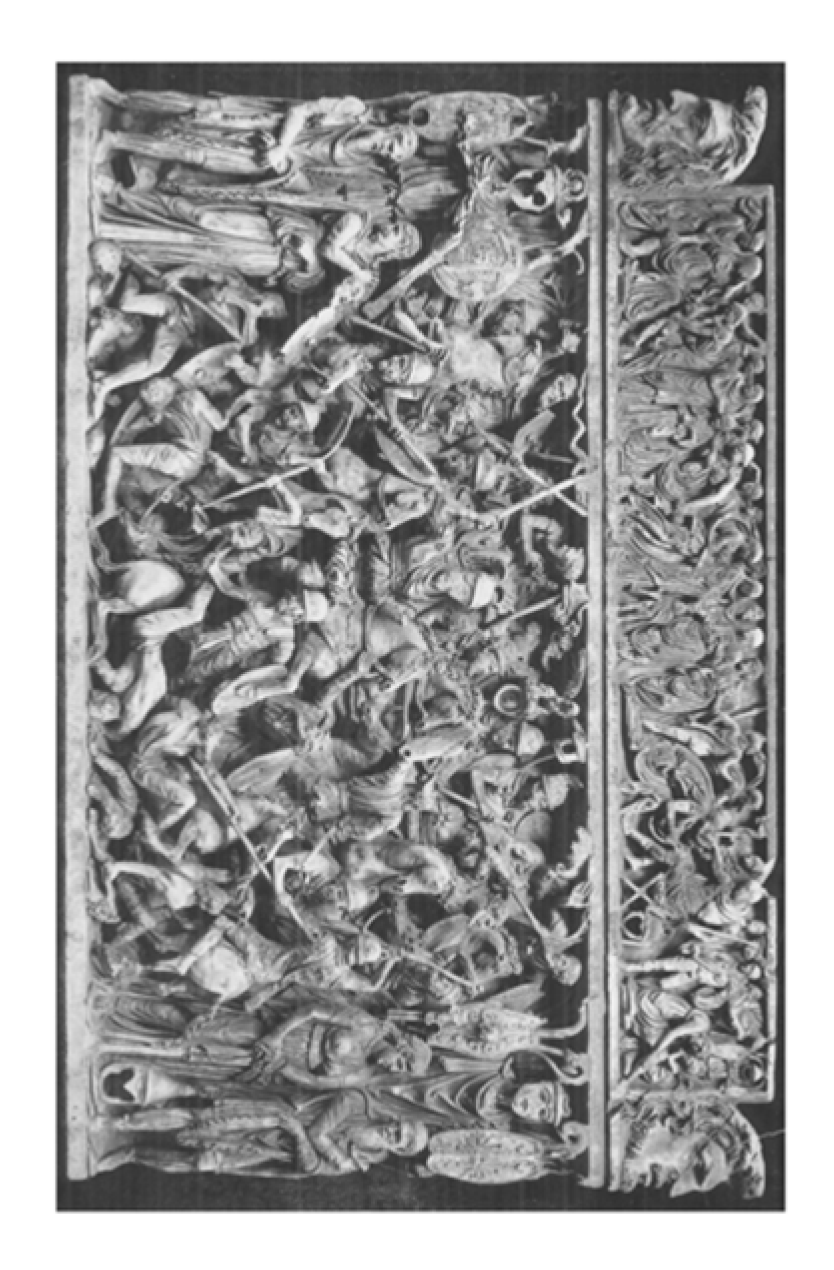
ولا نصب وتداً من أوتاد الحصن، ولا قضى الليل حارساً، ولا خاطر بحياته» (3.24.32). ورغم ذلك، كانت تلك هي نفسها الخصائص التي يزعم الفيلسوف أنها تُميز حياته هو شخصياً. فعلى سبيل المثال، شدد ديو كريسوستوم Dio Chrysostom (40-112م تقريباً) مراراً على ضرورة تحلي الفيلسوف بالانضباط، وتفاخر بشجاعته الشخصية وبالمِحَن التي عانى منها في المنفى. لم تَعُد هذه الأمور على الجندي بأيِّ نفع، لكنها أفادت الفيلسوف الذي اتبعها طواعيةً بعد تأمل فلسفي. ولقد صَوَّرَ الفلاسفة أنفسهم جنوداً يقاتلون من أجل الوصول إلى ضبط النفس وإلى الحقيقة والفضيلة. وزعم ديو كريسوستوم أنَّ الكفاح من أجل الفضيلة، وفي مواجهة المتعة التي يمكن أن تقوضها، أعظم من الكفاح المذكور في الإلياذة (8.20-22؛ للمزيد حول وجهات نظر هؤلاء الفلاسفة عن الحرب، انظر الفصل الرابع).

لو كان لأفراد أيِّ جماعة في الإمبراطورية الرومية سبب وجيه لكراهية جنود الجيش، لتمثل ذلك السبب في المسيحيين. فعلى الرغم من أن مبادرة اضطهاد المسيحيين (باستثناء نيرون عام 64م) لم تنبع من الحكومة، بل من الدهماء الوثنيين، حتى عهد ديكيوس (دقيانوس) Decius (249-251م) عندما تدخلت السلطات مضطرة حفاظاً على النظام العام، فإن العسكر هم مَن أشرفوا على اعتقال المشتبه بهم ومحاكمتهم وإعدامهم. وجعلت الصبغة الوثنية القوية للحياة العسكرية، وبخاصة مسألة تأليه الأباطرة، من الصعب على المسيحيين أن يصبحوا جنوداً وأن يتقبلوا الجنود أيضاً في صورة المسيحيين. فلا غرو إذن أنَّ الصورة الأشيع للمضطهدين في القصص التي قُدِّرَ لها البقاء عن الشهداء في المسيحية (والتي تُعرف في الوقت الحالي عادةً بـ- «أعمال الشهداء المسيحيين») ليست صورة لجندي، وإنما لرياضي. وفي الحالات النادرة التي يوصف فيها أحد الشهداء بأنه محارب في سبيل الرب يقاتل من أجل العقيدة، فذلك لأنه في واقع الأمر جندي (يوسابيوس القيصري Eusebius، تاريخ الكنيسة، 6.41.16). لكن في سياق آخر بعيد عن النصوص الخاصة بالشهداء، حتى المسيحيون قد يرون أنفسهم في صورة الجنود. كان المؤلفان ترتليان Tertullian (160-240م تقريباً) وأوريجانوس Origen (184/185-254/255م تقريباً) من المسالمين الملتزمين الذين اعتقدوا أن المسيحيين لا ينبغي أن يخدموا في الجيش الرومي (انظر الفصل الرابع للتعرف على موقف المسيحيين من الحرب). وكانوا يرون أن معارك العهد القديم تُفسَّر على أنها استعارات بلاغية. واستناداً إلى ما سبق وإلى الصور العسكرية الإيجابية المحدودة في العهد الجديد، واستناداً كذلك إلى معرفتهم بالفلسفة الإغريقية الوثنية، فقد رأوا في المسيحيين صنفاً جديداً من الجندي الروحاني. وعلى حد تعبير ترتليان: «أولسنا أيضاً جنوداً؟ نحن بالفعل جنود نخضع لكل أصناف الانضباط الصارمة، ونأتمر بأمر جنرال عظيم جداً [المسيح]» («رسالة في التبتل»، 12). وكتب أوريجانوس ما نصه: «نحن لا نقاتل تحت رايته [الإمبراطور]، رغم أمره لنا بذلك؛ لكننا نقاتل نيابة عنه، فنشكِّل جيشاً خاصاً-جيشاً من الأتقياء- إذ نرفع صلواتنا إلى الرب» («رداً على سيلسوس»، 8.73).

ولا عجب أن استخدام الحرب لتشكيل الشخصية الفردية لم يقتصر على المثقفين من غير أصحاب النزعة العسكرية، وإنما كان صبغةً مهيمنة على العالم الكلاسيكي. وعلى ما يبدو، فإن انتشاره الواسع ذاته لم يلفت في بعض الأحيان انتباه العلماء المعاصرين، الأمر الذي أدى إلى فهمٍ موغلٍ في حَرْفيَّة بعض الأدلة.

لقد أدى التحول العامُّ من حرق الموتى إلى دفنهم في ظل حكم الإمبراطورية الرومية في القرن الثاني الميلادي إلى ازدهار صناعة الناووس (Sarcophagus، وتعني حرفياً «آكل اللحم») أو التابوت الحجري. ومن بين أكثر المنحوتات البارزة التي زَيَّنَت الناووس «مشهد المعركة» الذي يقاتل فيه الروم (أو الإغريق) ضد الهمج، ثم مشهد «العفو» الذي يَقْبَل فيه أحد جنرالات الروم استسلام الهمج (ومن ثم، يمارس سلطته في العفو عنهم). ويظهر المشهدان معاً على ناووس بورتوناكسيو Portonaccio Sarcophagus (الذي سُمِّي تيمناً بالمكان الذي عُثر عليه فيه)، والذي يُرجح أنه يعود إلى الفترة بين عامَيْ 180-190م تقريباً (شكل 4).

يُظهر المشهدُ الرئيس الموجود على جسم الناووس، على الجانب الأطول من جوانبه الثلاثة المنحوتة، منظر معركة حامية الوطيس. يقود أحد القادة، ويمثل بؤرة المشهد، تشكيلاً على هيئة رأس سهم من الخيالة الروم إلى أرض المعركة. وفي أسفل هذا الجزء، تُلْحِق فرق المشاة والخيالة الرومية الأخرى الهزيمة بالهمج، وقد اكتستْ الأرض بجثثهم. واخترق هجوم القوات بزخْمه تكتلات العدو فخلَّفَ وراءه بعضاً من أفراد قوات العدو. لكن النصر صار مؤكداً استناداً إلى حقيقة الهمج الأسرى وغنائم الأسلحة التي تتناثر بمحاذاة المشهد.



4. ناوو Sس المعركة من بورتوناكسيو

وهناك ثلاثة مشاهد على غطاء الناووس تَظْهَر على النحو التالي من اليسار إلى اليمين: طفل صغير يغتسل، ومراسم حفل زفاف، وجنرال رومي يتسلم همجاً خاضعين.

يُعرب المؤرخون الفنيون في العصر الحديث، على ما يبدو، عن رغبة عارمة في تفسير هذا الناووس، وغيره من النواويس الشبيهة، بوصفه سيرةً ذاتيه بشكل أو آخر، وافتراض أن الميت المدفون فيه كان بالفعل جنرالاً. ووصل الأمر بهذه التكهنات في هذا الناووس، كما هي الحال في غيره، إلى تحديد اسم صاحب الناووس. والأفضل أن نتجنب تلك النزعات إلى تصديق هذه الادعاءات بأن زخارف النواويس تُعبِّر عن سير ذاتية لأصحابها. فنادراً ما نقف على السياق الأثري المباشر للناووس، فضلاً عن أننا لا نمتلك المرثية المحفورة على القبر التي كانت فيما

مضى تحدِّد هوية الميت. لقد كان مشهدا «المعركة» و«العفو» خيارَيْن اثنَيْن فقط من بين خيارات عديدة لتزيين الناووس. وكانت بعض الخيارات الأخرى سيراً ذاتية لأصحابها بشكلٍ واضح، مثل الناووس الذي يوضح أن الميت كان يعمل صانعَ أحذية. لكن الغالبية العظمى منها لم تكن كذلك؛ إذ صوَّرت أساطير إغريقية، مثل «أعمال هرقل» أو البطل الإغريقي ميليجر Meleager وهو يصطاد. لذا، فإن الطريقة التي استُخدم بها الناووس تشير تلقائياً إلى النأي عن تفسير زخارفه بمنطق السير الذاتية. وقد عُثر على ناووس يحوي بقايا ما لا يقل عن سبعة أشخاص بالغين وطفليْن. واحتوى ناووس من القرن الرابع الميلادي أيضاً، منحوتٌ عليه مشهد المعركة، على أنثى من العائلة الإمبراطورية، هي على الأرجح هيلانة، والدة قسطنطين العظيم. وسواء أكان الناووس في الأصل مخصصاً لها أم لا، فقد استُخدم في هذه الحالة ناووس يحمل مشهد معركة ليحوي شخصاً من المستحيل أن يكون جنرالاً.

ولو أمعنا النظر في الشخصيات الرئيسة الظاهرة على ناووس بورتوناكسيو-قائد الخيالة في المشهد والجنرال والاثنَيْن المقبليْن على الزواج والمرأة التي تُشرف على اغتسال الطفل- فيمكن أن نلاحظ عدم اكتمال وجوههم المنحوتة على الغطاء. ويشير ذلك إلى أن الذين يشترون النواويس لم يكونوا يطلبون تصنيعها من الصفر. وعوضاً عن ذلك، كانت الوِرش تُنتج النواويس بعدد قياسي نوعاً ما من الزخارف، بحيث يمكن فيما بعد «صبغها بالطابع الشخصي» الخاص بالمشتري بوضع اللمسات الأخيرة لوجوه الشخصيات الرئيسة على الرسومات. ولا ينبغي أن نفترض أن الغالبية العظمى من النواويس التي تحوي مشاهد «معارك» أو «عفو» اشتراها بمحض الصدفة جنرالات متقاعدون. لذا، ينبغي تفسير هذه النواويس على نحو رمزيٍّ. وتدل التكلفة الباهظة للناووس على أنه من الأشياء الخاصة بأصحاب المقام الرفيع. ففي حالة اختيار عرض صورة هرقل على الناووس، يعني ذلك أن الميت كان يرغب في أن يُنظر إليه، أو أن عائلته أرادت أن يُنظر إليه، بوصفه شخصاً يتمتع بفضائل المهمة الحضارية للبطل الذي سعى إلى تخليص العالم من الوحوش وتحوَّلَ إلى إله بعد وفاته. وبالمثل، إذا انتقى المشتري ناووساً يشبه ناووس بورتوناكسيو الذي يحمل مشهد «معركة» أو مشهد «عفو»، فإن ذلك يدل على أن الميت يرغب في أن يذكره الناس بأنه كان يتمتع بفضيلتيْ الشجاعة والعفو العسكريتَيْن المُبجلتيْن، حتى وإن لم يكن يَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى عالم الحروب. وربما تمادى بعض المعاصرين وعدوا «المعركة» انتصاراً على الموت ذاته. وحتى في أثناء تخليد ذكرى الميت، كان من المُستحسن أيضاً التفكير من منظور حربيٍّ.

في عهد الإمبراطورية الرومية المتأخرة، وبالتحديد بدايةً من النصف الثاني للقرن الثالث الميلادي فصاعداً، عَدَّ عدد متزايد من الناس بشكلٍ واضح أنفسهم جنوداً. ومن قمة الهرم إلى قاعه، سُمح لجميع موظفي الخدمة المدنية بالإشارة إلى أنفسهم بوصفهم جنوداً، كما كانوا مقسَّمين إلى مراتب متدرجة شأنهم كشأن جنود الجيش، وارتدوا ثياباً على الطراز العسكري. وكانوا فوق ذلك كله يرتدون الحزام العسكري (cingulum)، ويُصنَّفون عند التقاعد ضمن «المحاربين القدامى». لذا، باتت القوانين ضرورية لمنع مَن ليس لهم الحق في ارتداء الملابس العسكرية، أو على الأقل الحد من هذه الظاهرة («قوانين ثيودوسيوس»، [14.10.1 [382). لقد كان من المستحسن دائماً التفكير بالمنطق الحربيِّ في العالم الكلاسيكي.

الفصل الثالث
الحروب والمجتمع

من المعلوم للقاصي والداني أن الطريقة التي يَشُن بها المجتمع حرباً هي إسقاط على ثقافة المجتمع ذاته. دعونا نضرب مثلاً: إن صعود رغبة قبائل الزولو الإفريقية إبان بدايات القرن التاسع عشر في خوض معارك حاسمة-يشتبكون فيها بالأيدي- مسفرة عن نحر المقاتلين الأعداء وضَمِّ كلِّ مَن هم سواهم إلى دولة قبائل الزولو، جاءَ إلى حد كبير نتيجة صعود نجم الحكم الملكي المُطْلَق لقبائل الزولو الذي سعى إلى أن يصب الولاء السياسي كله في شخص الملك عبر الجيش.

ويتعاطى الفصل الحالي مع الأمور من الجهة المعاكسة. ويتعامل مع ثلاثة أمثلة يُعتقد أنها تُبين أنَّ صناعة الحروب غيَّرَت المجتمعين الإغريقيَّ والروميَّ أيَّما تغيير.

«ثورة الرَمَّاحين» في اليونان

من بين سبل التعاطي مع الجانب العسكريِّ لـ «ثورة الرَمَّاحين» المُفترضة في العالم اليوناني قرب نهاية القرن الثامن و/أو القرن السابع قبل الميلاد، أن ننظر إلى صورتَيْن بصريتَيْن عتيقتَيْن للقتال. الأولى صورة هندسية التكوين (735-720 ق.م تقريباً) لإبريق نبيذ من أثينا (شكل 5).

يبدو أسلوب القتال في الصورة سلساً وفردياً. بعض المحاربين يركبون عربات حربية، وبعضهم راجلون. وهناك زوج من المحاربين، غالباً ما يُعرفَان بالابنيْن التوأمين الأسطوريَيْن للقائد أكتور Actor، يتحركان ليركبا العربة.

ويملك التوأمان درعاً مربعةً، ويملك آخرون دروعاً بيضاوية ذات أجزاء مُستقطعة شبه دائرية عند الجوانب (عادةً ما يُشار إليها باسم دروع ديبيلون Dipylon، تيمناً بالمدافن المُقامة في أثينا حيث عُثِرَ على العديد من المزهريات التي رُسمت عليها تلك الدروع)، في حين لا يملك جنود آخرون أيَّ دروع. ولقد بدا أنَّ الاقتتال يتواصل برمي الحِراب والالتحام القتالي المباشر بالسيوف.

ويمكن تفسير الاقتتال المُبيَّن على تلك المزهريات أنه يطابق إلى حد كبير القتال الذي صوَّرَه هوميروس في الإلياذة، وفيه يمكن تصوُّر أنَّ الأبطال المتفردين الذين يركبون عربات عسكرية ويترجلون منها للقتال أولاً بحرابهم التي يرمونها ثم بسيوفهم، يهيمنون على ساحة المعركة، في حين يُختزل جُل تابعيهم في صورة مشاهدين أو ضحايا.





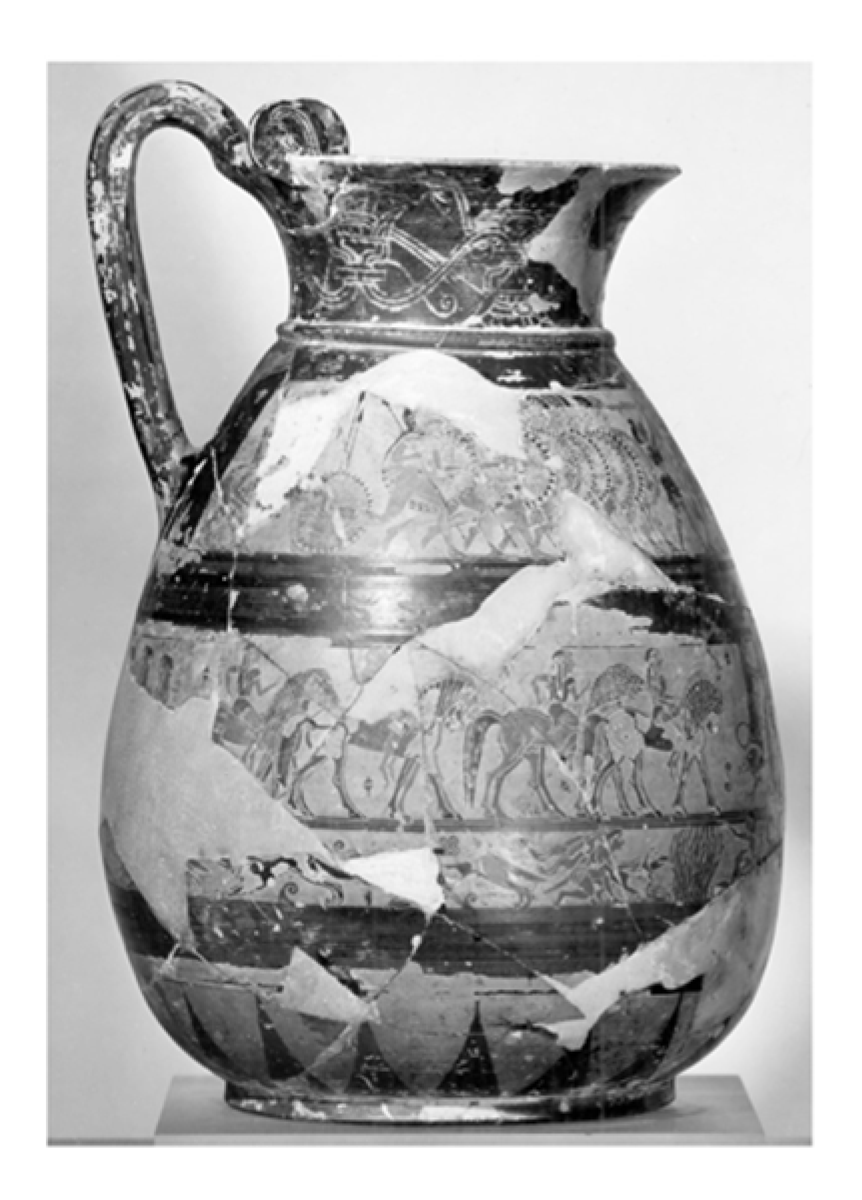
5. إبريق نبيذ من أثينا، يرجع تقريباً إلى الفترة 735-720 قبل الميلاد



والصورة الثانية مرسومة على «مزهرية شيغي» (التي سُميَّت تيمنًا بمالكها السابق). ويُظْهِر مشهد الشخصية الرئيسة على هذا الإبريق الكورنيثيِّ الطابع، الذي يرجع إلى عام 650 ق.م تقريباً، رجالاً في قلب المعركة (شكل 6).

وهنا يبدو أسلوب القتال متجانساً وجماعياً. فالمحاربون مُصطفون في صفوف مُتراصة ويتحركون بخطوات وئيدة محسوبة. وجميعهم مُدججون بالأسلحة ذاتها، ويحملون دروعاً دائرية، ومتأهبون للقتال بحِرابٍ هجومية.

ويمكن تفسير القتال الدائر على هذا الإبريق بأنه إمَّا مطابق وإمَّا مماثل جداً لما أمسى لاحقاً الأسلوب القتالي الإغريقي المميز في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، واتخذ شكل كتيبة الرمَّاحين التي تعرفنا عليها من المؤرخين هيرودوت وثوقيديدِس Thucydides وزينوفون Xenophon.



6. مزهرية شيغي من مدينة كورنثوس اليونانية، ترجع تقريباً إلى عام 650 ق.م.



ولقد تَشَكّلَت كتيبة الرمَّاحين من مشاة ثقيلين مُنظَّمَين على هيئة عدة صفوف مُتراصة «كحائط صد»، وجميع جنودها يحملون دروعاً دائرية، ويحاربون في المقام الأول بحِرابٍ هجومية. (سنستكشف معاً تجربة هذا اللون من القتال في الفصل السادس).

إن مثل تلك التفسيرات الواردة أعلاه هي التي تدعم النظرية الحديثة التي مفادها أنَّ الإغريق غيَّروا أسلوب شنهم للحروب تغييراً جذرياً في فترة ما قبل عام 650 ق.م تقريباً، إبان الفترة التي رُسمت فيها صورة «مزهرية شيغي». ويُنظر إلى ساحة المعركة الأصلية بوصفها «بدائية»، لأنها تشبه ساحات المعارك التي سجَّلها علماء الأنثروبولوجيا في مرتفعات غينيا الجديدة. إنها «مكان مهيب» تشح فيه التشكيلات أو التكتيكات العسكرية. وفيه يكون المجال مفتوحاً أمام الأفراد الذين تُحرِّكهم رغباتهم الشخصية في تحصيل مجدٍ أو تفادي وصمة عار لصنع القرار المتعلق بزمان القتال ومكانه، وهوية الخصم الذي سيحاربونه. ومن هذا المنطلق، ليس من قبيل المفاجأة أنَّ عدداً قليلاً من الأرستقراطيين هم الذين يستأثرون بقرار تحديد يوم اندلاع الحرب. فمن الممكن أن يخسروا أو يجنوا ما هو أكثر بكثير في لعبة المجد والعار السالفة الذكر، وهم يملكون أفضل المعدات (لكن قليلاً من العلماء يَحتجون بأنهم استخدموا عربات حربية في واقع الأمر). ويُنظر إلى هذا التشكيل على أنه قد حلَّت محله ساحة المعركة «المُتحضرة» التي من أبرز عناصرها على الإطلاق تشكيلان محددان، ألا وهما الكتيبتان المتحاربتان. وما إن يُكلَّف المحاربون المُجهزون تجهيزاً متطابقاً عملياً بمواقعهم في الكتيبة (ويسعنا الإقرار بأن أحداً ليس لديه أدنى فكرة عن كيفية تجهيز الخصمَيْن تجهيزاً متطابقاً)، فإنهم لا يكاد يكون لديهم خيار فيما يتعلق بزمان القتال أو مكانه أو هوية الخصم. ثمة رغبةٌ لديهم في حماية مجتمعهم، المُتمثل في «المدينة» اليونانية، تُضاف الآن إلى المصالح الشخصية لمنعهم من تنفيذ أحد الخيارات القليلة المتروكة لهم، ألا وهو أن يكفُّوا عن القتال، ويشقُّوا طريقهم عبر الصفوف ويولُّوا الأدبار.

وعُدَّت هذه الثورة العسكرية المفترضة سبباً لحدوث تغيرات سياسية واجتماعية عميقة. وتُقدِّم لنا نظرة موجزة لنقاش طرحه عالِمٌ له إسهامات جليلة مساراً ننتقل عبره إلى هذا الجانب. فقد احتج أنتوني أندروز Antony Andrewes بأنَّ زيادةً في حجم التجارة أدت إلى نشأة فئة جديدة من غير الأرستقراطيين الأثرياء نوعاً ما في المجتمع اليوناني. وكان هؤلاء (وهم في الأصل مزارعون استفادوا من تحسُّن الظروف الاقتصادية) هم الذين شكّلوا كتيبة الرمَّاحين.

وما إن انضمت تلك الفئة إلى التنظيم الاجتماعي للكتيبة التي أمست حينها السلاح العسكري الأساسي للمدينة اليونانية، حتى بدأت هذه «الطبقة الوسطى» تطالب بحقوق سياسية، ومن ثم فقد دَعَمَت، أو على الأقل لم تعارض، صعود نجم المستبدين الذين أطاحوا بالنُّظُم الأرستقراطية التي كانت موجودة في السابق. وبعد تداعي النظم الاستبدادية، هيمن الرمَّاحون على السواد الأعظم من المدن اليونانية. ورغم اختلاف عدد كبير من العلماء حول مسائل كثيرة، مثل الطريقة التي استُحدثت بها الكتيبة (دُفعةً واحدة أم تدريجياً بمرور الزمن) وهوية من استحدثوها (الأغنياء غير الأرستقراطيين أم الأرستقراطيون أم المستبدون)، والأهم من ذلك اختلافهم بشأن آثار استحداثها؛ فقد اتفقوا على أنه كان هناك (1) إصلاح عسكري كبير و(2) أنَّ هذا الإصلاح له بعض الآثار السياسية والاجتماعية. وتحققت لثورة الرمَّاحين «صفة السيادة».

لكن لم يكن في الإمكان أن تصمد. لقد كان يواكيم لاتاكز Joachim Latacz من أوائل معارضي «النزعة التقليدية»، فوفقاً لقراءته الخاصة، كانت الحرب التي جاء وصفها في الإلياذة حرباً للرمَّاحين. قليل من العلماء هم الذين اتبعوا هذا المسار المتشدد، لكن كثيرين تبنوا موقفاً

«إصلاحياً»، فهم يميلون إلى رؤية «أوائل الرمَّاحين» في ساحة معارك هوميروس. وفي قراءاتهم للإلياذة، نجد أن أثر الأبطال المنفردين في أدنى مستوى له، وأن العامل الحاسم هو القتال الجماعي للمحاربين العاديين. ومن ثم، لا يوجد مجال لـ «ثورة» عسكرية، وإنما كان هناك، على أفضل الفروض، تبنٍّ تدريجي لمعدات قتالية جديدة، ونزعة وئيدة نحو التجانس. وعندما أدى أسلاف الرمَّاحين بالفعل دوراً محورياً في المعركة، لم يكن «التشكيل» النهائي لكتيبة الرماحين ليُلهم العقول تغيراتٍ سياسية واجتماعية مهمة. وغنيٌّ عن القول إن العلماء لم يقبلوا جميعاً بهذه الحجج، وفُتح باب النقاش مجدداً حول «التقاليد السائدة».

كيف يمكن أن تتعايش مثل هذه التفسيرات المتضاربة؟ يرجع الأمر نوعاً ما إلى الأدلة التي بين أيدينا. فمعرفتنا بالحرب اليونانية في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد شحيحة. ورغم الجهود الحثيثة لـ «علماء الآثار التجريبيين» الذين يصنعون نسخاً طبق الأصل ويستخدمونها، تُطْلِعنا اكتشافات الأسلحة على أقل مما كنا نتوقع. ولا يسعنا أبداً أن نتأكد، بما لا يدع مجالاً للشك، من أن أحد عناصر تجهيزاتٍ ما قد اسُتخدم بالمعنى الأكثر «معقولية» أو «اتزاناً».

لنلتفتْ إلى حرب «ما قبل الرمَّاحين» المفترضة، ولنلقِ نظرة ثانية على الإبريق الأثينيِّ المزدان بالرسوم (شكل 5). أكان الفنان يحاول أن يُضفي صورةً واقعية على حربٍ معاصرة؟ وهل رآها الناظرون المعاصرون على أنها حرب معاصرة؟ وماذا عن العربات العسكرية التي لا يوجد دليل أثري على استخدامها في الحروب آنذاك خارج نطاق الفن؟ أو ماذا عن دروع «ديبيلون» التي لا وجود لها سوى في الرسوم؟ أو ماذا عن الوجود المحتمل للتوأمين السياميين في إحدى ساحات المعارك؟ والأسئلة عينها يمكن أن تُطرح على هوميروس. وعلى الرغم من أن بمقدور القراء المهرة للإلياذة أن يجعلوا الحرب تبدو مُتجانسة، فهل يعني هذا أن بين أيدينا ما يتجاوز العالم الشِعريّ أو الخيالي المُتجانس؟ إننا نعلم أنَّ عناصر المعدات الوارد ذكرها في الإلياذة تنتمي إلى فترات مُتباعدة ومنفصلة تماماً من التاريخ اليوناني؛ فهي «دروع موكيانيَّة واقية للجسم بالكامل» تحتك بما يبدو أشبه بدروع الرمَّاحين. ألا يجوز أنَّ التكتيكات انتمت أيضاً إلى خليط من الفترات الزمنية المختلفة؟

وعلى النحو ذاته، فإن معرفتنا ببدايات حروب الرمَّاحين طفيفة. فلا يبدو أنَّ شعراء القرن السابع يصفون دائماً قتال الرمَّاحين. يتكلم الشاعر كالينوس Callinus ابن مدينة أفسس عن القتال باستخدام الرماح الخفيفة القصيرة لا رِماح الطعن (مُقتطف رقم 1). وفي أحد المُقتطفات (11)، قدَّمَ لنا تيرتيوس Tyrtaeus ابن مدينة إسبرطة ما نعدُّه وصفاً كلاسيكياً لكتيبة رماحين مصطفة بكثافة. ورغم ذلك، ينتهي المُقتطف (السطر رقم 35) بعبيد مُرتهنين بديون، و«مكشوفين» (أي مُسلحين بأسلحة خفيفة) يجثمون تحت دروع الرمَّاحين.

لنلقِ نظرة ثانية على المشهد المرسوم على مزهرية شيغي، ولنتخيل ما يمكن أن تُسفر عنه الأحداث في لحظة ما. الصفوف الأمامية متأهبة لتسديد الضربة القاضية، والمقاتلون الأربعة الموجودون جهة اليسار سيسقطون، وكذلك المقاتلون الأربعة جهة اليمين. ومن ثمَّ سيبقى مقاتل واحد جهة اليمين، وعازف الناي جهة اليسار سيُعْزَل بين الصفوف الثانية. أهذا الذي سيحدث فعلاً؟ لو أمعنت النظر إلى اللوحة، فسيكون بوسعك أن ترى أربعة مقاتلين في الصف الأمامي جهة

اليسار، لكنك سترى أيضاً عشر أرجل. يحمل السواد الأعظم من المقاتلين رُمحاً ثانياً، وهو ما لم يحمله الرمَّاحون اللاحقون، وكثير من تلك الرماح لها حلقة لمساعدة المقاتل على رميها، في حين رمى الرمَّاحون اللاحقون رماحهم من دون حلقات مساعدة. والصفوف ليست مُتراصة عن كثبٍ الواحد في عقب الآخر، كما اعتقدت الغالبية العظمى عن الرماحين اللاحقين. ولو لم نكن نعلم شيئاً عن معارك الرماحين في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، أكان يمكن أن نُفسِّر هذا المشهد بشكل تلقائي على أنه يمثِّل اشتباكاً بين كتائب تعمَّقَ وصولاً إلى العديد من الصفوف؟

هناك خطر جسيم يتعلق بتعاطينا مع ما نُحيط به علماً عن قتال الرمَّاحين اللاحقين وتغييره وإسقاطه على الماضي. نحن نتعاطى مع الكتيبة المُرتَّبَة ترتيباً كثيفاً، الشائعة في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وننزع عنها جنودها ذوي التسليح الخفيف وخيَّالتها، وكذلك نسلبها تكتيكاتها المُتطورة نسبياً، ونُسقطها على القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، ومن ثمَّ ننشئ مرحلة بسيطة و«شعائريَّة» لحروب الرماحين المُبكرة.

وبالنظر إلى تحديات تفسير الأدلة الشحيحة التي بين أيدينا، فمن غير المفاجئ مطلقاً أنَّ ثمَّة نظرية متباينة بوناً شاسعاً ومتضاربة تضارباً شديداً حول طبيعة الحرب في اليونان العتيق، وأثرها في المجتمع. لقد كانت كتيبة الرماحين اليونانية ظاهرةً خاصة بالدول المدن اليونانية، وكل مدينة يونانية نعرفها آل بها المآل إلى توظيف تلك الكتيبة، ولم يستعن بها الإغريق الذين لم يعيشوا في مدينة يونانية. وبالمثل، يبدو أن الحكام المستبدين كانوا ظاهرةً محصورة في المدن اليونانية. لم نسمع عن مستبدين بين الإغريق الذين لم يعيشوا في المدن اليونانية. والصِلات التي تربط ما بين المدينة اليونانية والمستبدين والرمَّاحين مازالت قيد إعادة التفسير بأسلوبٍ مقبول.

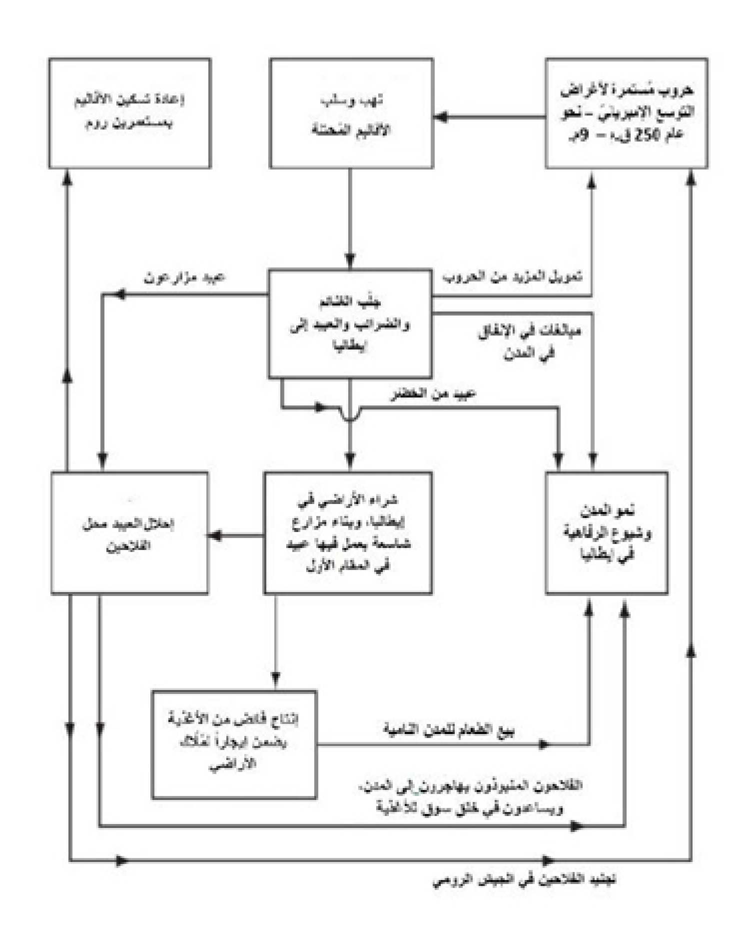
وما يمكن التصريح به بمنتهى الثقة أنه بين عاميْ 735 و650 ق.م تقريباً غيَّرَ الإغريق أفكارهم المتعلقة بالحرب ورؤيتهم لها. ففي تلك الفترة، انتهى عصر دفن الرجال رفقة أسلحتهم، ما خلا في المناطق النائية. ومرة أخرى، بدأ الإغريق في تلك الحقبة يُهْدون للأحرام المُقدسة الأسلحة والدروع والصور المُنمنمة للمعدات والمقاتلين، وأبرز مثال على صور المقاتلين عشرات الآلاف من النماذج المُصغرة لمقاتلين عُثِر عليها في معبد أرتميس أورثيا Artemis Orthia في إسبرطة. وأخيراً، في نحو عام 650 ق.م، ظهر سيل من الصور على الآنية الخزفية لرجال يحملون عتاد الرماحين.

«الأزمة الزراعية» في إيطاليا

يُشاع أنَّ الحروب الواسعة النطاق في القرنين الأخيرين قبل الميلاد تسببت في أزمة زراعية في إيطاليا، الأمر الذي قوض الحكومة الجمهورية لروما بشدة، وجعل النظام الملكيَّ الذي نعرفه باسم «عهد الزعامة» (Principate) يحلُّ محلها.

ويقدِّم لنا المخطط الانسيابي الذي وضعه المؤرخ القديم كيث هوبكنز Keith Hopkins (شكل 7) أسلوباً أنيقاً لهذه «الرؤية التقليدية».

لنتتبع الخطوط العامة للنموذج، يكمن «المُحرِّك» الأساسي للعملية كلها في المربع الأعلى جهة اليسار «حروب مُستمرة لأغراض التوسع الإمبريالي»، ويفضي ذلك إلى نهب الأقاليم المُحتلة التي تُرسل غنائمها إلى إيطاليا على هيئة مكاسب حربية وضرائب وعبيد. وتموِّل هذه الغنائم (المربع السفلي) عملية خلق مزارع شاسعة يُديرها العبيد في المقام الأول.



7. نموذج لـ «الأزمة الزراعية» في إيطاليا الرومية

ويقتضي إنشاء هذه المزارع (المربع الموجود جهة اليمين) ترحيل الفلاحين الأحرار (لعل كلمة «مزارعين» تحمل في طياتها معانيَ إضافية أقل تنطوي على مفارقة تاريخية). وإذا تتبعنا السهميْن الهابطيْن، سنجد أن المزارعين المنتزعة منهم أملاكهم إمَّا يرحَّلون إلى مدن إيطاليا النامية، وبخاصةً روما، حيث يساعدون على تأسيس سوقٍ لمحاصيل المزارع نفسها التي حلَّت محلهم، وإمَّا يُلحقون بالجيش ليشاركوا في الحروب التوسعية التي استهلت العملية بأسرها. لقد كان مزارعو إيطاليا أساساً يحاربون بسبب تشريدهم. وأخيراً، انتهت «الدائرة المُغلقة» إبان حكم الإمبراطور الأول أغسطس (31 ق.م-14م)، إذ انتهت حقبة شن الحروب التوسعية المستمرة،

وبناء جيش على درجة عالية من الاحترافية، وتنفيذ برنامج مهول لتوطين المحاربين الإيطاليين المخضرمين في أقاليم ما وراء البحار (المربع العلوي الأيمن).

بقدر ما يبدو المخطط الانسيابي أنيقاً ومثيراً للتفكير، فإنه ملخصٌ قاصر بشدة لحجج هوبكنز. لقد كانت طبقة الصفوة الرومية (كما هو موضح ضمناً في المخطط الانسيابيّ) هي التي استأثرت بنصيب الأسد مما استُحوذ عليه من الأقاليم المُحتلة. وحصلت الطبقة الاجتماعية الأعلى في المجتمع في روما، ويمثلها أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا مُلاك أراضٍ فاعلين سياسياً، على حصتها من الغنائم الأساسية والكسب غير المشروع عن طريق كبار القادة العسكريين وحُكام المقاطعات. وبعض أعضاء ثاني أعلى الشرائح المجتمعية، ألا وهم الفرسان، الذين كانوا أيضاً من ضمن مُلاك الأراضي لكنهم انخرطوا في السياسة بشكل أقل صراحةً، حصلوا على حصتهم عن طريق جباية الضرائب ومزاولة أنشطة الأعمال. ولم يشترِ الصفوة أراضي في إيطاليا بغية إنشاء مزارعهم وضياعهم وحسب، فقد طُرِدَت عائلات المزارعين من أملاكهم الصغيرة عنوةً، وسَوَّرَ الصفوة أيضاً الأراضي العامة (ager publicus)، فأدى ذلك بشكل غير مباشر إلى إقصاء المزارعين من الريف. وكانت أملاك المزارعين عادة صغيرة جداً حتى إن الوصول إلى الأراضي العامة كان ضرورياً لاستدامتها.

إن المعتقدات القديمة القائلة بأن المُواطَنَة تكتسب شرعيةً بالخدمة في الجيش، وأن الذين يشاركون في المجتمع من الأرجح أن يدينوا له بالولاء، وأنَّ المزارعين هم المادة الخام لأفضل الجنود، تُفسِّر علة وجود شرط التملُّك للخدمة في الفيالق الرومية، ربما حتى عام 107م، وأن الغالبية العظمى ممَّن يجري استدعاؤهم كانوا فلاحين مزارعين.

في القرن الثاني قبل الميلاد، اقتضت حروب روما الكُبرى فيما وراء البحار إقصاء عدد كبير من المزارعين الإيطاليين عن أراضيهم لفترات زمنية ممتدة. وكانوا كلما عادوا إلى أراضيهم، إمَّا يجدون عائلاتهم قد أُجليت قسراً من أراضيهم، وإمَّا يسقطون في هوة الديون التي يستحيل الوفاء بها، وإمَّا يحرمون من الوصول إلى الأراضي العامة الضرورية لهم بسبب إحاطتها بأسوار. والآلاف من هؤلاء إمَّا يمسون من ضحايا الحروب، وإمَّا لا يرجعون مُطلقاً، وإمَّا يتعرضون لإصابات جسيمة تحول دون ممارستهم لمهنة الزراعة مجدداً.

ويُعتقد أن الطرد الجماعي للفلاحين قوَّضَ إلى حدٍّ كبير الجمهورية الرومية من وجهيْن: أولهما أن عدداً كبيراً انتقل إلى روما، حيث شكلوا جزءاً من فقراء الحضر الساخطين الذين ازدادت أعدادهم باستمرار. ولقد سمحت أسباب السخط الحقيقية لدى عموم الحضر (عامة الشعب الرومي) لبعض أعضاء مجلس الشيوخ، ممن ينتمون غالباً إلى أكثر العائلات أرستقراطية، بأن يؤهلوا أنفسهم لأن يصبحوا ساسة ذائعي الصيت (populares) نالوا مناصب واسعة النفوذ بمناصرتهم لمصالح الفقراء، وبذلك هدموا سياسات الإجماع بين الصفوة. وحدثت الفجوة الأولى عام 133 ق.م عندما دعا تيبريوس غراكوس Tiberius Gracchus بقوة، بوصفه واحداً من الشعب، إلى مخططٍ لإعادة توزيع الأراضي العامة على المواطنين الروم الذين لا أرض لهم. وتفيد مصادرنا بأن دافعاً أساسياً وراء هذه المبادرة تمثَّلَ في القلق من العدد المتدني للفلاحين، وتَردُّد المتاحين للتجنيد في الجيش في الالتحاق به. وثانيهما أنَّ الضغوط التي تمارسها الخدمة العسكرية على العدد المتراجع

للفلاحين أصحاب الأراضي أفضت إلى التخلي عن شرط الملكية. وعادةً ما تُنسب هذه الظاهرة إلى العام 107 ق.م، وترتبط بأفعال ماريوس Marius، أحد قناصل ذاك العام. وبالتبعية، لم يكن لدى الفيالق غير المالكة مزارع ترجع إليها بعد انتهاء خدمتها، ومن ثمَّ بدأ جنود تلك الفيالق في اللجوء إلى جنرالاتهم كي يجبروا الحكومة على إيجاد أراضٍ لهم فور تسريحهم من الجيش. وفي الوقت عينه، شرع الجنرالات يلتمسون دعم جنودهم في معاركهم السياسية. ولقد أدى تبادل المصالح هذا بين الفيالق وجنرالاتها في نهاية المطاف إلى ضعضعة الجمهورية، إذ كانت الجيوش متأهبة لأن تتبع قادتها في مواجهة الدولة.

لقد طعن بعض العلماء مؤخراً ومراراً وتكراراً في الفهم «التقليديّ» لـ «الأزمة الزراعية».

سنتناول بالفحص اثنيْن من الخطوط الرئيسة للهجمات «الإصلاحية» هنا. أولاً، اقترح بعض الناس أنَّ الحرب في القرن الثاني قبل الميلاد لم تختلف إلى حد كبير عن الحرب في القرن الثالث قبل الميلاد، وأنها لو كانت ستؤدي إلى أزمة زراعية، لكانت فعلت ذلك في وقت أسبق. ثانياً، احتج بعضهم بأن الدليل الأثريَّ الذي بين أيدينا لا يدعم الرؤية «التقليدية».

لا بد أن نقر بأن أيَّ حجج تستند إلى التركيبة السكانية لروما الجمهورية هي حجج مبدئية، فالدليل الذي بين أيدينا منقوص ومن الصعب تفسيره. ومن الممكن أن نخلص إلى استنتاجات متضاربة تماماً: إمَّا أنَّ مواطني إيطاليا يعانون تراجعاً حاداً وإمَّا أن عددهم يشهد زيادة متسارعة. لقد فرضت الحرب في القرن الثاني، من بعض الأوجه، قيوداً أقل مما فرضتها في القرن الثالث. وفي القرن الثاني، لم يضطر الروم قط في فترة من الفترات إلى إيفاد عدد الجنود الذين أرسلوهم لمحاربة حنبعل دفعة واحدة (الحرب البونية الثانية، 218-201 ق.م)، وأمست الحروب حينها تدور رحاها على الأراضي الإيطالية. ولكن ثمة عوامل أخرى تغيرت، فقد اضطرت روما عندئذ إلى الإبقاء على حامياتٍ دائمة في بعض الأقاليم: كانت الفيالق في إسبانيا (وربما إقليم غاليا كيسالبينا، وهو الاسم الذي اشتهر به الجزء الشمالي لإيطاليا المحيط بوادي بو Po) على مدار القرن، وفي مقدونيا بداية من عام 146 ق.م، تُفكَّك نظرياً شتاءَ كل عام، وتلتحق فيالق جديدة بالجيش في العام التالي. وكان من غير العمليّ تسريح كل الجنود الذين يخدمون في إسبانيا واستدعاء مجندين جدد من إيطاليا كل عام. ولذلك كانت الفيالق لا تلتحق بالجيش لفترة محددة، وإنما طوال فترة الحملة العسكرية. وإذا استُدعيت للخدمة في جيش إحدى «الحاميات»، ربما بدت تلك «الحملة العسكرية» كأنها لا تنتهي. ويجوز أن يبعد جنود الفيالق في تلك الجيوش عن مزارعهم لسنين في المرة الواحدة. وكانت إجراءات تيبريوس غراكوس عام 133 ق.م محاولةً لحل هذه المعضلة التي لطالما تأزمت. وفي أربعينات القرن الثاني قبل الميلاد، كانت الأزمة ملموسة بقوة حتى إن أيَّ سياسي يتمتع بعقلية محافظة جداً كان يقترح الإصلاح. ورغم ذلك، فقد فاز السياسي والقنصل لايلوس Laelius، وهو بطل رجعيٌّ، بلقب «العاقل» لتراجعه عن الفكرة برمتها آنذاك.

واحتج بعض الناس بأن الدليل الأثريَّ الذي بين أيدينا لا يدعم الصورة «التقليدية» للأزمة الزراعية في إيطاليا. فعلى سبيل المثال، يفيد أحد مصادرنا الأدبية الرئيسة (بلوتارك، تيبريوس غراكوس، 8.7) بأن تيبريوس غراكوس أُلهم بمحاولة الإصلاح في أثناء رحلة قام بها عابراً

منطقة إترووريا في إيطاليا، إذ رأى ندرة الأحرار، واكتشف أن الأعمال الزراعية يضطلع بها العبيد. ومع ذلك، فإن المسح الأثري لهذه المنطقة يبدو أنه يُظهر منظراً طبيعياً حافلاً بالمزارع الصغيرة لا الضِياع الكبيرة. ولمَّا كان تيبريوس غراكوس من رجال السياسة، صار من السهل قبول فكرة أنه بالغ في الوصف وعمَّمَه. ولكن، ليس علينا أن نفترض أن علماء الآثار ليسوا عُرضة لمثل هذا السلوك. فالقسم الأكبر من إيطاليا لم يخضع لعمليات المسح، والقيود التي تُكبِّل أعمال التنقيب عن الآثار ينبغي أن تُوضع في الحُسبان. وغالباً ما يبرع علماء الآثار في الكشف عما إذا كانت الأرض مُستخدمة (لزراعة الزيتون أو العنب مثلاً)، لكنهم نادراً ما يكشفون لنا عن أوضاع أولئك الذين يزرعون الأرض (سواء المحتلون المُلاك أو المستأجرون أو العبيد). والفقراء المعدمون جداً، مثل العبيد الذين يعملون بالزراعة، يتركون آثاراً شحيحة جداً، ومن ثمَّ ليس لهم تمثيل إلا قليلاً في المسوحات الأثرية.

وعلينا أن نتحلى بالحيطة والحذر فلا نصنع تقسيماً صارماً أكثر من اللازم بين الرؤية «التقليدية» والرؤى «الإصلاحية». فما من «إصلاحي» يدَّعي أنه لم يُلقِ بفلاحين خارج أراضيهم. وبالمثل، ما من أحد من أنصار النزعة «التقليدية» يزعم أن الفلاحين كافة طُردوا من أراضيهم. إنه نقاش يتعلق بالدرجة لا بالنوع. لقد أكدت عدة عوامل أن ضِياعاً كثيرة لم تستطع الاستحواذ على جميع الأراضي الإيطالية. فقد كانت عوامل المناخ وطبيعة التضاريس والتربة مناسبة للضياع الكبيرة في مناطق بعينها فقط دون غيرها؛ إذ نمت أشجار العنب والزيتون في المنطقة الساحلية الغربية في إيطاليا، في حين ازدهرت المراعي في الجنوب. وعلى العكس من مزارع الفلاحين التي تفي بحد الكفاف (الكوافي)، تحتاج الضِياع التي تُدار بوصفها مؤسسات أعمال جالبة للربح (مُعظِّماتٍ للأرباح) إلى أسواق. وكان نقل البضائع السائبة بَراً غير فعال من الناحية الاقتصادية في العالم القديم. ولذلك تقيدت الضياع الكبيرة بالمناطق القريبة من أسواقها (المُدن) أو النقل المائي (الأنهار أو الموانئ الصالحة للإبحار). وتباينت الحاجة إلى العمالة في الضِياع خلال العام؛ فقد اقتضت الحاجة أعداداً كبيرة من العُمال وقت الحصاد، وأعداداً أقل في منتصف الشتاء. وكان من غير المُجدي اقتصادياً أن تحتفظ الضيعة بعددٍ كافٍ من العبيد لتغطية فترات الذروة. وبدلاً من ذلك، كانت الضِياع تحتفظ بأقل عدد من العبيد، وتستأجر العمالة الإضافية لفترات الذروة. ولذلك كان في صالح الضِياع الكبيرة أن تضمن بقاء بعض الفلاحيين على أرضها وعلى مقربة منها، على أن يُستعان بهم بوصفهم أجراءَ موسميين.

ولم تُكتب السيادة والهيمنة للضِياع الكبيرة قط في ميدان الزراعة في إيطاليا (من ناحية زراعة الغالبية العظمى من الأراضي)، لكنها أمست نوعاً مميزاً من المزارع. فقد كان إحلال الضِياع التي يقوم على خدمتها بقدر كبير عبيدٌ محلَّ مزارع الفلاحين مشكلةً ملحوظة بقدرٍ كافٍ يدعو السياسيين ذوي الآراء المختلفة، من أمثال تيبريوس غراكوس ولايلوس، إلى الاعتقاد بأن من الضروري إيجاد علاج لها.

غرس «الهمجيَّة» في الجيش الروميّ

هناك رأي شائع مفاده أن غرس «الهمجية» في الجيش الرومي أدى إلى انهيار الشق الغربي للإمبراطورية. وتفصيل هذا الرأي كالتالي: خلال القرن الرابع الميلادي، اجتمع إحلال وحدات همجيَّة على نطاق واسع محلَّ الوحدات الأصلية، بقيادة قادة قبائلهم الهمجية أنفسهم وبتبنيهم أساليب قتالهم الأصلية، وتدفُّقُ الضباط والرجال الهمج إلى الوحدات الرومية النظامية ممن استخدموا معدات وأساليب قتالية همجيَّة، ليجعلا الجيش الرومي أقل كفاءة وأكثر عرضة لحالات الهروب من العسكرية والخيانة. وفي القرن الخامس الميلادي، تراجعت «النزعة الهمجية» في الشق الشرقي من الإمبراطورية، لكنها تفاقمت في شقها الغربي. ولذلك صمد الشرق وانهار الغرب.

لقد كان مفهوم غرس «الطابع الهمجيّ» مؤخراً موضوعاً للدعوات الإصلاحية المتكررة، فقد ظهرت اقتراحات بأنَّ واحداً فقط من كل أربعة من أولئك الضباط والرجال في الوحدات النظامية يمكننا أن نخمِّن أن له أصولاً همجية، وأن هذا الرقم لم يزدد خلال القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادي. ولقد زُعِمَ أيضاً أنه عندما خرجت وحدات نظامية كاملة من رحم إحدى القبائل الهمجية، لم تحتفظ تلك الوحدات بأيِّ هوية همجية لفترة طويلة، إذ لم يُستقدم الجنود البُدلاء من جماعة عرقية أصيلة. وبالمثل، فقد اقتُرِحَ أن الخدمة في الجيش النظامي ستفضي إلى أن يُحِلَّ المُجند هوية الجندي الرومي محلَّ هويته الهمجيَّة (سواء أكان فرانكياً أم قوطياً أم خلاف ذلك). واستناداً إلى دليلنا الأدبي المُتاح، يبدو أن الهمج في الجيش لم يكونوا أكثر نزوعاً إلى الخيانة أو الفرار من الجيش من الجنود الروم الأصليين. وجاءت إشارة إلى أن الجيش الرومي لطالما تبنى معدات وممارسات خصومه، وأن من الصعب أن نرى كيف أن بعض حالات تبنِّي المعدات والممارسات تلك التي نحيط بها علماً من الإمبراطورية المتأخرة (مثل ارتداء السراويل أو استخدام صيحة الحرب الجرمانيَّة «Barritus») كان من الممكن أن تقوِّض كفاءة الجيش.

قد يزعم المُعلِّق المعاصر على الأحداث أن بعض الاستعارات من الهمج حسَّنَت في حقيقة الأمر أداء الجنود الروم. يزعم فيجيتوس (1.20 Vegetius)، الكاتب في الإمبراطورية الرومية المتأخرة، أن محاكاة الهمج عادت بالنفع على الخيالة الروم.

وبطبيعة الحال، ليست النقاشات الداعية إلى إعادة النظر بمنأى عن النقد. لدينا مؤشرات على الأصول العرقية لنسبة محدودة فقط من الضباط، ونسبة ضئيلة جداً من أصول الجنود. ونادراً جداً ما يُفصَح لنا عن أصول أيِّ فرد، ومن ثمَّ عادةً ما يتعين علينا استنتاج الأصول استناداً إلى الأسماء. وبحسب اعتراف دعاة إعادة النظر، يُعدُّ هذا نهجاً مشكوكاً فيه جداً. إننا نعلم أن بعض الهمج اتخذوا لأنفسهم أسماءً رومية، في حين احتفظ بعض المجندين من داخل الإمبراطورية بأسمائهم المحلية (السيلتيَّة أو التراقيَّة أو غيرهما) التي يسهل كثيراً جداً الخلط بينها وبين الأسماء الهمجيَّة. ويمكن الإلقاء بظلال الشك على النموذج الذي يستبدل به المُجند بسلاسةٍ هويته بوصفه جندياً رومياً بهويته السابقة. فهناك محارب مخضرم وصف نفسه بـ «المواطن الفرانكيِّ والجندي الرومي» (ILS 2814). لقد كان هناك مفهوم معاصر مفاده أن الهمج استحوذوا على الجيش. في القرن الرابع، كانت كلمة «قوطيٍّ» دارجة وتعني «جندياً» في اللغة السريانية التي ينطق بها الناس في البقاع الشرقية من الإمبراطورية. قد يُدين بعض المعاصرين، في ظروفٍ خاصة، «غرس الطابع الهمجيّ» في الجيش. ففي أوائل القرن الخامس، شاع عن الأسقف سينيسيوس

Bishop Synesius، ابن مدينة قورينا Cyrene، أنه شن نقداً لاذعاً على الإمبراطور آركاديوس Arcadius إثر تعيينه عدداً كبيراً من الهمج ضمن قواته («عن القُربى»، وبخاصةً 1091). ويفترض الموقف التنقيحيُّ أن «الحلفاء» الهمج الذين يخدمون تحت إمرة ضباطهم وبأسلوبهم الخاص لم تكن لهم «تداعيات» مباشرة على الجيش النظامي. ويجوز أن نتخيل أن أثر الخدمة إلى جوار وحدات تتحلى بانضباط أقل والتزام أدنى بالتدريب ربما كان ضاراً بالوحدات النظامية. وأخيراً، ينبغي ألا ننسى أن الحجج الداعية إلى إعادة النظر وثيقة الصلة بفترة زمنية محدودة؛ فإمَّا أنها تمتد وحسب إلى هزيمة الروم الفادحة أمام القوطيين في مدينة أدريانوبل Adrianople عام 378م، وإما أنها تصل إلى نحو عام 425م. وفي الغرب، تحولت الجيوش الرومية الميدانية بالكامل إلى جيوش «همجيَّة» بحلول منتصف القرن الخامس.

وفي عام 451م، كان الجيش «الرومي» الذي هزم أتيلا Attila الهونيَّ في معركة شالون Chalons، حسبما يفسر المرء مصادرنا، إمَّا يتألف من همج بالكامل، وإمَّا يتكون الجزء الفعَّال منه من الهمج.

لقد أثبتت الحجج الداعية إلى إعادة النظر أن غرس «الطابع الهمجي» في الجيش لن يُجدي بوصفه تفسيراً أحادي السبب لانهيار الإمبراطورية الرومية الغربية في القرن الخامس الميلادي وبقاء الإمبراطورية الشرقية وصمودها. لا بد من استكشاف تفسيرات أخرى. وتتضمن تلك التفسيرات معاناة الإمبراطورية الغربية من تعاظم الضغوط الهمجية وكثرة الغاصبين للعرش الإمبراطوريِّ؛ ومن تطاول حدودها وعدم وجود عاصمة استراتيجية منيعة فعلياً مثل القسطنطينية؛ ومن الوعاء الضريبي الأكثر تدنياً؛ ومن الإخفاق في تحجيم نفوذ العائلات الأرستقراطية الكبيرة المالكة للأراضي وخلق طبقة «أرستقراطية خدمية» بيروقراطية شبيهة بتلك الموجودة في الإمبراطورية الشرقية؛ ومن إخفاقها في استيعاب قادة الجيش في البلاط الإمبراطوريِّ. ومع ذلك، سيخلص بعض الناس إلى أن غرس «الطابع الهمجي» في الجيش كان له دور في سقوط الإمبراطورية الغربية.

لماذا تتغير التأويلات التاريخية؟

توضح الطريقة التي نُظِّمت بها الأقسام الثلاثة لهذا الفصل-تأويل «تقليدي» متبوع بآخر «تنقيحيٍّ» ثم نقد لجوانب التأويل التنقيحي- أن جميع التأويلات التاريخية مؤقتة وتُعدُّ جزءاً من عملية مستمرة. وهناك أسباب عديدة تفسر علة ذلك، سننتقي ثلاثة منها هنا.

إن اكتشاف مادة جديدة حافز واضح لاستحضار تأويلات جديدة، لكنه أقل شيوعاً مما يُخيل للناس. فقد كانت الاكتشافات الأثرية في إيطاليا عاملاً بارزاً في تقييم «الأزمة الزراعية» للجمهورية المتأخرة.

وغالباً ما تستثير التحولات العامة في الفكر أو النمط الفكري، بتأثير من التغييرات الطارئة على الظروف السياسية أو الاجتماعية الراهنة، تأويلاتٍ جديدة لمجموعة من الأدلة معروفة تمام المعرفة. لقد كان المفكرون الألمان أول من درسوا غرس «الطابع الهمجيّ» في الجيش الرومي المُتأخر بجديَّة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

وبالنظر إلى البحث عن هوية مؤسسية للإمبراطورية الألمانية الحديثة آنذاك، ليس مستغرباً أن هؤلاء المفكرين مالوا إلى تعظيم الطبيعة الجرمانية للعصور الرومية القديمة، ونزعوا إلى العثور على جيش رومي «جرمانيّ» الطابع جداً. وكمثال آخر، يمكن تخمين أن الانقلاب على النظرة التقليدية التي مفادها أن «ثورة الرمَّاحين» كانت جزءاً من التحوُّل من نظريات الحتمية الاجتماعية للتغير التاريخيّ، وعلى رأسها الماركسية، في السبعينيات والثمانينيات.

إن التفسير الأخير المطروح هنا أكثر سخرية نوعاً ما، ألا وهو أن كل جيل يعيد كتابة التاريخ لأنه يود أن تُنشر أعماله ولأنه يبحث عن وظيفة. إن المؤرخين مُدربون على نقد تأويلات الآخرين، وهم لا يشقُّون درباً مهنياً لهم بإعادة صياغة آراء الآخرين، ولا ينبغي لهم ذلك. وهذا «تغيُّر طبيعي وساخر وداخلي المنشأ، إذ يسعى جيل جديد من المؤرخين في نهاية المطاف إلى إحراز «تقدُّم» في فهم الماضي وتفسيره بنبذ نماذج مُعلميه المُهيمِنة».

الفصل الرابع
التفكير في الحرب

بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، أعلنت القوة العظمى الوحيدة المتبقية «الحرب على الإرهاب». وترتبت على ذلك حربان «تقليديتان» إلى حد كبير أسفرتا عن «تغير في نظام الحكم» في بلدَيْن، ألا وهما أفغانستان والعراق. إن الحرب، بأشكالها المختلفة، ظاهرة تؤثر في كل البشر الآن، وهي شيء لا بد أن نحيط به علماً. ولقد بحث الفيلسوف البارز ريتشارد سورابجي Richard Sorabji، وهو يفكر في الجانب الأخلاقي للحرب التي كانت وشيكة آنذاك في العراق، آراءَ أفلاطون وأرسطو وشيشرون والمفكرين المسيحيين الأوائل، من بين آراء أخرى. وكان مفكرو العالم الكلاسيكيِّ مهتمين كثيراً بالحرب، وإن أفكارهم المتعلقة بأسباب الحرب وتبريراتها وحدودها المقبولة، وكلها موضوع هذا الفصل، لا تشي بنقاشات الماضي وتوجهاته فحسب، وإنما يمكن أن تسترشد بها النقاشات والتوجهات الحديثة.

اليونانيون القدماء

تعاطى المؤرخان اليونانيان العظيمان هيرودوت وثوقيديدِس مع الحرب بوصفها فكرةً محورية. فتناول الأول الحرب الفارسية (480-479 ق.م)، وتناول الثاني الحرب البيلوبونيزية (431-404 ق.م)، وحللا أسباب اندلاع الحربَيْن. بالنسبة إلى هيرودوت، كان الثأر وآصرة الدم والواجب القُوى المُحفزة الرئيسة في التاريخ الحربي. ولتفسير كيف جاء فُرس آسيا لمحاربة يونانيِّي أوروبا، نَسَجَ هيرودوت سلسلة من الآثام التي اقترفها الطرفان. ولمَّا قرر هيرودوت أنه لا يستطيع الحُكم على صحة تلك الأساطير أو زيفها، اختار أن يبدأ من النقطة التي زعم أن معرفته الخاصة بدأت منها.

قرَّر كرويسيوس، ملك ليديا Croesus of Lydia (في آسيا الصغرى)، أن يشن هجوماً على القوة الجديدة المتمثلة في بلاد فارس. وبالتزامن مع هزيمة كرويسيوس (547 ق.م)، خضع يونانيو مدينة إيونية Ionia (وموقعها حالياً ساحل بحر إيجة في تركيا) لحكم الدولة الفارسية.

وعندما ثار يونانيُّو إيونية (499-494 ق.م)، أعانهم أقاربهم الأثينيون. وأدت هذه الثورة إلى إرسال حملة فارسية إلى مدينة ماراثون (490 ق.م)، وأدت الهزيمة التي وقعت هناك إلى الغزو الرئيس بين عامَيْ 480-479 ق.م. ويقدِّم هيرودوت العديد من الأسباب لفعلة كرويسيوس التي استهلت سلسلة الأحداث برمتها. من بين مستويات التفسير مستوى إنساني ينطوي على رغبة كرويسيوس في شن هجمة استباقية والانتقام لسوء معاملة الفرس لصهره. والمستوى الآخر عقائدي، إذ يفي بوعدٍ مقدس بالانتقام قطعه أمام عائلة ليديا الملكيَّة. ولا يُعدُّ المستويان متناقضَيْن، وإنما متتامَّان.

وقلَّلَ ثوقيديدِس من شأن الدور المقدس في تاريخه واختزله في الصدفة أو الحظ. وفي تحليله لأسباب الحرب البيلوبونيزية، شاع عنه تمييزه بين الأسباب المُعلنة صراحةً للشكاية والسبب «الأصح»، ألا وهو تنامي القوة الأثينية والخوف الذي نجم عن ذلك في إسبرطة. ورغم اختلاف تحليلات أسباب هاتَيْن الحربَيْن تحديداً التي قدمها هيرودوت وثوقيديدِس نوعاً ما عن تلك التي يبحث عنها المؤرخون المعاصرون، فإنها تحليلات منطقية ومُفصَّلَة. ومع ذلك، لا يهتم أيٌّ منهما بعدالة الحروب التي يقصها، ولا يقدمان أيَّ نقاش صريح لأسباب الحرب عموماً.

ربما توقعنا أنْ نجد نقاشات أعمَّ للحرب في أعمال الفيلسوفَيْن أفلاطون وأرسطو. فقد انشغلا بالحرب وناقشا هوية الذين ينبغي أن يشاركوا في الحروب ومستواهم التعليمي، والموقع الاستراتيجيَّ، والأعمال الدفاعية للدولة المثالية وقيادتها وتنظيمها العسكريَيْن. وناقشا مشكلات العدالة والإنصاف داخل الحروب ذاتها، مثل المكافآت والعقوبات المفروضة على المحاربين، ومعاملة العدو.

لكنهما لم يُقَدِّما نقاشاً مطولاً أو منهجياً لعدالة الحرب ذاتها. وأقرب ما توصلا إليه هو آراؤهما الشائنة المتعلقة بالإغريق الذين حاربوا الهمج، استناداً إلى الأنماط العِرقية السائدة التي استكشفناها في الفصليْن الأول والثاني، وخُصِّص لتلك الآراء موجزٌ عام وحسب. بالنسبة إلى أفلاطون في كتاب «الجمهورية» (Republic) (الأقسام من 469b إلى 471b)، كانت الحروب التي اندلعت بين الإغريق والهمج طبيعية، في حين لم تكن الحروب التي اشتعلت بين الإغريق أنفسهم كذلك. ومن ثمَّ ينبغي التزام ضبط النفس في الحروب اللاحقة، ولكن لم ينبغ ذلك في الحروب السابقة. ولا ينبغي أن يستعبد اليونانيون بعضهم بعضاً، وسيشجعهم هذا على الانقلاب على الهمج. زَعَمَ أرسطو في كتابه «السياسة» (Politics) (الأقسام من 1333b38 إلى 1334a2) أنَّ التدريب العسكري كانت له ثلاث غايات: الحيلولة دون تحوُّل الجنود الجاري تدريبهم إلى عبيد، والفوز بمرتبة القيادة، الأمر الذي سيخدم مصالح المُنقادين (وهم الإغريق الآخرون) واستعباد الذين يستحقون أن يكونوا عبيداً (أي الهمج). وتحيلنا الغاية الأخيرة إلى افتتاحية كتاب «السياسة» التي فصَّلَ فيها أرسطو نظريته حول العبودية الطبيعية.

يمكننا أن نُكوِّن انطباعاً عمَّا يشكِّل معايير السلوك المقبول في الحروب، مستندين من جانب إلى وصفات الفلاسفة، ومن جانب آخر إلى روايات المؤرخين. لقد كان القصد أن تكون المزارات والاحتفاليات المعترف بها دولياً (مثل بطولة الألعاب الأولمبية) حصينة ولها قدسيتها. ومع ذلك، تمكنت الأسباب الذرائعية من تخطي الأيديولوجية. فالمزارات تحوي ثروات طائلة، وكثيراً ما

عُدَّت نقاطاً تكتيكية قوية. ويبدو أن الرُسُل فقط هم الذين يتمتعون بالحصانة على نحو شبه دائم، فقد كان من المُسلَّم به على نطاق واسع أنَّ أسرى الحرب يمكن التعامل معهم إمَّا بالفداء، وإمَّا بالاستعباد. وكانت مسألة قتل الأسرى أو استحيائهم محل نقاش أكبر. فبعد نهب أيِّ مدينة، كان من حق الغزاة تماماً أن يقتلوا الرجال ويستعبدوا النساء والأطفال. ولكن، كان قتل غير المحاربين محل شك من الناحية الأخلاقية.

ويبدو أن فكرة الحروب العادلة وغير العادلة شائعة في الخطاب السياسي اليوناني. فعلى سبيل المثال، أشار الخطيب المفوه إيسُقراط Isocrates على نيكوكليس Nicocles، ملك قبرص، بألا يخوض أبداً حروباً غير عادلة (رسالة إلى نيكوكليس، 24). ولكن قلما يتجلى لنا ما يضفي على الحرب صفة الإنصاف من عدمها. ثمة حوار يرجع إلى القرن الرابع شارك فيه سقراط، نُسِب في القِدَم، ربما عن طريق الخطأ، إلى أفلاطون (ألسيبيادس 1، Alcibiades) أفَادَ بأن الحرب غير المشروعة هي تلك التي تُشَنُّ دون أن يقترف العدو أيَّ جريرة.

وكانت الخديعة أو العنف أو السلب والنهب الآثامَ التي ربما شكَّلت مبرراً لحرب عادلة. وجدير بالملاحظة أن الجُرم الذي يُقترف لا ينبغي أن يكون هجوماً حقيقياً أو محتملاً، فالخداع جُرم. وفي الفكر اليوناني الكلاسيكي، على العكس من غالبية النظريات الحديثة، لا يجب أن تكون الحروب العادلة حروباً للدفاع عن النفس فقط.

لعل إخفاق الإغريق في وضع نظرية مُوسَّعَة ومنهجية حول الحرب العادلة يوحي بأنهم ظنوا أن الحرب هي الوضع الطبيعي للبشرية، ومن ثمَّ فإنها لم تكن تستدعي تنظيراً مُفصَّلاً. وفي كتاب «القوانين» لأفلاطون، يُلزم المؤلِّف أحد المتحدثين بهذا الرأي إذ يقول على لسانه: «إن ما يدعوه السواد الأعظم من الناس «سلاماً» ما هو إلا كلمة واهية، والواقع أنَّ كل دولة مدينة بطبيعتها تعيش حالة من الحرب غير المُعلنة دائماً وأبداً مع غيرها من الدول المدن» (626a). ولكن، يُقحم أفلاطون هذه الحجة في الحوار لتفنيدها وهدمها. فالشخص الذي ينطق بها يسخر من الغالبية العظمى من الناس لتبنيهم الرأي المعاكس (625e).

إن افتقار الإغريق إلى التنظير المُوَسَّع حول مسألة عدالة الحرب ربما لم ينبع من إيمانهم بأن الحرب هي الوضع الطبيعي للأمور. وعوضاً عن ذلك، نجد أن الحاجة لإيديولوجية مُفصَّلَة واهنةٌ، فقد اعتُقد أن أسباب الحرب بديهية ومُتفق عليها على نطاق واسع، وكانت تُعدُّ أصلاً كامناً في البشر. ولقد اتفق السواد الأعظم من المؤلفين اليونانيين على أنَّ أسباب الحرب هي: الرغبة في التربح، والسعي وراء الأمجاد، والدفاع عن النفس. مرجعُ الأمر كُلِّه الأمنُ، والمجد، والمنفعة الشخصية، هكذا قال ثوقيديدِس على لسان الأثينيين (1.76.2: وألقِ عزيزي القارئ نظرةً مجدداً على الفقرة المقتبسة من كتاب «السياسة» لأرسطو أعلاه). ولذلك، لم تكن أسباب الحروب إشكالية بالنسبة إلى اليونانيين. وبالقدر ذاته، كان الداعي إلى حربٍ عادلة عادةً في المتناول، إذ لم تكن هناك مُهلة محددة للإشارة إلى الجرائم المُقترفة، وكانت جميع المدن اليونانية متواشجة في شبكات من القرابة والأنساب والتحالفات. لقد اقترف العدو، أو حلفاؤه، في مرحلة ما جُرماً في حق شعبك أو في حق حلفاء شعبك. ولم يكن هذا الزعم لينطوي على أيِّ قدر من النفاق من جانب الذين يثيرونه.

الروم الجمهوريون

عندما نتعاطى مع رُوم الجمهورية، يبدو أننا نجد فكراً منهجياً ورسمياً يتعلق بـ «الحرب العادلة». ففي خضم عملية تشكيل إمبراطورية مترامية الأطراف ومستقرة، ولاسيما بعد غزو الروم للقطاع الشرقي من اليونان في القرن الثاني قبل الميلاد، بدأ الروم يشعرون بالحاجة إلى تبرير امتلاكهم هذه السلطة، ومن ثمَّ تبرير الحروب التي انتصروا فيها. وينبع أفضل دليل لدينا من أعمال متفرقة لشيشرون، ولكن كما سيتجلى لنا لاحقاً، ربما لم تكن الآراء المطروحة لافتةً.

في الجزء الثالث من الجمهورية، كتب شيشرون أنَّ الدولة المثالية لا ينبغي لها أن تشن حرباً إلا حفاظاً على وعودها وولاءاتها (fides) أو ضماناً لسلامها وأمنها (سالوس salus، 3.34). وفي فقرة أخرى، قيل إن الحرب العادلة لا بد أن يكون لها داعٍ: إمَّا الثأر، وإمَّا الدفاع (3.35). لا ينبغي تفسير هاتَيْن الفقرتَيْن على أنهما تبرران حروب الدِّفاع عن النفس أو الدفاع عن الحلفاء فقط. فهذا النوع من الحروب موجود ضمناً، لكن هذه التصريحات توحي بأكثر من ذلك بكثير، فقد انطوت كلمة «fides» على التزام من جانب روما للدفاع عن حلفائها. لكن المفهوم يسري في الاتجاهَيْن؛ إذ لا بد أن يحافظ الحلفاء أيضاً على ولائهم ووعودهم لروما. فمنذ القرن الثاني قبل الميلاد فصاعداً، عدَّ الروم كل حلفائهم تابعين لهم، ويجوز أن نُطلق عليهم اسم «الدول التابعة»، وأيُّ أُناس لهم تعاملات دبلوماسية مع روما يجوز تصنيفهم ضمن هذه الفئة. وإخفاق أيِّ حليف في الامتثال لرغبات روما يمثل انتهاكاً للولاء، ومن ثمَّ يصبح «الثأر» الرومي حرباً عادلة. ولم ينتهِ الأمر عند هذه المرحلة، فأيُّ ضرر يلحق بروما، ولا أعني هجوماً عليها أو على حلفائها وحسب، يمكن أن يكون مدعاةً للثأر. ويمكن أن يُعدَّ الموقف العدائي، أو حتى وجود قوة أجنبية وحسب، تهديداً لسلام روما، وبالتبعية يمكن أن يُعدَّ الاعتداء الرومي حرباً عادلة.

وفي فقرة أخرى محفوظة من كتاب «الجمهورية»، قال شيشرون إنه ما من حرب تتصف بالعدالة ما لم تُعلن (denuntio) ويسبقها إنذار رسمي (indictio) ومطالبة بالتعويضات (rerum repetitio). وفي هذا السياق، تخص الإشارة طقوس هيئة القساوسة الروم الذين يُعرفون باسم «Fetiales» وكانوا مسؤولين عن إعلان الحرب. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع الجزم بتوقيت تأسيس تلك الهيئة أو مدى استمرار وجودها، فقد كشفت عن المواقف الرومية.

لقد آمن الروم بأن الطقوس في شكلها الأصلي تتكون من ثلاث مراحل، يسردها شيشرون بترتيب زمني عكسي، إذ تأتي المطالبة بالتعويضات أولاً. وتوحي الطقوس بأن الطرف الآخر اقترف جرماً بحق روما (وإلا، فكيف يمكن المطالبة بالتعويضات؟)، لكن ذلك لا يعني بالضرورة وقوع هجوم على روما أو على حليف لها. فضلاً عن ذلك، فإن روما هي التي تحدد مستوى التعويضات المزمع دفعها، ويمكن تحديدها بمستوى من المعلوم يقيناً أن الطرف الآخر سيعجز عن الوفاء به. وبدلاً من عَدِّ هذه الطقوس انحرافاً كبيراً عن أسلوب شن الحرب العدواني، ينبغي النظر إليها

بوصفها طريقة رسمية لإحالة النزاع إلى محكمة الآلهة. وجاء حكم الآلهة بإعلان الحرب. وإذا كان النصر لروما، فالحرب عادلة. وبعد النصر، غالباً ما كانت روما تُجبر الخصم المهزوم على تعويضها عن تكاليف الحرب. وبذلك يقر الطرف الآخر بأن الداعي الذي دعا روما إلى شن الحرب كان عادلاً.

الحرب الأهلية

لقد كان التهديد باندلاع حرب أهلية موجوداً دائماً في العالم الكلاسيكي، وخلق مشكلات إيديولوجية جسيمة. وكما قال هيرودوت (7.102.1)، كانت اليونان والفقر دائماً شقيقَيْن بالتبني. والتوزيع غير العادل للموارد المحدودة، وما ترتب على ذلك من تقسيمٍ للسكان في جميع المدن اليونانية إلى عدد كبير من «الفقراء» وفئة أصغر بكثير من «الأثرياء»، اقتضى نشأة احتمالات وقوع ما أسماه اليونانيون «stasis» (أي النزاع الأهلي أو الحرب الأهلية). وخلال القرن الخامس قبل الميلاد، اصطبغت الحرب الأهلية بصبغةٍ سياسية، إذ أُقحمت في النزاع بين مَن يؤيدون حكومة الكثرة (الديمقراطية) ومَن كانوا يرغبون في حكم القِلَّة (حكم الأقلية). ومنذ الحرب البيلوبونيزية (431-404 ق.م) فصاعداً، لمسنا استعداداً متزايداً لدى الساسة داخل المدن إلى الدعوة للتدخل الأجنبي في فترات النزاعات الأهلية، ولدى القوى الخارجية للاستجابة لتلك الدعوات. ومالت أثينا، ومن بعدها ثيفا، إلى موالاة الديمقراطيين، في حين أيدت إسبرطة، ومن بعدها مقدونيا، بطبيعة الحال دعاة حكم الأقلية.

إن أفضل دليل لدينا على اندلاع حرب أهلية في مدينة يونانية يُستخلص من رواية ثوقيديدِس (3.69-85) للأحداث التي وقعت في مدينة كوركيرا (كورفو) عام 427 ق.م. ولقد تصاعدت حدَّة الحرب الأهلية من نزاعات في قاعات المحاكم. وفي هذه الحالة، كان أنصار حكم الأقلية هم الذين لجأوا إلى العنف، لكن الديمقراطيين هم الذين ارتكبوا أسوأ الأعمال الوحشية.

خَيَّمَ شبح الموت بكل أشكاله. وكما يحدث في مثل هذه المواقف، تخطى الناس كل الحدود، فقتلَ الآباءُ أبناءهم، وجُرَّ الرجال جرَّاً من المعابد، أو نُحرت أعناقهم على كل مذبح؛ وبعضهم عُلِّق حقيقةً على الجُدران داخل معبد ديونيسوس وماتوا هناك.

(ثوقيديدِس 3.81، ترجمة ريكس وارنر)

خَطَّ ثوقيديدِس هذه الأحداث باستفاضة لا لأهميتها بحد ذاتها، وإنما لأن الحرب الأهلية التي وقعت في مدينة كوركيرا كانت أول اضطراب كبير يحدث في أثناء الحرب البيلوبونيزية، ومن ثَمَّ

يستطيع أنْ يستخدمها ذريعةً ليُعلِّق عليها أفكاره العامة حول الظاهرة. وكما تُظهر لنا الفقرة المُقتبسة أعلاه نوعاً ما، ظن ثوقيديدِس أنَّ الحرب الأهلية لم تنطوِ على انهيار سياسي فحسب، وإنما انطوت أيضاً على تداعٍ اجتماعي وديني وأخلاقي، وحتى اللغة ذاتها تَبَدَّلَت. فعلى سبيل المثال، أمسى العدوان الغاشم يُسمَّى شجاعة، واستحضر قادة الطوائف المتخاصمة دوافع تبدو جديرة بالإعجاب، مثل المساواة للجميع أو الحكومة الرشيدة، لكن هذه الدوافع لم تكن سوى ستار للانتهازية. ودُوِنَت هذه القصة لتكون دعامةً لواحدة من أفكار ثوقيديدِس الرئيسة، ألا وهي أنَّ الحرب صبغت الشخصية اليونانية بصبغة وحشية. وعَدَّ ثوقيديدِس أنَّ هذه الحرب الأهلية يمكن أن تحدث دائماً، في حين ظلت طبيعة البشر بلا تغيُّر، لكنها ستكون أقل حدةً في فترات السلام الخارجي لأن «الحرب مُعلِّم عنيف»، مثلما جاء على لسانه.

ستبدو الأمور مختلفة كل الاختلاف لو كنتَ مشاركاً في حرب أهلية. على الرغم من أن أسطورة تأسيس روما انطوت على تقاتُل الأشقاء، حيث قتل رومولوس Romulus شقيقه ريموس Remus، وبعد أنْ استحوذت على المخيلة الرومية الصراعاتُ الداخلية التي دمَّرَت الشكل الجمهوري للحرب الأهلية الحكومية، كانت روما خلال السواد الأعظم من تاريخها أفضل حالاً نوعاً ما من المدن اليونانية في تفادي الحرب الأهلية، وربما يرجع ذلك جزئياً إلى نزعتها العسكرية التي لا هوادة فيها تجاه القوى الأخرى.

ومع ذلك، كانت الحرب الأهلية في بعض الأوقات تهديداً حقيقياً وإيديولوجياً. فقد شهد العامان 63 و62 قبل الميلاد «المؤامرة الكاتيلينية» التي انتهت بصراعٍ مُسلح. ولدينا وثائق تتناول هذه القصة بشكل أفضل من غالبية الروايات، ولكن من قبيل المفارقة أنَّ هذا يجعل التقييم أصعب بكثير. فمصدرنا الأساسي هو شيشرون. ولقد ادعى لنفسه دورَ المُعارِض الرئيس للمؤامرة. وحتى قبل بداية الصراع المُسلح، وصف شيشرون المؤامرة بـ «الحرب» في كلماته التي أوردها في خطبته «في مواجهة كاتيلينا» (In Catilinam). وصُوِّرَت «الحرب» ضد كاتيلينا بالحرب ضد الرفاهية والجنون والجريمة (2.11). لقد كانت حرباً للفضيلة في مواجهة الرذيلة (2.25). وكانت الحرب الأهلية الأخرى بشعة، لكنها لم تكن تُقارَن بتلك الحرب. ففي الحروب الأخرى، كان الهدف تغيير الحكومة. أمَّا هنا، فالنية كانت تدمير الدولة (3.24-25). فلم يحاول المتآمرون تجنيد الهمج أبناء بلاد الغال وإقحامهم في المؤامرة فحسب، وإنما أمسى المتآمرون أنفسهم أشبه بالهمج، فشاعت عنهم الجرأة الإجرامية (audacia) والجرائم الخبيثة (scelus) وثورات الغضب العارمة (1.31 ،furor، إلخ). وفي الحرب الأهلية، كان من الضروري إثبات أنَّ خصومك تنازلوا عن حق معاملتهم معاملةَ أقرانهم من المواطنين. وبدلاً من ذلك، لمَّا كانوا أشبه بالهمج أو حتى أسوأ منهم (3.25)، فقد استحقوا وصْمَهم بأعداء الدولة (hostes). ولكي تحارب رومياً آخر، سينفعك إن استطعت أن تثبت أنه ليس رومياً بالمرة، وأن تنزع عنه هذا الانتماء كلياً!

بعد عشرين عاماً تقريباً من المؤامرة، كتب المؤرخ اللاتينيُّ سالوست Sallust دراستَيْن متخصصتَيْن لبيان التدهور الأخلاقي لروما: «حرب كاتيلينا» (Bellum Catilinae) و«حرب يوغرطة» (Bellum Iugurthinum). واقتداءً بأسلوب ثوقيديدِس، أدان سالوست في «حرب كاتيلينا» الطريقة التي أَلْبَسَ بها القادة السياسيون مصالحهم لِباس المصلحة العامة (38). ولكن،

بالنسبة إلى سالوست، لم تكن الحرب الخارجية هي التي شجَّعَت على اندلاع الحرب الأهلية، وإنما غيابها عن مسرح الأحداث. فقد أفضى السلام والرخاء إلى شهوةٍ للمال أولاً، وتبعتها شهوة للسلطة (10). وكان هذا هو المفهوم الرومي تحديداً للحاجة إلى عدوّ يُهاب. وكما أعرب سالوست في «حرب يوغرطة»، لم يكن قبل الدمار الذي لحق بقرطاج «أيُّ نزاع بين المواطنين، لا على المجد ولا على السلطة: وحافظ الخوف من العدو [metus hostilis] على الأخلاق الحميدة للدولة» (41).

اليونانيون تحت مظلة روما

لقد كانت ظروف الفلاسفة اليونانيين تحت مظلة الحقبة الأولى للإمبراطورية الرومية مختلفة كلياً عن ظروفهم في العصور الأسبق. فهم حينئذ يخضعون لحاكم مستبد غير يوناني، ألا وهو الإمبراطور الرومي. وكانت هذه الحكومة المطلقة مُستقرة؛ فيجوز عزل الأباطرة، ولكن لم يكن هناك احتمال واقعي بتغيير النظام. وبسطت تلك الحكومة سيطرتها على العالم أجمع، أو على الأقل القسم الأكبر منه، وفيما خلا الحرب الأهلية العارضة، شَنَّت حروبها في بقاع نائية، إذ أدارها جنود محترفون. ولقد رأينا بالفعل أثراً وحيداً من آثار تلك الظروف المتبدلة. وبينما كَنَّ أفلاطون وأرسطو كل الاحترام والتوقير للمحاربين، نظر إليهم الفلاسفة اليونانيون الخاضعون للإمبراطورية الرومية الأولى عادةً بمزيج من الكراهية والازدراء والخوف. وتبدلت الآراء المتعلقة بالحرب ذاتها أيضاً. وسنبحث رأيَيْن من تلك الآراء هنا.

لقد أدان الفلاسفة القدماء الحروب الساعية لتحقيق مجدٍ أو تحصيل مكسب، لكنهم لم يدينوا الحروب التي غايتها الدفاع عن النفس، ومن ثمَّ لم يسعوا قط إلى إنكار وجود الحرب العادلة. وتحت مظلة عهد زعامة الإمبراطورية الرومية، واصل الفلاسفة انتقادهم للحروب التي غايتها المنفعة الذاتية أو الطموحات الشخصية. لكنهم جاوزوا حينها المدى. فقد أنكر ديو كريسوستوم (Or. 80.3) وإبيكتيتوس (4.1.171-2) شرعية الحروب التي تُخاض لتحقيق الحرية السياسية، الأمر الذي ينفي بالمنطق ذاته حروب الدفاع عن النفس، ويلقي بظلال الشك على وجاهة أيّ حرب على الإطلاق. ويمكن أن نسوق عدة أسباب لهذا الميل للمسالمة والمهادنة. قد يُعدُّ رفض شرعية حروب الدفاع عن النفس أسهل لو لم يكن هناك احتمال لخوض واحدة من تلك الحروب. ولقد كان هؤلاء الرجال أيضاً يَلزمون الفلسفة الرواقية، وهي المدرسة الفلسفية السائدة في عهد الزعامة. بالنسبة إلى الرواقيِّ، ما لا يؤثر على الطبيعة الداخلية للإنسان لا يمت له بصلة. ومن ثمَّ فإن الحرب التي عدُّوها إخلالاً بالانسجام الكونيِّ ينجم عن شرور الإنسان أو فساد الحكم (والاثنان يعنيان الشيء ذاته إلى حد كبير)، وفظائعها، مثل الموت والاستعباد، لا علاقة لها بالإنسان الخيِّر.

واحتج إبيكتيتوس بأن الموت يستقر خارج الغاية الأخلاقية (3.3.15)، وكتب ديو كريسوستوم خطبتَيْن (15 و16) لإثبات أن «الجدران الحجرية لا تصنع سجناً».

وبالنظر إلى احتجاجاتهم الميتافيزيقية القوية على الحرب، من المدهش أن نجد أن واحداً من هؤلاء الرواقيين، وأعني ديو كريسوستوم في خطبته الثانية «عن القربى»، استطاع أن ينتج تبريراً شاملاً للحرب. وفيما يلي حجته تفصيلاً: «يحكم الملك (أو الإمبراطور) لأنه يتمتع بالفضيلة المطلقة (arête). وأهم عنصر في هذا السياق هو حب البشر (philanthropia) الذي تجلّى في منح رعاياه مزايا. ومن ثمَّ لو صادف الملك مستبداً، فعليه أن يقهره كي يستطيع مستقبلاً أن يمنح مزايا للرعايا السابقين للمستبد. وبالمثل، ينبغي للملك أن يحارب أيَّ ملك آخر. وسيثبت أن المنتصر يتمتع بفضيلة أعظم، ومن ثمَّ سيخلع على رعايا المهزوم السابقين مزايا أعظم». وعلى الرغم من أن هذه الحجة معيبة كما هو واضح، إذ تتخيل أنَّ الحروب تنتهي بقتال وحيد بين الحكام، وأن جميع الحروب ستنتهي بالغزو الكامل، قُدِّرَ لهذه النظرية أن يكون لها تاريخ طويل وخطير.

المسيحيون تحت حكم الروم

لطالما كان لدى المسيحيين مشكلة مع الحرب. فكيف يمكن التوفيق بين العهد القديم المتعطش للدماء والعهد الجديد النَزَّاع للسلم؟ وكما رأينا من قبل، مالَ أوائل المسيحيين، أمثال ترتليان وأوريجانوس إلى مبدأ السلام، ففسَّروا «عقاب» الرب الذي لا ينتهي وشعبه المختار في العهد القديم تفسيرات مجازية. ولمَّا كانوا لا يرغبون في معاداة السلطات الوثنية، فقد ادعوا-رغم إحجامهم عن القتال في حروب زائلة- أن صلواتهم وتضرعاتهم لسلامة الإمبراطورية جعلت منهم جيشاً روحانياً. لكن لا عجب أن هذا الادعاء لم يُقنع الوثنيين. لقد كانت صلوات المسيحيين إلى ربهم الواحد، ومن ثمَّ ليس لبقية الآلهة، هي التي هددت السلام المُقدَّس (Pax Deorum) الذي استقرت عليه دعائم الإمبراطورية. وبالتزامن مع اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية (والذي حكمَ خلال الفترة بين عامَيْ 307 و337م)، تغيَّر كل شيء. لم يكن مبدأ السلام خياراً واقعياً لعقيدة إمبراطورية.

على الرغم من أنَّ مدى تأثير آراء القديس أوغسطينوس Saint Augustine، أسقف هيبو (395-430م)، على معاصريه المباشرين غير مؤكد، فقد كان أوغسطينوس أكثر الكُتّاب تأثيراً في تطور الفكر الغربي القديم المتأخر والقروسطيِّ المتعلق بالحروب. ولمَّا كان أوغسطينوس لا يُجيد اليونانية، فإنه لم يعتمد مباشرةً على أعمال الفلاسفة اليونانيين الوثنيين أمثال أفلاطون وأرسطو. لكنه كان متقناً للاتينية، فاستعان بأعمال شيشرون. ومع أن أوغسطينوس، على حد علمنا، لم ينتج نقاشاً مطولاً ومنهجياً يتناول الحروب، فقد حاول في فقرات متفرقة في العديد من أعماله أن يثبت أنَّ من المقبول مشاركة المسيحيين في الحروب. لقد قَبِلَ من شيشرون والتقليد الرومي أنَّ الحرب العادلة لا بد أن تُشَن استجابة لجُرم اقترفه الطرف الآخر (أسئلة حول الأسفار السبعة 6.10). ومن تاريخ العهد القديم، استخرج أدلة على أن الجُرم يجب ألا يكون هجوماً (.ib 4.44). لم تكن الحرب العادلة بالنسبة لهذا المسيحي، وكذلك بالنسبة إلى الوثنيين، قاصرةً على حروب الدفاع عن النفس.

لقد كان في فكر أوغسطينوس عنصران مسيحيان بشكل متمايز، أولهما تودده إلى السلطة. فعلى الرغم من أن قتل المدني ليس مقبولاً، ولو كان دفاعاً عن النفس، فإن قتل الجندي الذي لديه تصريح بالقتل غيرَه من الجنود مقبول (خطاب رقم 47.5).

وبما أن الرجل الصالح الذي يصادف أنه يخدم سيداً آثماً يمكنه عن حقٍ حماية السلام العام بالانخراط في المعركة نزولاً على أمر سيده إذ يتلقى أمراً لا يخالف قانون الرب أو يداخله فيه شك (وفي هذه الحالة ربما أن الأمر الآثم يورِّط السيد في ذنب، في حين يجعله الدور الثانوي للجندي بريئاً)، فما أكثر براءة مَن يشاركون في حرب من طرف الذي يحارب بأمر الرب الذي يستحيل أن يأمر بِشَرٍ على الإطلاق، كما يعلم كل الذين يخدمونه.

(رداً على فاوست 22.75، ترجمة إل جيه سويفت)

وهنا، يُحال جزء (وجزء واحد فقط) من المسؤولية إلى الحاكم. والمغزى الضمني هو أن الحاكم الفاجر لو أصدر أمراً يخالف شريعة الرب بوضوح، فإن الجندي الذي يطيع هذا الأمر يكون آثماً.

لم يكن للاحتكام إلى رأي السلطة هذا، النابع من التقسيم المسيحي للسلطة الدنيوية والروحانية، والحروب التي شنها الغزاة الهمج وعاصرها أوغسطينوس، أيُّ صدى في الفكر الوثني الأسبق المعني بالحروب.

والعنصر الثاني المميز في فكر أوغسطينوس هو التمييز بين النزعة الداخلية والفعل الخارجي. إنَّ الحالة المزاجية للمشاركين هي المهمة: «ينبغي أن تكون الضرورة، لا الرغبة، هي التي تُدمر العدو في أرض المعركة» (خطاب رقم 189.6). في هذه الفقرة، يُجِيز الرب الحرب لإرساء السلام، وفي فقرة أخرى يُعلن الرب الحرب لتصحيح أخلاق البشر (مدينة الرب 1.1)، وفي فقرة ثالثة نجد أن إيقاف الحروب بكلمةٍ مَجْدٌ أعظم من تدمير الأعداء بالسيف (خطاب رقم 229.2). ومع ذلك، إذا خيضت الحروب بالعقلية المسيحية السليمة، تكاد تكون المشاركة فيها واجباً لمحاربة الآخرين تحقيقاً لمصلحتهم الخاصة.

لو راعت الدولة مبادئ الدين المسيحي وتعاليمه، فحتى حروبها لن تُدار من دون المخطط الخيِّر الذي مفاده أنه بعد قهر الأمم المقاومة، سيكون من الأسهل وضع شروط للتمتع بسلامٍ بآصرة التقوى والعدالة المتبادلة.

(خطاب رقم 138.14)

الفصل الخامس
الاســـتراتيجية

استراتيجيات أم تخيلات؟

تقدِّم لنا الخطط العظيمة غير المنفذة، المنسوبة بحسب المصادر القديمة إلى عددٍ من الزعماء والشعوب، بعضاً من أكثر معلوماتنا إثارةً عن استراتيجيات العالم القديم. وبمطالعة مجموعة منتقاة من هذه القصص، على الرغم من تجاهل العلماء المعاصرين لها أو نفيها بالأساس، يتجلى لنا الكثير عن الطريقة التي نظرت بها الحضارات الكلاسيكية إلى العالم من المنظور العسكري.

في عام 415 ق.م، أرسل الأثينيون في أثناء الحرب البيلوبونيزية حملةً إلى صقلية. وزعم كاتب السير الذاتية بلوتارك (50 إلى 120م تقريباً) أنَّ صقلية كانت بالنسبة إلى السياسي الأثيني ألسيبيادس مجرد بداية لسلسلة من الغزوات التي شملت قرطاج وليبيا وإيطاليا ومن بعدها بيلوبونيز. وبحسب وصف بلوتارك، استحوذت هذه الخطة على عقول الصغار والكبار في أثينا؛ فقد جلس الناس في مدارس المصارعة وغيرها من الأماكن العامة، وراحوا يرسمون على الرمال مخططاً لصقلية ومواقع قرطاج وليبيا (ألسيبيادس 17). وقدَّم المؤرخ المعاصر ثوقيديدس ترتيباً مختلفاً للحملة المُرْتَقَبَة في خطاب على لسان ألسيبيادس بعد انشقاقه وانضمامه إلى الإسبرطيين: أولاً صقلية وبعدها الأثينيون الإيطاليون، ومن بعدهم القرطاجيون، وأخيراً بيلوبونيز (6.90).

وبعد وفاة الإسكندر الأكبر، صدرت مذكرة قيل إنها تحوي خططه الخاصة بالمزيد من الغزوات: أولاً القرطاجيون، ثم الشعوب المحاذية لسواحل ليبيا وإسبانيا، ثم العودة إلى صقلية (ديودور الصقلي Diodorus 18.4). وبحسب شرح أحد المصادر الأخرى للمذكرة (كورتيوس روفوس Curtius Rufus 10.1.17-9)، كان الإسكندر يهدف إلى إلحاق الهزيمة بالقرطاجيين، ثم عبور مملكة نوميديا Numidia (شمال إفريقيا)، والانطلاق إلى إسبانيا، ثم الالتفاف حول جبال الألب والساحل الإيطالي، ومن ثم العودة إلى إبيروس (ألبانيا). وقال مصدر ثالث: إن بعض الكُتَّاب طرحوا خطةً أكثر طموحاً تتمثل في الإبحار حول إفريقيا ودخول البحر الأبيض المتوسط عبر أعمدة هرقل (الجبال المتاخمة لمضيق جبل طارق)، ومن ثم ضَم ليبيا وقرطاج إلى إمبراطوريته (آريانوس Arrian 7.1.1-3).

وعندما اغتيل يوليوس قيصر عام 44 ق.م، كان على وشك مغادرة روما لشن حملة في الشرق على الإمبراطورية الفرثية التي كانت تتمركز في العراق وإيران الحديثيْن. وينسب بلوتارك إلى قيصر أحد المخططات الضخمة: بعد هزيمة الفرثيين، كان ينوي عبور جبال القوقاز والزحف حول البحر الأسود وسحق السكوثيين (شعوب شمال الدانوب) والجِرمانيين، ومن ثم العودة إلى إيطاليا عن طريق بلاد الغال (يوليوس قيصر 58.3).

من الممكن أن ننظر إلى طموحات الهمج باعتبارها بعيدة المنال. فعندما سيق ميثريداتس Mithridates ملك البنطس (في آسيا الصغرى) إلى شبه جزيرة القرم عام 63 ق.م، اعتُقِدَ أنه كان يخطط للزحف حول البحر الأسود وصولاً إلى نهر الدانوب، وغزو إيطاليا بمساعدة بعض الغاليين عن طريق عبور جبال الألب (كاسيوس ديو Cassius Dio 37.11.1؛ أبيان Appian، حروب ميثريداتس 102، 109). وقد كان رجال الإمبراطورية الرومية يظنون أن أردشير، الملك الأول للفرس الساسانيين، الذي أطاح بالفرثيين في العقد الثالث من المئوية الثانية بعد الميلاد، سعى وراء جميع الأراضي التي استحوذت عليها الإمبراطورية الفارسية الأخمينية في فترة من الفترات (550-330 ق.م). لذا كان الساسانيون يمثلون تهديداً للأراضي الرومية في مصر وسوريا وآسيا الصغرى (كاسيوس ديو 80.4.1؛ هيروديان Herodian 6.2.2).

إن المؤلفين الذين أمدونا بهذه القصص قد استخدموها أمثلةً لطموحات الشخصيات التي يحكون عنها. وقد تُروَى القصة مثالاً على الطموح الإيجابي المتمثل في سعي عقلية عظيمة إلى تحقيق المجد (مثل رواية آريانوس لقصة الإسكندر)، أو مثالاً للطموح السلبي المتمثل في التفاخر المبالغ فيه (مثل رواية كورتيوس روفوس لقصة الإسكندر). وقد كانت الرواية السلبية دائماً من نصيب الهمج، إذ كانت طبيعتهم تدفع إلى الاعتقاد بميلهم إلى مثل هذه الرغبات غير العقلانية.

ينزع الدارسون المعاصرون إلى التقليل من قيمة تلك الروايات، فإمَّا «يسوِّغونها» وصولاً إلى نطاق «معقول» وإمَّا ينكرونها بوصفها أماني معاصرة أو اختراعاً لاحقاً. قد يكون الدارسون المعاصرون متسرعين في رفض صحة هذه القصص. فلو لم تكن خطط حنبعل للزحف من إسبانيا إلى إيطاليا عابراً جبال البرانس وجبال الألب، وفتوحات الإسكندر من اليونان إلى الهند، قد تحققت بالفعل، لكانوا قد عدوها مجرد أحلام زائفة.

لنتناول أحد هذه الأمثلة بمزيد من التركيز، ألا وهو طموحات الأثينيين في الغرب. ومن الممكن عد الدليل الذي أورده بلوتارك مأخوذاً عن ثوقيديدس، وحينها لن تكون له قيمة قائمة بذاتها. ومن الممكن أن تُستخدم نصوص من رواية ثوقيديدس لإثبات صحة الخطة أو دحضها. ويتضح هذا الأمر وضوح الشمس من خطابٍ يسعى به ألسيبيادس إلى إقناع الإسبرطيين بإعادة شن الحرب (6.90). وهنا كانت للجنرال ألسيبيادس أسبابه الكافية في المبالغة. ومن الواضح أن فكرة «الخطة الكُبرى» لم تُطرح في الاجتماعات الأثينية التي ناقشت موضوع إرسال الحملة (على سبيل المثال، 6.16-18) ولا في اجتماع الاستراتيجية الذي عقده الجنرالات عند وصولهم إلى صقلية (6.48). ومن صقلية، استطاع الأثينيون طلب الدعم من القرطاجيين (6.88). وعلى الجانب الآخر، كان ثوقيديدس يرى أن الأثينيين يرغبون في الاستحواذ على صقلية كاملةً (6.6؛ انظر رقم 6.1 للمقارِنة) وأن ألسيبيادس يستهدف قرطاج (6.15). لذا، فإن أيَّ محاولة للاستيلاء على صقلية

كاملةً ستتسبب في نشوب نزاع مع قرطاج التي كانت تتحكم في مدن على الجزيرة. ويشير حصول الأثينيين على دعم الإتروسكانيين في شمال إيطاليا (6.103) إلى تأثيرهم الكبير في غرب البحر المتوسط. وفي خطاب ألقاه ثوقيديدس على أحد السياسيين بمدينة سَرَقُوسَة الصقلية، قال إن القرطاجيين يشعرون بالقلق الدائم من مهاجمة الأثينيين لبلادهم في يوم من الأيام (6.34). ولقد طُرحت إمكانية هجوم الأثينيين على قرطاج بالفعل في رواية كوميدية عام 424 ق.م، لكنها احتوت على بعض المبالغات الكوميدية (أريستوفان، مسرحية «الفرسان» 1302-5). لم تكن الفكرة سياسة مُعترفاً بها صراحةً، لكنها كانت على وشك أن تتحقق على أرض الواقع. فلو كانت الحملة الأثينية قد حققت مزيداً من النجاح في صقلية، لبدت «الخطة الكبرى» جذابة.

من الممكن أن تبدو الخطط الكبرى أكثر «عقلانية» وقابلية للتنفيذ إذا ما وقفنا على الصورة التي تخيلها الإغريق والروم للعالم. ففي كل مخطط من المخططات الموضحة أعلاه، يبرز عدد من السمات الجغرافية، ألا وهي الخطوط الساحلية، والأنهار، وسلاسل الجبال. وتشير تلك السمات إلى الطريقة التي كان القدماء ينظرون بها إلى الجغرافيا. فنظراً إلى افتقارهم لخرائط طبوغرافية دقيقة، لم يكونوا يفكرون، كما نفكر نحن، بأسلوب تقسيمات الأراضي الإقليمية، وهو ما يسمى «التفكير الطبوغرافي» أو الخرائطي، وإنما بأسلوب خطيٍّ، مثل خطوط السواحل والأنهار وسلاسل الجبال، وهو ما يسمى «التفكير المساريَّ» المعنيّ بالطرق والمسارات. ولقد أفرز هذا «التفكير المساريُّ» أدلة البحَّارة المكتوبة والمصورة، وتحوي قوائمَ للموانئ والمعالم لأغراض الإبحار الساحلي، ومسارات السفر التي تشتمل على قوائم للمدن وأماكن التوقف بطول الطرق والمسارات البرية. ويبدو أن هذه الأدلة هي التي استُخدمت في التخطيط الاستراتيجي. وكانت أدلة البحَّارة ومسارات السفر عملية ومنفصلة عن الواقع الطوبوغرافيِّ، شأنها كشأن خريطة مترو لندن.

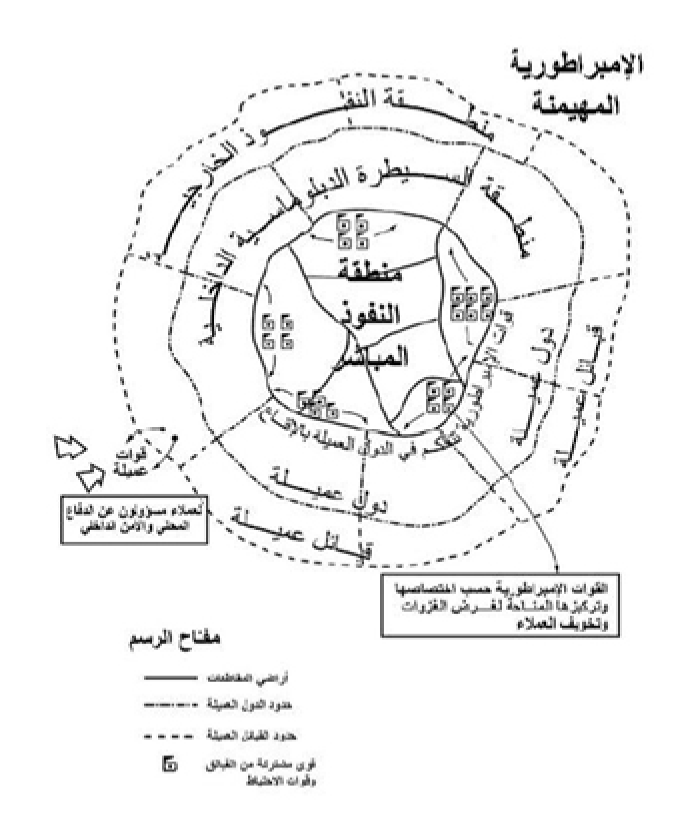
وبالتأكيد، حاول عدد من الجغرافيين القدماء وضع مخططات تصف العالم طبوغرافياً بشكل دقيق. وهناك ثلاث نقاط جديرة بالملاحظة هنا بخصوص تلك المخططات. أولاً، على الرغم من الأهمية الكبيرة التي تمتعت بها هذه الأعمال في بدايات أوروبا الحديثة أثناء «عصر الاستكشاف»، فقد ظلت معلوماتٍ متخصصةً لا تحظى بأثر واسع النطاق في العالم الكلاسيكي. ثانياً، إن تقديراتهم «للعالم المأهول بالسكان» (ويُطلق عليه في اليونانية «العالم المأهول بأسره» oikoumene، وفي اللاتينية «العالم كله» orbis terrarum)، وبتعبير آخر، الجزء المعروف من العالم وما يحيط به من أماكن هي في الأرجح أسطورية، كانت تقديرات محدودة للغاية. قال الجغرافي اليوناني سترابو Strabo إن «طول» العالم المأهول يقدَّر بنحو 8046 ميلاً تقريباً (من الشرق إلى الغرب) و«عرضه» نصف ذلك تقريباً (من الشمال إلى الجنوب). ثالثاً، وبما يتسق مع سترابو، كان يُعتقد أن العالم المأهول بيضوي الشكل يمتد من الشرق إلى الغرب. وكان يُعتقد أن المنطقة الموجودة شمال نهر الدانوب من أوروبا أصغر بكثير مما هي عليه في الواقع (الأمر الذي يجعل الخطط المنسوبة إلى ميثريداتس ويوليوس قيصر أقل هولاً لمعاصريهما مما تبدو عليه بالنسبة إلينا)، كما جرى تقليص حجم غرب إفريقيا وأوروبا بدرجة كبيرة (مع ما ترتب على ذلك من آثار على مواقف العالم القديم تجاه «خطط» الأثينيين والإسكندر).

كانت للجغرافيا أهمية ثانوية إلى حد ما في التفكير الاستراتيجي الكلاسيكي، إذ انصب تفكير الإغريق والروم على غزو الشعوب لا الأماكن. وكانت الشعوب التي تطلعوا إلى غزوها همجية، وكما رأينا في الفصليْن الأول والثاني، كان الهمج بطبيعتهم منحطين. إن خطط الغزو الكبرى في عالم صغير تسكنه شعوب أقل شأناً ممن يمكن الوصول إليهم بتتبع أو عبور أنهار أو سواحل أو جبال بعينها قد تبدو أكثر قابلية للتحقق بكثير في عيون القدماء مما هي الحال بالنسبة إلينا.

«استراتيجية عُظمى» في نظر الإمبراطورية الرومية

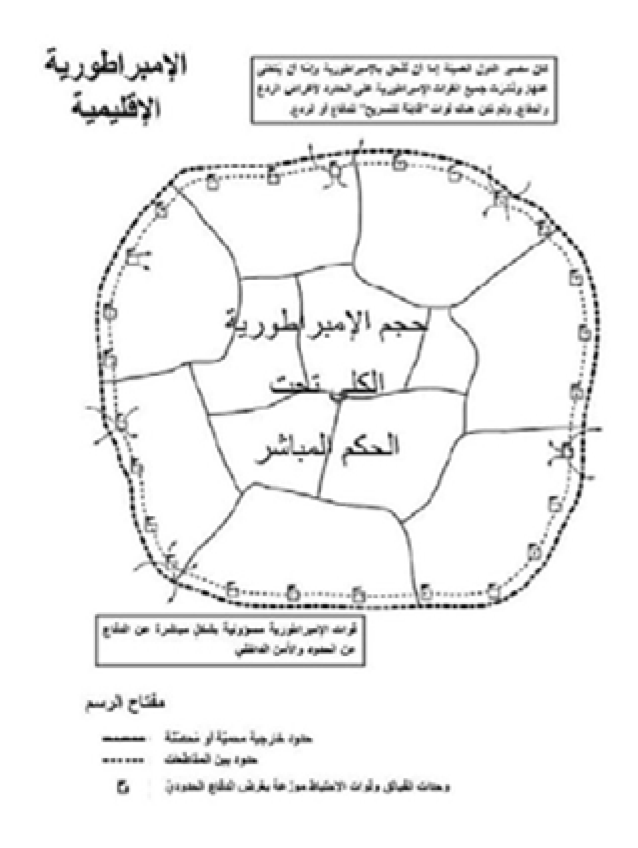
في عام 1976، نشر المحلل الاستراتيجي الأمريكي إدوارد لوتواك Edward Luttwak كتابه «الاستراتيجية العُظمى للإمبراطورية الرومية» (The Grand Strategy of the Roman Empire). ومثلما سيتضح لنا، ولأسباب عديدة بعضها أوثق صلةً من الآخر، فإنَّ الأعمال التي أثارت بين المؤرخين القدماء ذاك الجدل الذي أثاره هذا الكتاب قليلةُ العدد. وبالاطلاع على خطتيْن من الخطط المنصوص عليها في كتاب لوتواك (انظر شكل 8)، نسلك مساراً واضحاً يوصلنا إلى لب أفكاره.

يعرض لوتواك في النموذج الأول نظرته التخطيطية للإمبراطورية الرومية في عهد الجمهورية المتأخرة وبداية عهد «الزعامة» (وصولاً إلى منتصف القرن الأول الميلادي). وفيها كانت روما إمبراطورية «مهيمنة»، إذ تحيط «دولٌ عميلة» بالمناطق التي تخضع لحكم روما المباشر (إيطاليا والمقاطعات). وتتولى الدول العميلة إدارة نظامها الداخلي، وتتعامل مع التهديدات الخارجية المحدودة الخطورة، وتُرجئ التهديدات الخارجية الأخطر. وبما أن الفيالق الرومية، وكذلك قوات الاحتياط المحترفة في عهد الزعامة، لم تكن مسؤولة عن الدفاع اليومي عن حدود الإمبراطورية، وإنما كانت تشكل احتياطياً استراتيجياً متنقلاً جاهزاً لسحق أيِّ «دول عميلة» ذات عقلية استقلالية، وسحق المخاطر العالية الخطورة طالما أنها ما برحت في أراضي «الدول العميلة»، وتنفيذ المزيد من الغزوات.



8: نموذجا الإمبراطورية عند لوتواك

يعرض النموذج الثاني رؤية لوتواك للاستراتيجية الكبرى التي سادت الإمبراطورية بدايةً من النصف الثاني من القرن الأول الميلادي حتى أواخر القرن الثالث الميلادي؛ إنها إمبراطورية «إقليمية».



ولقد اختفت «الدول العميلة» وأصبحت الإمبراطورية «مركزية» وصارت الفيالق وقوات الاحتياط تتمركز الآن في قواعد دائمة على طول الحدود، إذ تتحمل مسؤولية الدفاع المحيطي. وأصبح الإقدام على المزيد من الغزوات يُشكِّل مخاطرة، إذ إن حشد القوات على جانب معين من الحدود يترتب عليه تجريد جانب آخر منهم. وأعرب لوتواك ضمنياً عن أن استراتيجيته الكبرى كانت خطة مقصودة صاغها الأباطرة ومستشاروهم. وكانت الخطة سياسة دفاعية هدفها توظيف «الاقتصاد في استخدام القوة»، ومن ثم أمعنوا النظر في الجانب الجغرافي، فاختاروا حدوداً يمكن الدفاع عنها ويفضل أن تكون معالمَ طبيعيةً (الأنهار، والبحار، والصحاري، والجبال) مع تعزيزها، أو استبدال تلك الدفاعات إذا لزم الأمر بدفاعات من صنع الإنسان (الأسوار، والخنادق، والأراضي المكشوفة مثل موقع سور هادريان).

وعلى الرغم من كونها سياسة دفاعية فإنها لم تتسم بالخمول. فقد مكَّنَت الاستخباراتُ البارعة القوات الرومية من مواجهة المخاطر قبل وصولها للحدود.

نالت أفكار لوتواك بعض التأييد، لكن غالبية العلماء الذين استفزتهم تلك الأفكار ناصبوها العداء. ويُشتبه في أن جانباً من هذا العداء ينبع من حقيقة أن لوتواك ليس مؤرخاً للعالم القديم بِحُكْم المهنة، ومن ثمَّ فقد عُدَّ دخيلاً. ومن المؤكد أن كتاب لوتواك بحماسه تجاه خوض حروب في أراضي «الدول العميلة»، لم يُشعر قراءه في أوروبا الغربية بالارتياح أثناء الحرب الباردة (كان لوتواك مستشاراً أمنياً لرونالد ريغان في الثمانينيات). وبغض النظر عن العوامل المعاصرة المؤثرة (من الرائع أن نتذكر أن المؤرخين المعاصرين لا يعملون في فراغ تاريخي)، ورغم ميل منتقدي

لوتواك أيضاً إلى الإفراط في تبسيط مقولاته (على غرار ما أجبرني عنصر المساحة على أن أفعل في هذا الكتاب)، فهناك عدد من الاعتراضات القوية التي أثيرت ضد «الاستراتيجية العظمى للإمبراطورية الرومية»، وسنلقي فيما يلي نظرة على بعض منها.

لم تختفِ «الدول العميلة» مطلقاً، فقد مالت الإمبراطورية لتحويل الدول «العميلة» الحالية إلى مقاطعات، ولاسيما في الشرق، لكن الروم لم يتوقفوا قط عن محاولة تحويل الشعوب الواقعة خارج نطاق سلطتهم المباشرة إلى «دول عميلة».

هناك جانب آخر مفاهيمي من جوانب الهجوم على الاستراتيجية. لم يمتلك الروم الأدوات العقلية الضرورية لإنتاج استراتيجية عُظمى تشبه نظرية لوتواك. فقد رأينا في الفصل السابق أنهم لم يمتلكوا خرائط طبوغرافية دقيقة واسعة النطاق. وعلى الرغم من احتفاظهم ببعض السجلات، مثل المعاهدات مع بعض الشعوب الأجنبية ومنح الجنسية للمميزين من الأجانب، فإننا لا نجد أثراً لأيِّ سجل حول الدبلوماسية أو السياسة الخارجية. لقد كان الأباطرة يتخذون القرارات، وكان يُتوقع منهم استشارة مجالس مستشاريهم. ورغم ذلك، فإن المجالس، التي يحق للإمبراطور تجاوز قراراتها، تتكون من أيِّ شخص يدعوه الإمبراطور إلى حضور جلساتها، ولم نسمع مطلقاً بوجود مختصين بالسياسة الخارجية سواءً في نواحٍ متخصصة أو عامة. يخبرنا المؤرخ المعاصر كاسيوس ديو (76.9.4) أن الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس لم يكن يملك معلومات كافية في أثناء غزوه لبلاد الرافدين عامَ 198م. وكان ذلك بعد مرور نحو مئتَي عام تقريباً على أولى الحملات الرومية في المنطقة.

وبرزت إلى حيز الوجود نماذج دفاعية. فقد وصف المؤرخ أبيان، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، الرومَ بأنهم يحيطون الإمبراطورية «بدائرة من المعسكرات العظيمة» (الفقرة 7). وفي القرن التالي، تحدَّث مؤرخ آخر، ويُدعى هيروديان، عن الإمبراطور أغسطس قائلاً إنه قد «حَصَّنَ الإمبراطورية فأحاطها بموانع كبيرة وأنهار وخنادق وجبال ومناطق مهجورة» (2.11.5). لكن هذه المقولات قلما ترقى إلى ما قاله لوتواك عن الاستراتيجية العظمى المتطورة جغرافياً، كما أنها لا تتماشى مع الحديث عن الأفكار الخاصة بالمزيد من الغزوات. وزعم هيروديان أيضاً أن الإمبراطور ماكسيمينوس Maximinus كان سيغزو الجِرمانيين وصولاً إلى المحيط، لولا أن ردعه التمرد الذي اندلع في عام 238م، ولا يترك النص أيَّ مجال للشك في أن ذاك الغزو كان سيبدو أمراً رائعاً (7.2.9).

ناقش الروم الاستراتيجية من منظورٍ كان عقلانياً بالنسبة إليهم، لكنه قد يبدو غريباً لنا. كتب كاسيوس ديو، الذي خدم ضمن مجلس مستشاري الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس، عن استيلاء سيبتيموس على بلاد الرافدين قائلاً:

لقد دَرَجَ على التصريح بأنه ضَمَّ مساحة شاسعة من الأراضي إلى الإمبراطورية، وجعلها حصناً لسوريا. وعلى النقيض، كانت هذه الغزوة مصدراً لحروب مستمرة وكبَّدتنا نفقات مهولة، لأنها أثمرت عن أقل القليل واستنفدت أموالاً طائلة.

(ترجمة إي كاري 3-75.3.2)

ولسنا في حاجة إلى الاعتقاد بأن كاسيوس ديو قد صرح بوجهات النظر تلك للإمبراطور. ولكن، باستثناء تبجح سيفيروس حين قال إن الإمبريالية أمر مُستحسن بحد ذاته، فإن كل ذلك يُعدُّ بالنسبة إلينا نقاشاً استراتيجياً طبيعياً للغاية. لكن لا ينطبق الأمر ذاته على الأسباب التي ساقها كاسيوس ديو لحملة أخرى من حملات الإمبراطور.

ولمَّا رأى سيفيروس أن أبناءه أخذوا يغيِّرون نمط حياتهم (أي إلى الأسوأ)، وأنَّ الفيالق قد أصابها الوهن نتيجة الخمول، ما كان منه إلا أن شنَّ حملةً على بريطانيا.

(77.11.1)

الحملات والإمدادات اللوجستية:

بعض الاعتبارات العامة

إن خوض الحرب بالنسبة إلى دولة حديثة، سواء انتصرت فيها أو هُزمت، تجربة باهظة التكلفة. وكانت الحروب في العالم القديم تنطوي كذلك على تكاليف هائلة، وبخاصة الحصار والحروب البحرية. فقد أدت الجبايات التي فرضها الإمبراطور ماكسيمينوس لتوفير نفقات حربه ضد الجِرمانيين إلى تمردٍ كَلَّفَه حياته في النهاية (هيروديان 4.6-7.3.1). وعلى الرغم من ذلك، فإن الحروب قد تعود أيضاً بأرباحٍ طائلة. كان الأمر برمته يتوقف على هوية خصمك ومدى نجاحك في الحروب. وثبت مؤخراً أنَّ نقشاً على الكولوسيوم في روما يقول إن تمويل بنائه كان مصدره غنائم الحرب. لقد دُفعت تكلفة هذا الصرح العظيم من جزء من الثروات التي استحوذ عليها الإمبراطور فسبازيان Vespasian وابنه مِن سحقِ تمردٍ في مقاطعة واحدة صغيرة جداً، هي إيوديا Judaea.

من بين أنواع التكاليف التي تقتضيها الحروب الحديثة ولم تكن موجودةً بصفة دائمة في العالم القديم دفع أجور للجنود. فكما رأينا سابقاً، كانت المُواطَنَة في الدولة القديمة مرتبطة بالخدمة العسكرية. ومن ثمَّ، ولفترة طويلة، لم يكن على الدولة المدينة أن تدفع أجراً لجنودها المواطنين. وفي التاريخ اليوناني، كانت أثينا المدينة الوحيدة التي عثرنا لها على أدلة كثيرة تعضد دفعها أجوراً للجنود. وعلى ما يبدو فإن دفع أجور للجنود بدأ في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد مع إقامة الأثينيين إمبراطورية. وكما يبدو، فإن الأجر ظهر بدايةً في صورة بدلٍ للإعاشة. وتوسَّع مفهوم

دفع أجور للجنود في أثناء الحرب البيلوبونيزية ليشمل مقابلاً للخدمة، كما بدأت المدن اليونانية الأخرى في دفع أجور لجنودها. واستحدث الروم دفع أجور للجنود أثناء حصار فيي Veii، الذي انتهى عام 396 ق.م. وأنشأ الإمبراطور أغسطس خزانة خاصة واستحدث ضريبتَيْن جديدتَيْن لدفع أجورٍ للجيش النظامي في عهد الزعامة. وهناك شكٌّ في أنَّ أجر الخدمة العسكرية الأساسي كان في عصرٍ من العصور وسيلةً لتحقيق الثراء. وإذا عاش جندي في عهد الزعامة عمراً مديداً حتى يحصل على مكافأة تقاعده، فإنه سيصبح ميسور الحال بقية حياته، وإلا تحتَّم على الجنود في أرجاء العالم القديم كافة أن يبحثوا عن غنيمة ليحققوا طفرة اقتصادية ذات قيمة.

وحتى بعض المرتزقة لم يكونوا في حاجة إلى أجر، فقد خدم بعضهم مجاناً، مثل رجال قبائل التراقيين في الحرب البيلوبونيزية، وذلك طمعاً في الغنائم. ولكن كان من الحتمي دفع أجور لغالبية المرتزقة. وقبل الحرب البيلوبونيزية، جاءت غالبية المرتزقة الإغريق من أفقر بقاع اليونان، مثل مقاطعة أركاديا، وكانوا في العادة يخدمون إمَّا سادة ليسوا من اليونان، مثل ملوك ليديا والفراعنة المصريين، وإمَّا طغاة من اليونان. وبعد الحرب البيلوبونيزية، ظهر مرتزقة الحرب من شتى أرجاء الأراضي اليونانية، وصاروا يخدمون ليس فقط غير اليونانيين، أمثال كورش الفارسي الذي خلَّدَ كتاب أناباسيس Anabasis لزينوفون ذكرى خدمة عشرة آلاف من المرتزقة الإغريق تحت إمرته، وإنما خدموا أيضاً المدن اليونانية بشتى دساتيرها. وبعد وفاة الإسكندر، شكَّلَت حروب خلفائه ذروة خدمة المرتزقة في العالم اليونانيِّ.

ولم نسمع عن عمل الروم مرتزقةً في الخارج إلا في حالات نادرة للغاية (على سبيل المثال، حَفَرَ شخص يُدعى لوسيوس Lucius نقشاً بين عامي 217 و209 ق.م تقريباً يُخلِّد فيه خدمته في مصر، IC III 4، رقم 18). لكن غالبية الروم الذين خدموا في جيوش حكام أجانب لم يَعُدُّو أنفسهم مرتزقة. فقد كانوا منفيين سياسيين طوعاً أو كرهاً يقاتلون من أجل استعادة مُلكهم، كما كان الأمر بالنسبة إلى ميثريداتس ملك البنطس. وفي عهد الجمهورية، كانت روما التي تمثلت قوتها الأساسية في فيالق المشاة الثقيلين تحتاج إلى خيالة وإلى جنود مشاة خفيفين إضافيين، وحصلت عليهم عن طريق خدمات المرتزقة، ومنهم على سبيل المثال رماة كريت الذين شاركوا في الحرب البونية الثانية. ولكن، رغم ضبابية الفرْق بين الفريقَيْن، فإن غالبيتهم قد وفدوا من صفوف الحلفاء. وقضت وحدات الاحتياط من الجنود المحترفين في عهد الزعامة على الحاجة إلى المرتزقة، ولكن ظل الحلفاء يوفرون قواتٍ مساعدة، وربما تلقى هؤلاء الحلفاء دعماً مادياً من روما. وعاد استخدام المرتزقة إلى الوجود مرة أخرى في عصر الإمبراطورية المتأخرة. وفي القرن الخامس الميلادي، بدأت الشخصيات البارزة في الاستعانة بقواتٍ خاصة من مرتزقة همج. فقد احتفظ روفينوس Rufinus حاكم بريتوريا في عهد الإمبراطور آركاديوس بحرسٍ خاص من الهون. وصارت هذه القوات تُعرف باسم بوشيلاريوس Bucellarii (أي «أَكَلَة الكعك العسكري»)، وفي القرن السادس الميلادي، كانت قوات البوشيلاريوس تمثل عادةً جزءاً مهماً من الجيوش الرومية. وبحلول القرن السابع الميلادي، أصبح «بوشيلاريوس» لقباً لوحدة نظامية من الخيالة.

كانت الإمدادات اللوجستية، وتشمل توفير الماء والطعام وحطب النار والعلف وغيرها من المواد، ذات أهمية جوهرية في الجيوش القديمة، لكن من السهل إغفالها. وفي الغالب لم تكن الإمدادات

اللوجستية من الموضوعات التي تحظى بالمناقشة في الكتابات القديمة. وفي العادة لم تكن تُذكر إلا إذا ساءت الأمور بصورة كارثية، كما حدث عندما عبر الإسكندر الأكبر صحراء غيدروسيا (آريانوس 6.22-6). تُصعِّب أدلتنا الشحيحة إعادةَ تجميع صورة الإمدادات اللوجستية في العالم القديم على نحو خاص. ومع ذلك، يمكن جمع قدرٍ من المواد التي تكفي لإجراء دراساتٍ بحجم الكُتُب؛ ويأتي على رأسها عملان: أحدهما عن الإمدادات اللوجستية الرومية بشكل عام، والثاني عن غزو الإسكندر لبلاد فارس. وينبغي أن تُستكمل هذه الأعمال باستخلاص الأدلة اللوجستية من الفترات الأحدث الأفضل توثيقاً، ومن ثم استقراؤها رجوعاً إلى الأدلة القديمة المتفرقة. وينبغي القيام بذلك بدرجة كبيرة من العناية. فعلى سبيل المثال، لا يمكن تطبيق تقديرات احتياجات الجنود في العصر الحديث تلقائياً على جنود العصور القديمة، إذ كانوا أكبر سِناً وأصغر حجماً وأكثر اعتياداً على المشقة. ومرة أخرى، فإن التقديرات الحديثة لأشياء مثل الأوزان التي يمكن أن تحملها دواب النقل تختلف بنسبٍ هائلة، وتتسم نتائج هذه الدراسات الحديثة بأنها تمهيدية إلى أبعد الحدود.

نادراً ما شنت الجيوش القديمة حملاتها العسكرية في فصل الشتاء، فقد كانت حملات الشتاء تتطلب أسباباً خاصة. فعلى سبيل المثال، قيل إن الإسكندر شن حملة ضد الكيشيين في جبال زاغروس بين عامَيْ 324 و323 ق.م بحثاً عن السلوى لحزنه على وفاة صديقه هيفايستيون Hephaestion (بلوتارك، الإسكندر 72.3) أو، بحسب التفسير الذي يفضله غالبية العلماء المعاصرين، تلبيةً للغرض الاستراتيجي المتمثل في اللحاق بالقبيلة عندما حالت ظروف الطقس بينهم وبين الهروب إلى المناطق المرتفعة (آريانوس 7.15). كان التردد في شن الحملات أثناء فصل الشتاء يعود بدرجة أقل إلى حماية الجنود من الأحوال الجوية السيئة، ويرجع بدرجة أكبر إلى عدم وفرة الأعلاف وصعوبة نقل الإمدادات. وكان النقل المائي هو الطريقة المفضلة في العصور القديمة لنقل البضائع بكميات كبيرة، إذ كان النقل البري بطيئاً وغير فعال، وكان السفر بحراً خطراً في فصل الشتاء تحديداً.

وتزداد حدة مشكلة الإمدادات اللوجستية كلما زاد حجم الجيوش، وطالت فترة تجمعها، ولاسيما في مكان واحد، وبَعُدتْ عملياتها عن أرض الوطن.

من الواضح أن جيوش الشرق الأدنى في العصر القديم امتلكت إمكانات لوجستية عظيمة. وعلى الرغم من أن أرقام هيرودوت كان مبالغاً فيها بصورة كبيرة (7.186)، فإن الجيش الفارسي الذي غزا اليونان عام 480 ق.م تكون من عشرات الآلاف، إن لم يكن مئات الآلاف، من الرجال. وبالمثل، كان للقرطاجيين بحلول منتصف القرن الرابع قبل الميلاد القدرة على إمداد جيوش قوامها عشرات الآلاف من الرجال في عمليات خارج البلاد. وعلى الأرجح لم تكن الإمدادات اللوجستية تُمثل في العادة مشكلة كبيرة للجيوش اليونانية في العصر الكلاسيكي، إذ إنها في العادة جيوش صغيرة تقوم بعمليات على مسافة ليست بعيدة عن الوطن، ولا يدوم حشدها فترةً طويلة. وعلى ما يبدو، كانت السلطات في الظروف الطبيعية تضع تاريخاً للتجمع، وتأمر القوات بأن يوفروا لأنفسهم مؤنة عدد معين من الأيام. وكان من المفترض أن تتيسر الصعوبات اللوجستية للإسكندر بسبب سرعته المعتادة في الحركة، وكذلك بسبب ثروته اللامحدودة التي نالها بعد استحواذه على كنوز بلاد فارس. وتوجب على خلفاء الإسكندر والممالك الهيلينية تطوير تدابير لوجستية متقدمة،

لأن جيوشهم كانت أكبر، وتضم في العادة نسبةً كبيرة من الخيالة، وربما بقيت في ساحات المعارك لسنوات في المرة الواحدة. في عام 306 ق.م، تمكن أنتيغونوس الأول Antigonus I من عبور صحراء سيناء بجيش قوامه تسعون ألف رجل تقريباً ومعدات الحصار (ديودور الصقلي (74.5-20.73.3

وعندما قاتل الروم للمرة الأولى خارج بلادهم، وتحديداً في صقلية أثناء الحرب البونية، كان عليهم أن يشرعوا في تطوير قدرات لوجستية عالية، استناداً إلى مزيج من الأساليب يشمل جمع الطعام، وأعمال المصادرة، وإدارة خطوط الإمداد. وعلى الرغم من صعوبة التأكد من طبيعة الممارسة التي اعتاد عليها الروم، فقد كانوا قادرين على تحقيق إنجازات لوجستية غير عادية. ففي الحرب المقدونية الثالثة (172 - 167 ق.م)، أدار الروم خط إمداد طوله نحو مئة ميل عبر أراضي جبلية في منطقة البلقان، وفي عامَيْ 73 و74م، تمكنوا من إمداد جيش كبير لفرض حصار دام عدة أسابيع، إن لم يكن شهوراً، في موقع حصن جبل متسادا (مسعدة) الصحراوي الخالي من الماء. وفي أعقاب هزيمتهم للممالك الهيلينية، تمتع الروم بقدرة لوجستية أكبر من أيِّ عدوٍ من أعدائهم. ولفتت هذه الميزة الانتباه، فقال كاسيوس ديو إن «المجهود الحربي» للفرثيين «تعثَّرَ نتيجة عدم مدِّهم خطوطَ إمداد الطعام وعدم دفعهم أجوراً لجنودهم» (40.15.6).

كان الإغريق والروم يَعدُّون قوافل الأمتعة الضخمة من سمات الجيوش الهمجية، ويقدم كوينتوس كورتيوس روفوس وصفاً رائعاً للحاشية الكبيرة، بما في ذلك 360 محظية تبِعنَ ملك الفرس دارا الثالث عندما انطلق لقتال الإسكندر (3.3.8-25). وكان هناك وعي بالمشكلة التي تمثلها القوافل الضخمة من الأمتعة، فهي تبطئ الجيش. وفي حال اختلاطها بالقوات، فإن الفوضى تعيق قدرة القوات على القتال. وعُدَّت النقطة الثانية مسؤولة بشكل جزئي عن كارثة غابة تويتوبورغ الواقعة الآن في ألمانيا، حيث أُبيد جيش الجنرال فاروس Varus، المكون من ثلاثة فيالق، على بكرة أبيه في عام 9م (كاسيوس ديو 56.20.5). وكثير من الجنرالات، بمن فيهم الإسكندر، إمَّا دمروا ما عَدُّوه متاعاً غير ضروري، وإمَّا نبذوه. وكان قصدهم نوعاً ما إعادة الانضباط. قام سكيبيو أميليانوس Scipio Aemilianus في إسبانيا عام 134 ق.م «بطرد جميع التجار وبائعات الهوى، علاوة على العرافين والكهان الذين كان الجنود يلتمسون مشورتهم» (أبيان، حروب إسبانيا 86). وعندما تُفصح المصادر القديمة عن عدد أتباع معسكر الجيش أو عدد العربات، فذلك لأن عددها كبير بشكل استثنائي. فقد أَسَرَ الملك برسيوس Perseus الأنتيغوني في غارة شنها في عام 171 ق.م ألف عربة من خصومه الروم (ليفي Livy 42.65.1-3). ويقال إن الروم خسروا في معركة أورانج عامَ 105 ق.م ثمانين ألف جندي وأربعين ألف خادم وتابع من أتباع المعسكر (ليفي، الملخصات الموجزة Periochae 67). وعلى الرغم من ذلك، يُعتقد أن العلماء المعاصرين يقللون من حجم قوافل الأمتعة في الجيوش التي درسوها. على سبيل المثال، يَقْبَل الكتاب العظيم الذي يتناول الإمدادات اللوجستية المقدونيَّة عددَ خُدَّام أحد المعسكرات على اعتبار أنه يمثل ممارسة صحيحة وطبيعية من ممارسات شن الحملات العسكرية، في حين أنه عددٌ مشكوك فيه ويشير صراحةً إلى تدريب عسكري وحيد لا أكثر (فرونتينوس Frontinus، «حيَل الحرب» 4.1.6).

يميل كُتّاب العالَم القديم إلى تسجيل سرعة سير الجيوش فقط إذا كانت تلك السرعة استثنائية. وفي العادة، كانت تلك الجيوش سريعة للغاية. ففي عام 239 ق.م، قطع الإسكندر صحبةَ «رتل طائر» انتقاه بعناية 185 ميلاً تقريباً في ثلاثة أيام (آريانوس، أناباسيس 4.6.4). وفي بعض الأحيان، يأتي ذكر الأرقام بسبب البطء الشديد لمسيرة الجيش. كان أحد الجيوش الرومية، الذي كان يشنُّ حملة في آسيا الصغرى في عام 189 ق.م مثقلاً بما يحمله من غنائم حتى إنه بالكاد قطع ستة أميال في مسيرة يوم واحد (ليفي 38.15.15). إن محاولات التوصل لأرقام عن متوسط تلك السرعة أمر يتسم بالصعوبة لوجود العديد من المتغيرات، مثل: حالة الطرق والدروب، والأحوال الجوية، وتشكيلة القوات، وحجم قافلة الأمتعة ونوعيتها، والوقت الذي يستغرقه إعداد المعسكر، ومدى قرب العدو، ومدى الحاجة إلى السير بسرعة حسبما يتراءى للجيش. ويمكن لعِلم الآثار أن يساعد في هذا الأمر في حالة بعض الحملات العسكرية، فعلى الرغم من الصعوبة الشديدة لتحديد تواريخ سير المعسكرات الرومية، فقد جرى التعرف على مجموعتيْن في شمال شرق اسكتلندا تمثلان جزءاً من حملة أغريكولا في أواخر القرن الأول الميلادي، وحملة سيبتيموس سيفيروس في أوائل القرن الثالث الميلادي. وتُشير المسافة بين هذه المعسكرات إلى معدل سير بطيء، يقل عن خمسة عشر ميلاً في اليوم الواحد.

الحملات والإمدادات اللوجستية:

«الإطاحة بشعب الهون»

يمكننا التعاطي مع مقالة آر بي ليندنر R. P. Lindner «البداوة والخيول وشعب الهون» بوصفها دراسة حالة تضرب لنا مثلاً للإمكانات والعثرات التفسيرية للتحليلات اللوجستية لجيوش العالم القديم. فقد كان الهدف المعلن عنه لهذا العمل «الإطاحةَ بغالبية الهون». وقد خلص هذا العمل إلى أنه عندما استقر الهون في السهل المجري العظيم (خلال الفترة 410/420م - 465م تقريباً)، لم يعودوا يعيشون حياة البدو، ومن ثمَّ لم يعودوا يحاربون بوصفهم خيالة. وتستند هذه النتائج إلى برهانيْنِ أحدهما نصي والآخر بيئي. يقول ليندنر إن بعض المصادر المعاصرة لا تشير إلى الهون صراحةً بوصفهم خيالة، فضلاً عن أن المصادر التي تشير إليهم بوصفهم خيالة مرفوضة على اعتبار أنها غير تاريخية، لكونها مستندة إلى وصفٍ كُتب في فترات أسبق من هذه الفترة (الوصف الذي وضعه أميانوس مارسيلينوس 31.2 عام 395م تقريباً).

يشير ليندنر على الجانب البيئي إلى أن مساحة الرعي في السهل المجري العظيم كان من الممكن أن تكفي لإعاشة 150 ألفاً من الخيول البدوية السائمة. لو تعاملنا مع شعب المغول بوصفه مثالاً متأخراً للمقارنة، لاستنتجنا أن الفرد الهوني كان يحتاج إلى عشرة خيول، ومن ثمَّ لم يكن عدد الخيالة الهونيين يتعدى 15 ألف فارس في هذه الفترة. من الدارسين مَن اتفق مع ليندنر ومنهم مَن خالفه بشكل عرضي، لكن آراءه، على حد علمي، لم تخضع لأي دراسة أكاديمية متوسعة حتى الآن. وتجدر الإشارة إلى عدد من الملاحظات في هذا الصدد.

يحيط الشك دائماً بالحجج الأدبية المستخلصة من السكوت عن بيان أمر ما في الوثائق التاريخية. ويُحتمل أنّ بعض المعاصرين لم يأتوا صراحة على ذكر وصف الهون بأنهم خيالة، وذلك تحديداً لأن الجميع عرفوا أنهم كانوا كذلك. إن رفض هذه المصادر التي تصور الهون بالفعل على أنهم من الفرسان بوصفها غير تاريخية بسبب كونها مَدِينَة في معلوماتها لأميانوس، ربما يماثل قراءة تلك المصادر مع الخلط في التواريخ الموجودة بها بوصفها مفارقات تاريخية. كان من المُستحسن في الثقافة الكلاسيكية أن يُظهر المرء قراءاته المتبحرة. ولذا، كان المتبع دائماً عدم الإشارة للكُتّاب السابقين المعروفين. وكمثال على ذلك، بعد أن انتهى ثوقيديدس من كتابة وصفه الشهير للطاعون في أثينا عامَ 430 ق.م (2.47-55)، كان من تبعه من كُتَّاب، ممن وصفوا مشاهد الطاعون، يميلون إلى الاستقاء مما كتبه ثوقيديدس. وهو ما يعني أن مشاهد الطاعون التي صوروها لم تكن من وحي الخيال، وربما احتل وصف أميانوس للهون المكانة نفسها. علاوة على ذلك، لا يأتي ليندنر على أيِّ ذكر لعددٍ من الأدلة التاريخية المعاصرة التي لم تتأثر بكتابات أميانوس، وتتحدث بالفعل عن الهون بوصفهم من الخيالة. أمَّا فيجيتوس الذي يقول ليندنر إنه ألف كتاباته في منتصف القرن الخامس الميلادي، فقد ذكر مرتين في كتابه المعنون «حول الشؤون العسكرية» (Epitoma rei militaris) أن الهون من الفرسان النموذجيين (1.20؛ 3.26). ويمكن أن نلاحظ أيضاً أن الهون في القرن التالي عملوا مرتزقةً في الجيش البيزنطي تحت إمرة الجنرال بيليساريوس Belisarius، وكانوا جميعاً «رماة يمتطون الخيل» (بروكوبيوس 3.11.12).

وحتى إن صَدَقَت تقديرات ليندنر الخاصة بالمراعي التي ربما وُجِدَت في السهول المجرية العظمى، تظل هناك مشكلات في استنتاجاته. أولاً، مجتمع الهون الآن صار مختلفاً عن شكله السابق الذي كان يسكن المنطقة من السهوب إلى شمال شرق البحر الأسود. لقد أسس الهون نظاماً ملكياً استبدادياً وطبقات اجتماعية، وأقاموا إمبراطورية ضخمة، ولم يعودوا يعيشون حياة البدو «الخالصة». فقد أوضحت المصادر الأدبية أنهم يعيشون في قرى. وكان لدى الهون قدرة مماثلة على جمع المنتجات الزراعية من رعاياهم، وكذلك جبي الجزية من الإمبراطورية الرومية الشرقية. ويمكن أن يتمم ما سبق أسلوب جمع الطعام من السهول، ولو كان الهون مستعدين لإحداث تغيير آخر، لكان هذا التغيير هو إطعام خيولهم جزئياً باستخدام الحبوب. ثانياً، يتسم تشبيه ليندنر لشعب الهون بالمغول بالعشوائية. ويمكن كذلك دحض الأرقام الأخرى التي ذكرها ليندنر، ومنها ما قاله بأن تعاقب ثلاثة رجال على حصان واحد في اليوم سينهكه. ولكن إن كان الهون مستعدين للمخاطرة بذلك، فإن السهول كانت، استناداً إلى الأرقام المذكورة، ستُعيل خمسين ألف فارس. وأخيراً، توجد مشكلة بالنسبة إلى فكرة أنه لو هجر الهون حياة البدو، فهذا يعني أنهم لم يعودوا فرساناً. لقد كان جميع بدو السهوب خيَّالة، لكن لم يكن جميع فرسان الخيالة من البدو.

وبحسب ما قيل لنا («أصول القوطيين وأعمالهم» ليوردانس Jordanes، 41.215)، فكَّرَ أتيلا في الانتحار بعد الهزيمة في بلاد الغال عامَ 451م بحرق نفسه فوق محرقة من سروج أتباعه. ويُعلق ليندنر على ذلك قائلاً: «لا يُعدُّ ذلك دليلاً على كثرة فرسانه، وإنما على قيادته عدداً قليلاً منهم». وقد يَصْدُق ذلك من ناحية أن جزءاً كبيراً من جيش أتيلا كان قوامه آنذاك رعايا الشعوب الخاضعة له، إذ قاتل كثيرٌ منهم بوصفهم جنودَ مشاةٍ في المعارك. لكن النظر لهذا الأمر بوصفه دليلاً على أنَّ غالبية الهون قد تخلوا عن خيولهم سيتطلب قدراً كبيراً من الثقة العمياء.

الفصل السادس
القتال

أشاع كتاب «وجه المعركة: دراسة لمعارك أزينكورت ووترلو والسوم» (The Face of Battle: A Study of Agincourt, Waterloo and the Somme)، الذي نُشر عام 1976 للمؤلف جون كيغان John Keegan، لوناً جديداً من الكتابات الحديثة التي تتناول موضوع القتال. فقد أُضيف إلى النوع الحالي من الدراسة المعنية بالنظر إلى المعركة من منظور الجنرالات نوع آخر نَظَرَ إلى التجارب الجسمانية والوجدانية للمقاتل العادي. وهذا الفصل الذي بين أيدينا يتتبع النموذج اللاحق، فاحصاً بدوره أرض المعركة القديمة، وحرب الحصار، والحروب البحرية. وفي كل قسم، يسبق تصويرٌ موجز جداً لتطوُّر التقنيات استكشافَ بُعدٍ محدد من أبعاد تقنية القتال. وفي القسم الأخير، ننظر بعينٍ فاحصة إلى معركة واحدة، مما يستحضر العديد من الأفكار السارية في صلب هذا الكتاب ويؤلِّف بينها، ويكون سبيلاً إلى استقصاء القيادة في الحروب القديمة.

الرَمَّاح

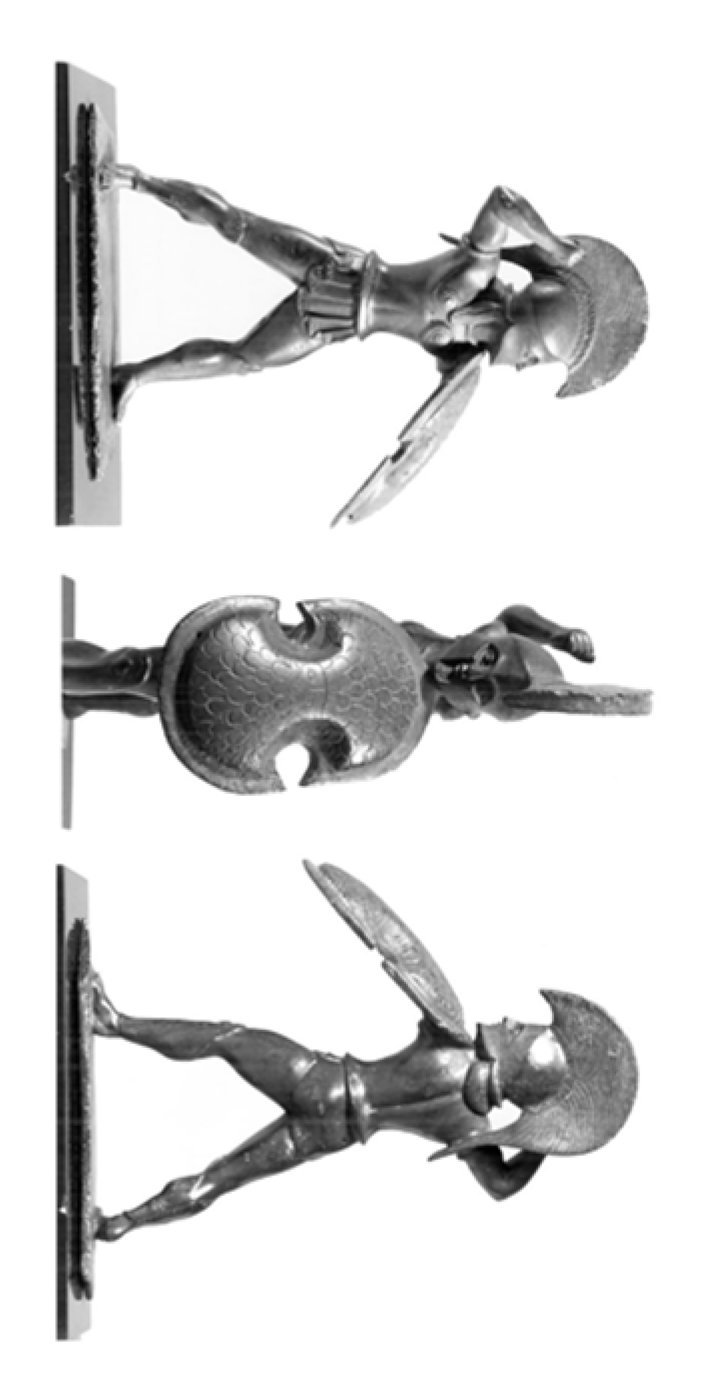
لنلقِ نظرة إلى الرمَّاح الإغريقي (شكل 9). الماثل أمامنا في هذا الشكل تمثال برونزيّ مُهدى إلى معبد زيوس في دودونا عام 500 ق.م تقريباً. لقد تباينت كمية الدروع التي ارتداها الرمَّاح بمرور الوقت، لكن هذه الدرع تبدو تقليدية، فيما خلا استثناءين كما سيتضح لنا. أولاً، لنفكر في هذه المعدات وآثارها على القتال. إنه يرتدي خوذة برونزية ودرعاً برونزيةً للجسد ودروعاً لوقاية الساقين، ويحمل درعاً ضخمةً. ويحمل الرمَّاح درعاً بيوتيَّةً (نسبةً إلى مدينة بيوتيا) ربما لم يكن لها وجود في الواقع أصلاً، شأنها كشأن درع «ديبيلون» التي صادفناها في الفصل الثالث.

عادة ما يحمل الرمَّاح درعاً دائرية خشبية وجهها مطلي بالبرونز، وكان يمسك بها من حزامٍ مركزي للذراع وقبضة لليد عند الطرف. والتمثال الصغير (الموضح أعلاه) كان في الأصل يمسك بيده اليمنى رمحاً هجومياً طويلاً. وكان أغلب الرمَّاحين يمسكون بسيفٍ سلاحاً ثانوياً. إن العتاد ثقيل وساخن ومُرهق للرمَّاح، وتحجب الخوذة رؤيته وسمعه. وهو لا يحمل شيئاً يستطيع به القتال

من مسافة. وستنطوي معركته على قدرٍ محدود من المناورة (تُرى إلى أيِّ حد يستطيع أن يسمع الإشارات أو يراها؟)، وستُدار اشتباكاً بالأيدي وتكون قصيرة (قبل أن ينال منه الإنهاك).

والآن، لنفكر في الرجل داخل العتاد. ما لم يكن من أبناء إسبرطة أو من المرتزقة، فهو ليس جندياً محترفاً ومحنكاً. لقد كان الجندي يجهز نفسه بالعتاد بنفسه ويخدم بلا أجر، حتى في أثناء الحرب البيلوبونيزية (431-404 ق.م)، ولفترة طويلة بعدها. فقد كان ثرياً نسبياً، وعادة ما كان من المزارعين. وربما تراوح عمره ما بين أوائل المراهقة حتى سن الستين. لقد شاعت قدرة المدربين المحترفين على التعامل مع الأسلحة بحلول أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، لكنهم كانوا دائماً متفرِّدين. وعُدَّ الرقص والألعاب الرياضية تدريباً مناسباً للقتال، وكان الرجل يتفاعل مع عتاده، ويخوض معركته القصيرة البسيطة في مساحة ضيقة.

وأخيراً، لنتخيل مكان هذا الفرد في ساحة المعركة على وجه العموم، مُستعينين بأكثر التفاسير المعترف بها شيوعاً لقتال الرمَّاحين. إنه يحتل مركزه في الكتيبة التي تُعدُّ كياناً متراصاً من العديد من الصفوف لمسافة كبيرة، وهو يعرف كل مَن هم حوله، وربما كان بعضهم من أقاربه. وبعد التضحية بحيوانٍ، يلقي الجنرال كلمة على مسامع الجنود، وتنطلق الكتيبة لمواجهة العدو. يتحرك الجنود سيراً بوتيرة محددة، وينشدون أنشودة مدينتهم. وعندما يدنون من العدو،



9. منظران أمامي وجانبي لرمَّاح

يشرعون في الركض، ويطلقون صيحة حرب بسيطة. والغاية الاصطدام بعنف بالعدو عند ملاقاته. فإن كان خصومهم كتيبةً أخرى، فربما ينتج عن ذلك تدافعٌ. وقُورن هذا المشهد بالتدافع العظيم بين لاعبي كرة القدم الأمريكية (الرغبي)، مع إضافة الأسلحة القاتلة للمشهد. وكانت الصفوف الخلفية

تدفع ظهور الصفوف الأمامية. وإن عاجلاً أو آجلاً، سيحقق طرف من الطرفيْن زخْماً إلى الأمام، وستنفصم عرى الطرف الآخر ويلوذ بالفرار.

وتقع إصابات كثيرة بين الصفوف. وتُقدِّر التقديرات متوسط الإصابات بنحو 5% بين المنتصرين و14% بين الخاسرين.

ويرى بعض الدارسين معارك الرمَّاحين من منظور مختلف، فهم يفسرون «التدافع» تفسيراً رمزياً، ويحتجون بأنه إمَّا أنَّ الصفوف الخلفية قدَّمت دعماً معنوياً لا أكثر، وإمَّا أنَّ الرمَّاحين قاتلوا فعلاً في تشكيل أكثر تخلخلاً بالمرة. وربما قُدِّر للبحث عن معيار قياسي الفشل. فكما تبنت ولايات يونانية مختلفة كتيبة الرمَّاحين في أزمنة مختلفة، ربما طورت تلك الولايات أساليبَ قتال مختلفة نوعاً ما. إننا نعلم أنَّ أبناء إسبرطة كانوا يمشون حتى يلقوا العدو، وأنَّ محاربي طيبة نزعوا إلى القتال في تشكيلات أعمق مما هو معروف عموماً. ويجوز أنَّ كتيبة أيِّ مدينة يونانية نوَّعَت ممارستها بقدر أكبر بحسب ظروف عصرها ومقتضياته.

لقد كانت كتيبة الرمَّاحين سائدة في المعارك اليونانية الضارية خلال القرن السابع قبل الميلاد حتى القرن الرابع قبل الميلاد. ولم تكن أنواع تشكيلات الجنود الأخرى، مثل المشاة والخيَّالة، شائعة، وإنما زاد استخدامها بداية من الحرب البيلوبونيزية فصاعداً. لكن كانت ثمة نزعة لتهميشها، سواء واقعياً على أرض المعركة أو إيديولوجياً من جانب المؤرخين، بسبب السيطرة الاجتماعية والسياسية التي مارستها طبقة الرمَّاحين في غالبية الولايات اليونانية.

الفيلق المقدونيُّ

إن الجيوش التي حقق بها الملك فيليب الثاني المقدونيُّ السيطرة على اليونان، وقهر بها ابنُه الإسكندرُ الإمبراطورية الفارسية، وساد بها خلفاء الإسكندر والممالك الهيلينيَّة التي أسسوها الجزءَ الشرقي من حوض البحر المتوسط، كانت قواتٍ تملك مزيجاً من الأسلحة. وتشكَّلت من كتيبة من المشاة الثقيلين للقتال المتلاحم ومشاة خفيفين وخيَّالة. وجُهِّز المشاة الخفيفون برماح أو بمقاليع أو أقواس، وعملت على النحو التقليدي الذي شاع في القِدَم، إذ حاولت أن تُناوش قلب جيش العدو من مسافة، في حين أمَّنَت الحماية لبقية جنود جيشها.

وكان الخيالة المقدونيون المميزون جنودَ صاعقة، لكن وحدات أخرى من الخيَّالة كانت لها إسهاماتها (سنلقي نظرةً على النحو الذي عملت به الخيَّالة لاحقاً في هذا الفصل)، وكان قلب الجيش المقدوني رجال الكتيبة. إن معلوماتنا عن هذه الفيالق المقدونية أقل مما قد تَسُوق بعضُ الكتابات الحديثة المرءَ إلى افتراضه. ومصادرنا الأدبية والفنية المعنيَّة بأساليب شن الحرب المقدونية تميل إلى الاهتمام بالإسكندر المقدونيّ، وتركز بشكل وثيق على شخصية الملك. ولأن الإسكندر خاض المعارك الضارية بالخيَّالة، فليست لدينا سوى معلومات شحيحة عن المشاة. وكان أفضل مصادرنا حول الفيلق المقدونيِّ، المؤرخ اليوناني بُولِيبِيُوس (Polybius 18.28-32)، يُدوِّن في النصف

الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد مفسراً النحو الذي هُزم به الفيلق على يد الفيالق الرومية. ورغم التغيير الذي شهدته المعارك المقدونية، إذ أمسى الفيلق عنصرَ النصر الأساسي في حين تراجعت أعداد الخيَّالة وقدراتهم الهجومية الخاطفة، فيبدو أن بُولِيبِيُوس غالى في عرض حجته بأن الفيلق افتقر إلى المرونة، وكان عاجزاً عن العمل في ساحات المعركة الوعرة. ففي السابق، استطاع فيلق الإسكندر في معركة إسوس (333 ق.م)، رغم اصطدامه بفيلق خصم من مرتزقة الرمَّاحين الإغريق، أن يُغيِّر عمقه وتقدمه في ساحة المعركة، وأن يحارب عبر النهر. وفي عام 197 ق.م، وتحديداً في معركة كينوسكيفالاي، ظل جناح من أجنحة الفيلق المقدونيّ، وكان مشتبكاً على سفح أحد التلال، يدفع خصومه الروم إلى الوراء حتى تعرَّض لهجوم من الخلف.

لقد كان الفارق الأساس بين الفيلق المقدونيّ وكتيبة الرمَّاحين سلاحَه الرئيس؛ ألا وهو «الساريسا» (رمح طويل يتراوح طوله بين 4 و7 أمتار). وكُرِّسَت جهود علمية كبيرة لدراسة الساريسا، ولا يبدو أن لها نهاية تلوح في الأفق. على الأقل، هناك إجماع على أنه رمح طويل يُمسَك بكلتا اليدين. وسمح طوله لأَسِنَّة رِمَاح أول أربعة أو خمسة صفوف من الفيلق بالنفاذ إلى ما وراء جنود المقدمة، مقارنةً بصفَّيْن أو ثلاثة صفوف في كتيبة الرمَّاحين. ويبدو أن الحكمة من استخدام هذه الرماح الطويلة زيادة عَرْض نطاق القتل وعدد النصال الحادة داخله. وكان الهدف مواجهة العدو بحاجز من أنصُل الرِمَاح عَصيٍّ على الاختراق على بُعد بضع أقدام من الفيلق ذاته. ولكن، لا ينبغي لنا إعلاء الساريسا إلى مرتبة «السلاح الخارق». فلو كان سلاحاً خارقاً، فمن المستبعد أن أبناء إسبرطة انتظروا أكثرَ من مئة عام بعد ظهوره في ساحات المعارك اليونانية قبل أن يستخدموه في جيوشهم عام 227 ق.م.

بالنسبة إلى غالبية الفيالق المقدونيَّة، وكذلك بالنسبة إلى غالبية الرمَّاحين الإغريق، لا بد أن ساحة المعركة كانت مكاناً محدود المعرفة جداً. فالصفوف القليلة الأولى فقط تستطيع أن ترى ما يحدث في الأفق. وما كان لغالبية الجنود-المُتراصين في قلب الفيلق، يحجب رؤيتَهم رفاقهم والغبارُ المتصاعد بسبب الاشتباكات، ويصمُّ آذانهم صليل الأسلحة- أن يتمكنوا من تكوين فكرة موضوعية حول مسار المعركة. ولمَّا كان الوضع كذلك، فقد كانت الروح المعنوية للفيالق تحديداً عُرضةً إلى ضجيجٍ يوحي للأجنحة أو لمؤخرة الجيش بأنهم في خطر، أو يشي بأيِّ انطباع مفاده أن الفيلق يتقهقر.

جُندي الفيلق

يبدو أن الروم، شأنهم كشأن جيرانهم الإتروسكانيين، تبنوا فكرة كتيبة الرمَّاحين، ربما في مرحلة ما خلال القرن السابع أو السادس قبل الميلاد، لكن يبدو أنهم أسسوا الفيلق الشهير في القرن الرابع قبل الميلاد. وبمرور الوقت، تغيَّرَت أنماط تنظيم الفيلق، وأشهر تلك التغييرات تعديله من تشكيل يرتكز على 30 وحدة فرعية صغيرة تُعرف باسم «شرذمة»، كما وصفها بُولِيبِيُوس، إلى 10 وحدات فرعية أكبر حجماً تُعرف باسم الكتائب، كما ورد في كتابات يوليوس قيصر. وبالمثل، تغير الجنود من ميليشيا من المزارعين الإيطاليين إلى جنود محترفين مخضرمين يجري تجنيدهم أساساً

من مقاطعات خاضعة لحكم الإمبراطورية الرومية في عهد الزعامة. ولكن، بعيداً عن اختفاء الرُمح الذي حملته قِلَّة قليلة في وصف بُولِيبِيُوس، ظل عتاد جنود الفيالق موحَّداً بشكل مدهش استناداً إلى أوائل أدلتنا ووصولاً إلى القرن الثالث الميلادي. لقد اعتمر جنود الفيالق خوذات معدنية، وعادةً ما ارتدوا درعاً للجسد وحملوا درعاً كبيرة مُقوسة (scutum)، وحملوا حربةً أو اثنتين ثقيلتيْن (pila، ومفردها pilum)، وسيفاً (gladius)، وخنجراً (pugio).

لا يسمح لنا الدليل الذي بين أيدينا بأيِّ قدر من اليقين فيما يخص عمليات إعادة تشكيل مقدمة الجيش التي يشغلها جنود الفيالق على جبهة القتال. وأكثر التقديرات شيوعاً هي ست أقدام أو ثلاث. ويُحتمل أن مقدمة الجيش تفاوتت بمرور الوقت أو كانت تعوِّل على الظروف الخاصة بالمعركة. وعلى الرغم من أن جنود الفيالق يمكن إصدار الأوامر لهم باستخدام الحربة سلاحاً للهجوم واختراق الصفوف، عادةً في مواجهة الخيَّالة، فإن الحِراب في الأساس سلاح رمي، ولم يكفل لها وزنها سوى مدى قصيرٍ.

في رواية قيصر لمعركة فارسالا، نجد نقاشاً حول المقاييس النسبية للزخْم والتماسك (الحرب الأهلية 3.92). أكان من الأفضل المخاطرة بفقدان تماسك الجيش في مقابل كسب الزخْم عن طريق الهجوم أم نَقْض هذه الأهداف بالوقوف دون حَراك والتعرض للهجوم؟ فضَّلَ قيصر وغالبية الجنرالات الروم الخيار الأول.

كان من المتوقع أن يتقدم جندي الفيلق في المعركة تجاه مشاة العدو، ويرمي حربته امتثالاً للأوامر ضمن وابل من القذائف. وبينما يشتت وابل الحِراب صفوف العدو، ينبغي أن يستل جندي الفيلق سيفه، ويشتبك في معركة بالأيدي، ويجوز استخدام السيف للطعن أو الضرب، ويمكن استخدام الدرع بشكل هجومي. ولأن الدرع تُمسَك بمقبض مركزي، وتُزوَّد ببروز معدني، فمن الممكن ضرب وجه الخصم بها أو استخدامها لإفقاد العدو توازنه بأن يلصق جندي الفيلق كتفه فيها ويدفعه بها. وتوحي المقارنة بين الهياكل العظمية الموجودة في قلعة مايدين Maiden Castle في بريطانيا التي اجتاحها الروم، والهياكل الأكثر عدداً بكثير التي نجمت عن معركة فيسبي والتي درات رحاها في القرون الوسطى، بأنَّ غاية جندي الفيلق الإطاحة بخصمه على الأرض، ثم قتله بعدة ضربات ثقيلة من سيفه على رأسه (انظر شكل 14، ص 120). ولأن هذا النوع من القتال كان مُرهقاً جسمانياً-ويمكننا أن نُقدِّر أن بعض معارك المشاة، مثل معركة كاناي، استمرت لساعات- فقد انساق بعض العلماء إلى افتراض أنَّ القتال انقلب إلى «حالة افتراضية» يتقهقر فيها الطرفان ويتبادلان القذائف والسباب، في حين يستجمعان شجاعتهما لخوض جولة ثانية قصيرة من الاشتباك بالأيدي. وفي مثل هذه «المباراة القتالية»، يجد جندي الفيلق عوناً له في تدريبه الجسماني. فقد قيل لنا إنهم يتدربون بأسلحة أثقل وزناً مما يستخدمونه في القتال فعلياً (فيجيتوس 1.11). وفضلاً عن ذلك، يلمس جندي الفيلق، من الجانب النفساني، دعماً في مبدأ الانضباط (disciplina) الذي ظن الروم أنهم يملكونه وحدهم دون بقية البشر، ويجد عوناً أيضاً في أساطير محاربي روما التي شددت على «النَفَس الطويل»، مثل أسطورة البطل هوراشيو Horatio الذي دافع عن الجسر في مواجهة قوة كاسحة.

الخيَّالة

لمَّا كانت اليونان تتكون من مجموعة من أشباه الجزر والجزر القاحلة الوعرة، فليس من عجب أنَّ الخيَّالة، على الرغم من أن امتلاك الجياد كان أَمارة على المكانة المرموقة، لم يكونوا القوة الضاربة للجيوش اليونانية القديمة، باستثناء خيالة سهول ثيسالي Thessaly الأوسع نطاقاً في الشمال. وحتى لمسافة أبعد شمالاً، سمحت المراعي الشاسعة والمجتمع القبلي لمقدونيا ببناء خيَّالة على درجة كبيرة من الكفاءة شكَّلَت عنصراً حيوياً في الجيوش التي أخضع بها فيليب الثاني اليونان، وقهر بها الإسكندر الإمبراطورية الفارسية والعديد من الشعوب الهندية لمسافات بعيدة وصولاً إلى نهر السند. لكن أعداد الخيَّالة وفعاليتها تراجعت تحت لواء الممالك الهيلينيَّة التي خلفت الإسكندر. وبدا تحت لواء الجمهورية أن الروم يملكون سلاحَ خيَّالة محدوداً لكنه فعَّال. لكن الخيَّالة اختفوا في أوائل القرن الأول قبل الميلاد، ورغم ظهور أعداد قليلة جداً من الفرسان في عهد الزعامة، اعتمدت الجيوش الرومية منذ ذلك التاريخ فصاعداً على الخيَّالة الأجانب أو على خيَّالة احتياطية من رعاياها. وكان الخيَّالة، منذ أوائل العصور، ذوي منزلة ثانوية مقارنةً بالمشاة الثقيلين في الجيوش الرومية. وبدأت الحال تتغير في الشطر الثاني من القرن الثالث الميلادي، فقد عوَّلت الجيوش الرومية في القرنين الرابع والخامس بكثافة على الخيَّالة، وبحلول القرنين السادس والسابع أصبح الخيَّالة هم القوة الضاربة الأساسية لجيوش الإمبراطورية، على الرغم من أن سلاح المشاة ظلَّ له السيادة من ناحية العدد.

يمكن أن نتخيل أنواع الخيَّالة في العالم القديم على هيئة طيف كامل. في أحد طرفي الطيف يستقر الخيَّالة الخفيفون الحقيقيون، مثل خيَّالة مملكة نوميديا والفرسان المغاربة في شمال إفريقيا. ولقد اعتمد هؤلاء على الأسلحة المقذوفة، وحاولوا أن يتفادوا الاشتباك يداً بيد في المعركة بالكامل، أو على الأقل حتى يلوذ العدو بالفرار. ولقد استغلوا سرعة خيولهم وقدرتها على المناورة ليصبحوا منصات متحركة للقذائف. وعلى الطرف الآخر للطيف، يستقر الخيَّالة «الصاعقة» الحقيقيون، مثل خيَّالة رفاق الإسكندر. ولقد جُهِّز هؤلاء الخيَّالة فقط لأغراض الالتحام. ولمَّا كان من المستحيل إجبار الخيول على الركض عبر الأجسام الصلبة التي لا تستطيع أن تراها أو تقفز عليها، مثل صفوف المشاة المتراصة عن كثب، يعتمد خيالة «الصاعقة» على الثِقَل الكلي للحصان والفارس لإرهاب الخصوم وحملهم على الفرار، أو على الأقل لتشتيت مقدمة تشكيل العدو بحيث يستطيع الخيَّالة الخوض بينهم على ظهور جيادهم أو قتلهم فرادى.

ويمكن بيان إمكانات الخيَّالة القديمة ببحث رواية بلوتارك لأول يوم حاسم في معركة كارهاي عام 53 ق.م (كراسوس 27-23 Crassus). فقد واجه جيشٌ فرثيٌّ يتألف بالكامل من الخيَّالة، وغالبيتهم من الرماة المجهزين تجهيزاً خفيفاً على ظهور الجياد، وعدد أقل من الخيَّالة المُدججين بالأسلحة والمجهزين بالرماح، جيشاً رومياً أضخم منه بكثير قوامه جنود فيالق مدعومون بفرق مشاة خفيفين وخيَّالة بقيادة كراسوس. ولم تُحْدِث الهجمة الأولى للخيالة الفرثية أيَّ أثر، إذ شكَّلَ جنود الفيالق خطاً حصيناً كثيفاً. لكن هذا التشكيل أهدى الرماة الفرثيين هدفاً مثالياً. وتحمل الروم السهام المقذوفة عليهم ظناً منهم أن الفرثيين ستنفد ذخيرتهم. وعندما تبين أن الرُماة على ظهور الجياد يُعاد تزويدهم بالذخيرة، أمر كراسوس ابنه بوبليوس Publius أن يهاجم بميمنة الجيش.

وتقهقر الفرثيون وهم يرمون، حتى انفصل جنود بوبليوس عن التشكيل الأساسي للجيش. وحينئذ، وضع الفرثيون وحدة من الخيَّالة الثقيلين في مواجهة رجال بوبليوس. وعجز بوبليوس عن إقناع مشاته بالهجوم، ومن ثمَّ هُزِمَ في قتاله مع الخيَّالة. ولمَّا تقهقر بوبليوس مع مشاته، سَحَبَ مَن تبقى من رجاله إلى تل صغير. وهناك نالت منهم سِهام الفرثيين قبل أن يدهسهم الخيَّالة الثقيلون في نهاية المطاف. وبعدها رجع الخيَّالة إلى التشكيل الأساسي للجنود الروم، فهاجمت فرقة الخيَّالة الثقيلين المقدمة برماحها الطويلة، في حين أطلق الرماة سيلاً من السِهام على أجنحة الجيش. وعندما أجبر الليل القتال على التوقف، لم يَعُد الجيش الرومي بعدُ قوة قتالية فعالة.

الحافز: أقليل هم الذين يقاتلون؟

شجَّعَ كتاب جون كيغان «وجه المعركة» المؤرخين الكلاسيكيين على تطبيق نتائج دراسات علم النفس في المعارك الحديثة على العالم القديم، وهناك مثال واحد يمكن أن يبيِّن العناية المنهجية التي ينبغي تحريها في مثل هذا العمل. زعم إس إل آيه مارشال S. L. A. Marshall، في كتابه «رجال في مواجهة النيران» (Men Against Fire) الذي نُشر عام 1947، أن جندياً واحداً فقط من كل أربعة جنود أمريكيين أطلق النار في نهاية الحرب العالم الثانية. وطبَّقَ المؤرخ آيه كيه غولدزورثي A. K. Goldsworthy التجربة نفسها على الجيش الرومي بطريقتيْن. لمَّا اكتشف غولدزورثي أنه من غير المنطقي ألا يتمكن الرجال في التشكيلات المتراصة عن كثب من اتخاذ أيِّ إجراء، اقترح أن 75% من قوات القذائف لم يستهدفوا أحداً حين أطلقوا قذائفهم، وأن النسبة عينها من قوات المشاة الثقيلين تقاتل بشكل دفاعي فقط في مكان محصور. هذه الإحالة المباشرة لا بد أن تكون محل شك، فمارشال نفسه لم يعتقد أن هذه الأرقام معيار عالمي. وفي عمل لاحق له، احتج بأن أولئك الذين أطلقوا النار في الحرب الكورية تتراوح نسبتهم ما بين 37% و55%. إن مؤرخي الحروب الحديثة يساورهم الشك الآن من إحصاءات مارشال. ولكن، حتى لو كانوا على صواب، فهناك أسباب تدعو إلى الشك في إمكانية تطبيق نتائج دراساتهم على العالم القديم.

ينبغي أن نطرح ثلاثة أسئلة عند التمحيص إنْ كان أحد مفاهيم الدراسات العسكرية الحديثة للحافز القتالي يجوز تطبيقه على العالم القديم: هل يمكن العثور على أيِّ دعم في الأدلة القديمة؟ وهل كانت البيئات الفعلية للمعركة قريبة الشبه بما يكفي للسماح للمفهوم بأن «يسري» في العالم القديم؟ وهل كانت العوامل الكامنة التي أفضت إلى حدوث هذه الظاهرة في الفترات الحديثة موجودة أيضاً في الماضي؟ ورداً على الأسئلة الثلاثة، فإن فكرة أن جندياً رومياً واحداً فقط من كل أربعة جنود قاتلَ بأسلوب هجومي لا تسري. ويمكننا استخدام كتاب «الحرب في إسبانيا» (Bellum Hispaniense)، المجهول المؤلف والمحفوظ بين مُجمل أعمال يوليوس قيصر، بوصفه دراسة حالة في هذا السياق. فهذه المتابعة الموجزة غير المشمولة بالدراسة الوافية لـ «تعليقات» يوليوس قيصر تمنحنا رؤية نادرة من شخص ينتمي لمرتبة أدنى من المراتب العليا للمجتمع. ولمَّا كان المؤلف جاهلاً بالقضايا الأكبر المتعلقة بالاستراتيجية، فإنه يهتم بالمسائل المتعلقة بالظروف

المناخية، وأجر الجنود، وحالات الهروب من الخدمة العسكرية على نطاق محدود، والعقوبات العسكرية. منذ فترة طويلة، خمَّن اللورد ماكولي Lord Macaulay أن المؤلف «قائد مئة قوي، يبرع في القتال أكثر مما يبرع في الكتابة والتأليف». وبينما يعتقد المؤلف أن الجنود تخالجهم مشاعر مختلفة في أثناء انتظار بدء المعركة، وأن عديمي الخبرة على الجانب الآخر يصيبهم الذعر من ضجيج المعركة، فإنه عندما يصف المعركة، نجد رجال الوحدات المختلفة يتصرفون كأنهم بنيان واحد؛ فهم جميعاً يرمون ويقاتلون يداً بيد ويرفضون الإحجام عن القتال أو التقهقر أو الفرار. والاستثناءان الوحيدان اللذان لا يتماشيان مع نموذج «الواحد من كل أربعة» هما اشتباك شخصيْن في مبارزة، وإقدام اثنين من قادة المئة على التضحية الفردية بحياتهما في محاولةٍ لبث روح الشجاعة والمثابرة في بقية الوحدة. لقد كانت الظروف المادية مختلفة كل الاختلاف بين الجنود الأمريكيين والجنود الروم، فقد مَالَ الجنود الأمريكيون إلى الوهن والعزلة نسبياً. أمَّا الجنود الروم، فكانوا عادة منتصبين ومحاطين برفاقهم في أرض المعركة. أخيراً، وبعيداً عن مسألة الخوف، حسِب مارشال أن الوصية المسيحية «لا تَقْتُلْ» هي التي حالت بين جنود الصاعقة الأمريكيين والضغط على الزناد. وغنيٌّ عن القول إنه حتى القرن الرابع الميلادي، وبوتيرة أكبر بكثير بعده، لم يكن الجنود الروم مسيحيين. لقد كان المجتمع الرومي عنيفاً ولديه حق قانوني، بل وازع أخلاقي، يجنح به نحو الدفاع العنيف عن النفس. وجذبت حالات الإعدام على الملأ أعداداً غفيرة من الجمهور، وكان المجالدون رموزاً جنسية. وعلى الرغم من أن وصية «لا تقتُلْ» لم تكن قضية في حقيقة الأمر لجندي الفيلق، فإن طرح السؤال المتعلق بتطبيق فكرة مارشال على العالم القديم لم يكن مضيعةً للوقت. وعندما ننظر إلى العالم القديم بوصفه مختلفاً عن عالمنا، سنعرف أشياء عن الطرفين.

حرب الحصار

لقد كانت الحصارات الملحميَّة مشهورة من وجهة نظر الحضارات الكلاسيكية في تاريخها المبكر، ومنها حصار طروادة الملحمي الذي امتد 10 سنوات بالنسبة إلى اليونانيين، وحصار فاي Veii بالنسبة إلى الروم، الذي يُشتبه أيضاً أنه استمر 10 سنوات. ورغم ذلك، فقد تخلفت اليونان وروما عن الشرق الأدنى في تطوير حرب الحصار، إذ كان الفرس الذين غزوا اليونان عام 480 ق.م مُجهَّزين بجميع تقنيات الحصار المعروفة لدى العالم القديم، فيما خلا تقنية واحدة، ألا وهي المدفعية التي تعمل باللَّيِّ، التي استُخدمت لضرب الجدران بأحجار ضخمة، والتصدي لجنود الأعداء بأحجار أو مسامير. ويُنسب اختراع هذه المدفعية إمَّا إلى بلاط ديونيسيوس الأول Dionysius I حاكم سرقوسة (405-367 ق.م) وإمَّا إلى بلاط فيليب الثاني المقدونيِّ (359-336 ق.م). ونقَّحَ الروم التقنيات الحالية، ومنذ عهد الزعامة فصاعداً تمتعوا بميزة في حرب الحصار تفوقوا بها على جميع معاصريهم، فيما عدا الفرس الساسانيين.

لقد كان من أَمارات المؤرخ البارع في العالم القديم أن يدون وصفاً لمشهد رائع لأحد الحصارات. ومن بين الأوصاف الأدبية في هذا السياق، تتجلى خصيصاً أهمية وصف ثوقيديدِس لمعركة بلاتايا (431-427 ق.م)، ووصف ديودور الصقلي لمعركة رودس (305-304 ق.م)، ووصف

يوليوس قيصر لمعركة أليسيا (52 ق.م)، ووصف يوسيفوس Josephus لحصار أورشليم (70م)، ووصف أميانوس مارسيلينوس لحصار آميدا (359م). ويمكننا بناء صورة مُركَّبَة للحصار استناداً إلى هذه المشاهد الوصفية والأدلة الأثرية التي بين أيدينا (من المواقع ذات الأهمية الخاصة، مدينة دورا أوربوس [الصالحية] الواقعة على نهر الفرات ومنطقة جبل متسادا في إسرائيل).

وللسيطرة على مدينة مُحصَّنَة بأسوار أو قلعة، كان على المهاجمين اختراق دفاعاتها أو الارتقاء فوق تحصيناتها أو التسلل من تحتها. وكانت أعمال الحفر مُخصصة للخيار الأخير. فقد حُفرت أنفاق تحت أرضية كان لها غايتان: الأولى تمكين الجنود من التسلل وراء دفاعات العدو، والثانية خلق ثغرة في تلك الدفاعات عن طريق إضعافها وتقويضها. ومن بين الطرائق الأخرى لخلق ثغرات إضعافُ قواعد الأسوار على يد المهندسين العسكريين باستخدام الفؤوس والمعاول أو مِدَقَّات الجدران أو بالمدفعية الراجمة بالأحجار، إن وُجِدَت. واقتضى تسلق الجدران جَلْب سلالم التسلق أو أبراج الحصار المُتحركة أو عوارض تحميل ترابية أو خشبية. وكان المهاجمون يستعينون بقوات القذائف والمدفعية التي يملكونها في محاولة للحيلولة دون اعتراض العدو عملياتهم.

وقلما استسلم المدافعون. فربما حفروا أنفاقهم الخاصة، إمَّا في محاولة منهم لإضعاف ممرٍ منحدرٍ، وإمَّا لاختراق نفق المهاجمين وتدميره. وتمثّل جثامين الجنود الروم والفرس الساسانيين الدفينة في مدينة دورا أوربوس شهادةً ناصعة على فظائع هذا القتال تحت الأرضي. فربما استُخدمت الخطاطيف أو السلاسل لمحاولة «اصطياد» مِدَقَّات الأبواب والجدران، ومن ثم عرقلتها، أو ربما أُنزلت «حشوات» أمام الجدران لامتصاص أثر ضربات المِدَقَّات أو المقذوفات. وربما بُني جدار ثانٍ أو ثالث وراء الجانب المُهدد بحدوث ثغرة فيه. وكان المدافعون يستخدمون أيَّ نوع من المقذوفات لعرقلة جهود المهاجمين. وفي أيِّ مرحلة، ربما تسلل المدافعون من بين جدرانهم، وحاولوا نشر الفوضى بين صفوف القوة المُحاصِرَة.

وتُظهر لنا القصص القديمة التي تتناول اختراعات أرشميدس الرائعة-وغير المنطقية عادةً- للدفاع عن سَرَقُوسَة أمام الروم (213-211 ق.م) أنَّ حرب الحصار كانت تُدار بأحدث التقنيات العتيقة. ورغم ذلك، فقد سقط كثير من البِقاع التي حظيت بدفاعات بسبب عامل المفاجأة أو الخداع أو الخيانة أو أرغمتها المجاعات على الاستسلام ورفع الراية البيضاء.

لقد كانت الحصارات باهظة التكلفة، وتطلبت مستوى عالياً من التعقيد اللوجستيّ. وغالباً ما كانت تستمر لفترة طويلة اقتضى الأمر عادةً خلالها دفع أجور الجنود وإمدادهم بكميات كبيرة من المؤن، بما في ذلك الطعام والأعلاف للقوة المحاصِرة، وكذلك المواد الخام التي تُستخدم لإنجاز أعمال الحصار، وغالباً ما كانت تلك المواد تُنقل لمسافات طويلة. ولم يكن في الإمكان مصادرة كل هذه الإمدادات ووسائل النقل، وإنما اقتضى الأمر دفع أموال مقابل بعضها. لقد استنفد حصار بوتيدايا Potidaea (432-430 ق.م) خُمسيْ احتياطيات أثينا وهي في قمة ازدهارها ورخائها. وفي المقابل، فإن الحصار الناجح يمكن أن يتمخض عن كميات مهولة من الغنائم، بما في ذلك العبيد.

لم تسرِ القوانين الاعتيادية للحرب على حرب الحصار. ويمكن طرح العديد من التفسيرات التي تعلل كون الاقتتال في أثناء الحصارات أكثر دمويةً بكثير من غالبية المعارك البرية. ومن تلك التفسيرات، قصور سيطرة القادة القدماء حينما يتشتت جمع جنودهم في مناطق عُمرانية. وثمة تفسير آخر يستحضر نظريات بيولوجية، ومنها: الآلية المسماة «إمَّا الكرُّ وإمَّا الفرُّ» التي تظهر عندما يُحاصر عدد كبير من البشر أو الجرذان العدوانيين في مكان ضيق جداً. وثمة تفسير ثالث مفاده أن الجنود كانوا يحاولون إعادة تأكيد سيطرتهم على المعركة التي حوَّلَ المهندسون مسارها في أثناء الحصار. وهناك تفسير آخر يمكن طرحه، فلقد كانت الحروب البرية القديمة تضع أوزارها بسرعة، وتحديداً في غضون يوم أو اثنين أو ثلاثة أيام على أكثر تقدير. أمَّا الحصارات، فتستمر أسابيعَ أو شهوراً أو حتى سنين. وخلال هذه الفترة، كان المحاصِرون عُرضة لخطر دائم من هجمات العدو ومن خطر الإصابة بالأمراض البادية بوضوح. وربما نبعت حالات المغالاة في الوحشية التي مُورست في أثناء نهب المدن من رغباتٍ في «الانتقام» من عدو يُعتقد أنه عرَّضَ القوات المُهاجمة لحالة ممتدة من الخوف.

الحروب البحرية

فكِّر في سفينة حربية يونانية (انظر شكل 10). هذه هي سفينة «أوليمبياس» (Olympias) التي أُعيد بناؤها على الطراز الحديث لسفينة أثينيَّة ثلاثية المجاديف. والسفينة أوليمبياس انتصار لعلم الآثار التجريبيِّ الذي يستند إلى مجموعة متنوعة من التخصصات المختلفة، بما في ذلك التطويرات الأخيرة في التنقيب عن الآثار تحت الماء. ومع ذلك، فلا يمكن أن تطلعنا السفينة أبداً على الإمكانات الكاملة للسفينة الثلاثية المجاديف. إن لأطقم السفن الحديثة بِنى جسمانية مختلفة عن الأطقم القديمة، وهي تفتقر إلى المهارات التي ورثتها تلك الأطقم. وما من أحد سيقترح أن السفينة أوليمبياس خضعت لاختبارات نالت منها حد الدمار، وهي ليست جزءاً من المشروع المُراد منه معرفة قدرة طاقم السفن الثلاثية المجاديف على الصمود في مواجهة الغرق.

وعلى الرغم من أنَّ السفن الثلاثية المجاديف استعانت بالأشرعة، كما هو مبين في الصورة، فلم تكن الأشرعة العامل الرئيس لدفعها إلى الأمام، وعادةً ما كانت تُترك على الشاطئ قبل المعركة. لقد كانت السفينة الثلاثية المجاديف سفينة شراعية ذات مجاديف ومنجنيق، يُحرك مجاديفها 170 رجلاً مُنظمين في ثلاثة صفوف. وكانت هناك طريقتان للقتال باستخدام السفن الثلاثية المجاديف. ركزت مدرسة القتال «الخفيف» على المناورات البارعة، وسعت إلى استخدام المِدَقّ لإحداث فجوة في سفينة العدو وملئها بالماء، أو لشلِّ حركة العدو بالإطاحة بمجاديف أحد جانبي السفينة. لقد كانت تكتيكات المدرسة «الخفيفة» دليل الطريق ومناورة لتطويق العدو واختراق خطوطه ومحاولة للتوغل في صفوفه في أثناء المعركة. وأحياناً كانت مدرسة القتال «الثقيل» تعزز مقدمات السفن الثلاثية المجاديف، وتبادر إلى الصدامات بالمِدَقّات، لكنها اعتمدت بشكلٍ اعتيادي أكثر على الاشتباك والاقتحام. ولو هدد السفن أسطول فائق المهارات، فربما تبنت تشكيلةَ الحلقة المُغلقة، إذ تتجه مِدَقّاتها نحو الخارج.

ويرجع أقدم ذكر للسفينة الثلاثية المجاديف إلى منتصف القرن السادس قبل الميلاد. ومنذ ذاك الحين وصولاً إلى القرن الرابع قبل الميلاد، كانت السفن الثلاثية المجاديف السفن الحربية القياسية في البحر الأبيض المتوسط. وبعد تلك الحقبة، هيمنت على الساحة سفن أثقل وزناً، ركزَّت على الاقتحام أكثر من المناورة. وكان لتلك السفن أسماء عدديَّة؛ «رباعية» و«خُماسية»، إلخ. ومن الأرجح أن تلك السفن كانت تُدفع بالمجاديف من ثلاثة مستويات، ولكن بأكثر من مُجدِّف واحدٍ على جميع المجاديف أو على بعضها.



10. نموذج لسفينة أوليمبياس الثلاثية المجاديف التي أعيد تشييدها

بُنيت الأساطيل الرومية والقرطاجيَّة للحروب البونية من سُفن خماسية المجاديف (Quinqueremes)، ونَزَعَت الأساطيل الرومية في الحروب الأهلية للقرن الأخير قبل الميلاد إلى الاستعانة بسفن أكبر حجماً. وفي عهد الزعامة، مع غياب أيِّ تهديد بحري يؤبه له، كانت الأساطيل الرومية تتكون في المقام الأول من سفن أصغر حجماً، بما في ذلك السفن الثلاثية المجاديف. ولقد سمعنا آخر مرة عن سفن ثلاثية المجاديف عاملة في حرب أهلية رومية عام 323م (زوسيموس Zosimus 2.22.2؛ 2.23.3-4). وبحلول القرن الخامس، قيل لنا إن تقنيات بناء السفن الثلاثية المجاديف طواها النسيان (زوسيموس 5.20.3-4). وعندما شرعت الإمبراطورية البيزنطية مجدداً في بناء قوات بحرية كبيرة في القرن السادس الميلادي، كان تصميم بارجتها القياسية، وتُعرف باسم «الدرمونة»، مختلفاً كلياً عن تصميم القوادس الكلاسيكية.

وعُزي الانتشار الاستراتيجي المحدود للسفن الحربية القديمة إلى صلاحيتها القاصرة نسبياً للملاحة من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى افتقارها لأماكن التخزين. وعلى الرغم من أن السفن الحربية القديمة كان بمقدورها استيعاب تجهيزات لبضعة أيام، فإنَّ من الطبيعي أنْ ترسو على الشاطئ في منتصف اليوم لجلب الماء وكي يتناول طاقمها الطعام، وأن تبيت ليلتها لينام طاقمها على الشاطئ أيضاً. وعلى عكس السفن الشراعية البحرية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لم يكن في الإمكان تشغيل السفن القديمة فترةً طويلة بمعزل عن البر، ومن ثمَّ لم يكن بوسعها ضرب حصار على شاطئ بعيد.

لقد اقتضت الحروب البحرية، شأنها كشأن حروب الحصار، موارد كبيرة ووظفت أحدث تقنيات العالم القديم، ومن ثم كانت باهظة التكاليف. لقد خسرت أثينا خلال الحرب البيلوبونيزية أسطوليْن كبيريْن في حملة كارثية إلى صقلية (415-413 ق.م). وشيدت أثينا أسطولاً بديلاً بجهودٍ مالية عظيمة. لكن عندما دُمِّرَ هذا الأسطول في معركة أيغوسبوتامي (405م)، لم تستطع أثينا إعادة تشييده، ووضعت الحرب أوزارها. وكان خصوم أثينا الإسبرطيون في موقف مختلف، فمقابل التنازل عن أيِّ نية (ولو كانت كَذِباً) لتحرير يونانيِّي آسيا الصغرى، بدأ الإسبرطيون يتلقون دعماً مالياً فارسياً (412-411 ق.م). وعليه كان من الممكن أن يتكبد الإسبرطيون خسائر فادحة متكررة بحراً، كما حدث في معركة سيزيكوس (410 ق.م) ومعركة أرغينوز (405 ق.م)، لكنهم واصلوا المشاركة في الحرب، إذ كان بإمكانهم جلب سفنٍ وجنودٍ غير الذين خسروهم.

ويمكن بيان التكاليف الباهظة للأسطول بالنظر إلى استحداث نظام الخدمة الإلزامية الأثيني. كانت تلك الخدمة لوناً من ضريبة الثروات لسداد تكاليف تشغيل السفن الحربية. من الناحية النظرية، وفَّرَت أثينا بدن السفينة وحبال الأشرعة والصواري والأجور والمؤنة الخاصة بالسفينة الثلاثية المجاديف، في حين عُيِّنَ شخص أثينيٌّ خادماً إلزامياً ليعمل عمل القبطان ويدفع لقاء إصلاحات السفينة. أمَّا من الناحية العملية، فقد دفعت أثينا الأجور ووفرت الإمدادات بأثر رجعي، إذ دفعت نصف التكاليف مُقدماً في القرن الخامس قبل الميلاد، ولم تدفع شيئاً في القرن الرابع. ومال الخدم الإلزاميون إلى شراء حِبال الأشرعة والصواري الخاصة بهم، وتعيين الأطقم البارعة على نفقتهم الخاصة، طلباً لمجدهم الخاص وأمانهم البدني والمالي (إذ كانوا يخدمون على متن السفينة،

ويتحملون مسؤولية خسارتها). وبينما تداعت المكانة المالية لأثينا، أمسى من الأصعب العثور على أشخاص لشغل منصب الخادم الإلزامي. وخلال الحرب البيلوبونيزية، عُيّنَ رجلان (مواطنان خادمان للسفينة) لمشاطرة منصب خادم السفينة، وخلال العقد الممتد من عام 350 ق.م إلى عام 359 ق.م، صُنِّفَ أغنى 1200 رجل في أثينا ضمن 20 مجموعة (Symmoriai) تتحمل إجمالي تكاليف خدمة السفن الثلاثية المجاديف.

تتجلى التكاليف المالية لشَغْل منصب خادم السفينة الثلاثية المجاديف بإبداعٍ في خطبة ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد محفوظة ضمن أعمال الخطيب المفوه ديموستينيس (الخطبة رقم 50)، على الرغم من أنه ليس مؤلفها. لقد خُطَّت هذه الخطبة لأجل المصرفيّ الأثيني أبولودورس Apollodorus (وربما كتبها بنفسه). فقد جهَّزَ أبولودورس سفينته الثلاثية المجاديف بسخاءٍ وبذخ، إذ كان رجلاً ميسوراً ومواطناً جديداً يود أن يترك بصمته. لكن، أُسيء استغلال وطنية أبولودورس، فقد أُرسلت سفينته الثلاثية المجاديف، بوصفها واحدة من أفضل السفن تجهيزاً، بأوامر من قائده في حملات إضافية. وتضمنت تلك الحملات رحلة عودة إلى مدينة بيرايوس، وهي ميناء أثينا، فطالب طاقم أبولودورس بمزيدٍ من المال للصعود مجدداً على متن السفينة. وفي الخطبة، يرفع أبولودورس قضية طلباً للنفقات الإضافية التي تكبَّدها لأن خَلَفَه تجنب تولي مسؤولية السفينة لخمسة أشهر. ومع أنَّ خطبته كانت مُعبِّرَة، فلا ينبغي لنا عند مطالعتها أن نَعدَّها تحقيقاً غير متحيز، وإنما علينا ألا ننسى أنها خطبة مرافعة قانونيَّة مُصممة لإقناع هيئة محلفين.

ولمن المذهل أنَّ الروح المعنوية في المعارك البحرية القديمة نزعت إلى الارتباط بالسفينة لا بالمُجدفين. فعلى سبيل المثال، يمكننا الاستشهاد برواية ثوقيديدِس لهزيمة الإسبرطيين في نوباكتوس Naupactus عام 430 ق.م، إذ قال:

كان عُمال السفينة يصرخون ويهتفون ويمارسون أفعالاً مراوغة ويسيئون لبعضهم؛ ومن ثم لم يكونوا يصغون إلى أوامر القيادة أو رؤساء البحَّارَة. وبينما جعل المُجدِّفون غير المدربين السُفن لا تستجيب للدفة، إذ عجزوا عن تحريك مجاديفهم في المياه المُتلاطمة، في تلك اللحظة تحديداً... تحرك الأثينيون لضربنا. وفي خضم حالة الفوضى والهرج والمرج، لم تحارب أيٌّ من السفن الإسبرطية، وإنما لاذت جميعها بالفرار.

(ثوقيديدِس 2.84، مُقتطف مُقتضب بعض الشيء)

ولكي تفر السفن الإسبرطيَّة، لم يستسلم مجدفوها إلى حالة الذعر التي انتابت الواحد منهم، رغم قصور تدريبهم والمشاق الجسمانية التي واجهتهم، وإنما واصلوا العمل فريقاً واحداً. وارتبط انهيار الروح المعنوية بخُدَّام السفينة. ويمكننا أن نقترح تفسيراً لهذا الموقف بالنظر إلى بعض الأحداث التاريخية المُقارنة. ففي دراسة شيقة لسلاح البحرية البريطاني في القرن الثامن عشر، اكتشف المؤرخ نيكولاس آيه إم رودجر Nicholas A. M. Rodger أنه في ساحة المعركة، وعلى الرغم من أن بعض البحارة قد يحاولون مغادرة أماكنهم والتواري عن الأضرار المباشرة في

عنابر السفينة، فإن السواد الأعظم منهم، الذين لديهم تقييم محدود للمسار الكلي للقتال، ينشغلون في مهامهم أكثر من اللازم فلا يكون للخوف مجال للتسلل إلى قلوبهم. وكانت حال قادة السفن على النقيض تماماً، فقد امتلكوا رؤية جيدة للأحداث الأوسع نطاقاً، وكانوا في موضع مكشوف للعدو، وإذ لم يستدعِهم أحد لأداء أيِّ نشاط بدني مستمر، فإنَّ لديهم فسحة من الوقت للتفكير في المخاطر التي تهددهم، واتخاذ قرار بأن السيل قد بلغ الزبى. ويمكننا أن نتخيل أنَّ الظروف نفسها تقريباً انطبقت على قادة السفن الحربية القديمة وأطقمها، ولم يكن لدى السفن الحربية القديمة عنابر يحاول الجنود الاختباء فيها كذلك.

معسكرات الشتاء: استكشاف معركة وقيادة عسكرية

لقد أدى نقص الحبوب في شتى ربوع إقليم الغال، بسبب الجفاف الذي ضرب المنطقة صيف العام المنصرم (54 ق.م)، إلى أن يحيد يوليوس قيصر عن أسلوبه المعتاد، ويُقسِّم جيشه عندما دخل معسكرات الشتاء.

وفي مستوطنة أتواتوكا Atuatuca، في مكانٍ ما في أردين Ardennes، تألَّف أحد أقسام الجيش من فيلق تأسس مؤخراً في شمالي إيطاليا، وخمس كتائب رومية أخرى (تُعادل نصف فيلق) وبعض الخيَّالة الإسبانيين المُساعدين، والتمس الدفءَ والراحة في أكواخ خشبية مسقوفة، وتزود الجنود بالإمدادات الكافية، واحتموا بخندق ومتراس موقعهما حصين. وبدت قبيلة إيبورونوس المحلية طيِّعةً. ولقد التقى قائداها أمبيوريكس Ambiorix وكاتوفولكوس Catuvolcus بالروم على حدودهما، وجلبا الذرة إلى المعسكر. وبعد نحو 15 يوماً، بدا كل شيء مستقراً، وخرج فصيل من الجنود لجمع الحطب، وظل بقيتهم بلا سلاح في المعسكر، وإذا بهجوم يجتاحهم، فأبيد الفصيل بالكامل. وركض جنود الفيلق في المعسكر ليتسلحوا، وحاولوا أن يصدوا الهجوم، متخذين مواقعهم على المتراس. وعندما خرجت الجياد الإسبانية على حين غرة، وامتازت بميزة المفاجأة التي تحلى بها الخيالة الغاليُّون، تراجع رجال القبيلة.

طالب أبناء قبيلة إيبورونوس بالتفاوض. وبالاستعانة بوسطاء روم، عرَضَ أمبيوريكس-بعد أنْ أقسم على ذلك- أن يؤمِّنَ القوات المُحاصرة. وقال زعيم القبيلة الغاليَّة إنه لم يكن يود أن يشن هجوماً، وإن شعبه هو الذي مارس ضغوطاً عليه، وشجعه على التحرك جنرال صَعِدَ نجمه في شتى ربوع إقليم الغال. وتعرضت معسكرات قيصر كلها إلى هجمات، وعَبَرَت قوة ضخمة من الجِرمانيين نهر الراين، وصار بينها وبين أتواتوكا مسيرة يوميْن. وحدث شقاق عنيف بين القائدين الروميَّيْن في مجلس حرب الضباط الذي انعقد فور تلقي هذه الرسالة. فقد رأى كوتا Cotta أن من الضروري أن يلزموا أماكنهم. أمَّا سابينوس Sabinus، فطالبهم بالرحيل، رافعاً صوته كي يُسْمِع الجنود. وعند منتصف الليل، أذعن كوتا، وأُعلن عن نية الرحيل عند الفجر. وأمضى الجنود بقية الليلة في تبادل أطراف الحديث وتَفَقُّد أغراضهم ليقرروا أيَّ الأشياء سيتخلون عنها ويتركونها في المعسكر.

وعندما انبلج الصبح، خرج طابور شارد من الجنود المنهكين المثقلين بالأمتعة متجهاً نحو مشهد طبيعي حافل بالأشجار. وبعد ميليْن، دخل الجنود مضيقاً جبلياً وعراً. وبينما حاولت طليعة الجيش أن تتسلق المرتقى، نُصِبَ الكمين. لقد كذب أمبيوريكس؛ فلم تندلع ثورة عامة في إقليم الغال، ولم يسارع الجِرمانيون إلى دعمها وتعزيزها.

لقد قادَ قبيلته إلى الهجوم، ولم تكن لديه نية الالتزام بضمان المرور الآمن. وأنبأت الجلبة التي حدثت في معسكر الروم أبناء قبيلة إيبورونوس بأن الروم سيتحركون صباح ذاك اليوم.

ولمَّا تعرَّض الجيش للهجوم من جميع الجوانب، تصرَّفَ الجنرالان الروميان بشكل مختلف تماماً. فراح سابينوس يجول في الجيش مُصدراً أوامرَ عقيمة بنشر الكتائب هنا وهناك. أمَّا كوتا، فألقى كلمة في الجنود لرفع روحهم المعنوية وتشجيعهم، وحارب كأيِّ جندي. وبينما جعل طولُ الطابور العسكري الإشرافَ الفعال مستحيلاً، أمرَ الجنرالان رجالهما بتشكيل مربع. لقد شجَّعت هذه المناورة التي فاحت منها رائحة اليأس العدوَّ لا أكثر، وأتت على الروح المعنوية للروم. وفي خضم فوضى الصياح والنواح، تخلى الجنود الروم عن مراكزهم في محاولات لاستعادة أغراضهم الثمينة من عربات الأمتعة، وأطاع أبناء قبيلة إيبورونوس قادتهم وحافظوا على صفوفهم، ولم يحاولوا نهب الأمتعة الرومية. ولمَّا رأى أمبيوريكس أن الروم ما برحوا يتسببون في العديد من الإصابات في المعارك الالتحامية، أمر رجاله أن يقاتلوا بالمقذوفات من مسافة بعيدة. ولم تستطع الكتائب التي شنت الهجوم اللحاق بالغاليين الذين تحسنت قدرتهم على الحركة بسبب خفة عتادهم وتدريبهم اليومي. ورُجِمَ الروم المهاجمون بالقذائف من جانبهم الأيمن غير المحميّ، وعندما حاولوا التراجع، أُحيط بهم وانقطعت بهم السبل. ولثماني ساعات تقريباً، تلقَّى الذين ظلوا متراصفين في مُربعٍ سيلاً من القذائف. واستجابةً لطلب من سابينوس، قال أمبيوريكس إنه لو شاء الجنرال أن يتشاور ويتفاوض، فسيضمن له الإبقاء على حياته، وسيحاول إقناع رجال قبيلته بالإبقاء على حياة بقية الروم. ورفض كوتا، الذي أصيب وجهه برمية مقلاع، التفاوضَ مع العدو تحت تهديد السلاح. وأمر سابينوس أولئك الضباط القريبين إليه بمرافقته. ولمَّا أمر أمبيوريكس الفصيل الرومي بإلقاء أسلحته، أطال المفاوضات حتى حوصر الفصيل وأُبيد على بكرة أبيه. وفور مقتل سابينوس، عاود الهمج الهجوم وقد علت أصواتهم بالصيحات التقليدية والتحموا في قتال مباشر، ولقي كوتا حتفه وهو يقاتل.

ولقد استطاع بعض الروم أن يشقوا طريقهم قتالاً عائدين إلى معسكرهم، وضحَّى حامل الراية بنفسه، فأنقذ النسر الفيلقيَّ، وصمد بقية الجنود حتى أسدل الليل أستاره. ولمَّا أدركوا أنهم في وضع ميؤوس منه، نحر بعضهم بعضاً تلك الليلة حتى آخر رجل منهم. ومن بين الجيش كله، تبقت على قيد الحياة طائفة قليلة منه تسللت عبر الغابات.

إننا على دراية تامة بالكارثة التي وقعت في أتواتوكا شتاء عام 54-53 ق.م. فكثير من المصادر القديمة تسرد قصة الكارثة. ومع ذلك، فكلها مُستخلصة من نص وحيد، ألا وهو «تعليقات» يوليوس قيصر (الحرب الغاليَّة 5.24-37). ويمكن وصف تلك التعليقات بالدعاية، بمعنى أنَّ قيصر كان يسعى إلى إقناع قُرائه الروم بشرعية أفعاله وعظمتها. وليس بوسعنا الجزم بعدد جنود الفيالق، ومن ثمَّ أعداد المواطنين الروم، فضلاً عن جنود القوات الإضافية الذين لقوا حتفهم في

أتواتوكا. ولعل الفيلق في تلك الحقبة كان قوامه خمسة آلاف جندي. وزيد عدد الفيلق الأساسي في هذه القوة مؤخراً، ومن ثمَّ فالأرجح أنه لم يمض عليه وقت طويل يجعله يصل إلى مستويات نقص الأفراد التي يبدو أنها كانت شائعة. ووفقاً لأيِّ تقدير، فإن آلاف المواطنين تحت القيادة النهائية ليوليوس قيصر نُحرت أعناقهم، وأُنيط بقيصر تفسير الكارثة، ومن المدهش أن نرى كيف سعى إلى تخليص نفسه من الشعور بالذنب وتأنيب الضمير.

أولاً، جشَّمَ قيصر نفسه عناء إثبات مدى دقة روايته للأحداث، فهو يعرف ما حدث من الطرفيْن. لقد فرَّ النفر القليل من الروم إلى معسكر نائب آخر يُدعى لابينوس Labienus أرسل بدوره خطاباً إلى قيصر قَصَّ فيه روايتهم. وفي وقت لاحق، عندما أَسَرَ قيصر بعض أبناء قبيلة إيبورونوس، أحاط علماً بمزيد من التفاصيل، وأخطرنا بأنه اتجه لاحقاً إلى أتواتوكا. وثانياً، حاول قيصر أن يثبت أنه أخذ جميع تدابير الحيطة والحذر. وأجبرته الحاجة إلى المؤنة على تقسيم جيشه. ومع ذلك، فقد حرص قيصر كل الحرص على ألا تكون جميع المعسكرات الشتوية بعيدة جداً عن بعضها، وبقيَ في إقليم الغال حتى علم أن جميع المعسكرات حصينة ومزودة بكل ما تحتاج إليه. وثالثاً، أنحى قيصر باللوم كله على سابينوس (سنرى أدناه كيف صوَّرَ قيصر تصرفات الجنود). لقد شابَ سلوكَ سابينوس الغباءُ والحمق؛ فلو كان من الغباء الوثوق بغاليّ مرة واحدة، فإن من أشدِّ الغباء الوثوق به مرة ثانية بعد أن نقض عهده. ولقد تجلت على سابينوس أمارات الديماغوجية في المجلس، إذ رفع صوته كي يستطيع الجنود العاديون سماعه.

وأصابه الذعر عندما نُصب لهم فخ وأُحيط به وبجنوده. وكان هناك تلميح بالاتهام بالجُبن القائم على التآمر. فعندما طلب سابينوس من كوتا الانضمام إليه في المفاوضات مع أمبيوريكس، أخفى سابينوس حقيقة أنَّ الغاليِّين وعدوه بالفعل بالعفو عنه وإنقاذ حياته وحده دون غيره من الروم. وفي النص (5.52)، ينصح قيصر جنوده لاحقاً بألا ينال منهم اليأس والقنوط بسبب هذه الكارثة، ويقول لهم إن اللوم كله يقع على سابينوس وغدره وخداعه. ويتجلى الأداء البشع لسابينوس في النص إذ يتابع قيصر مادحاً باستفاضة (5.39-52) الأداء المتميز لكوينتوس شيشرون (شقيق الخطيب المفوه الشهير) تحت ظروف تكاد تكون متطابقة؛ فعندما تعرض معسكره للهجوم، رفض عروض الغاليين، ودافع ببسالة منقطعة النظير حتى أنقذه قيصر.

وبعيداً عن الجفاف الذي ضرب البلاد عام 54 قبل الميلاد وتجليه في سِجِل حلقات الأشجار، لم يقدِّم لنا علم الآثار أيَّ دليل مباشر على وقوع المعركة. فكثيراً ما يُشار إلى أتواتوكا بأنها مدينة تونجيرين الواقعة في بلجيكا، في حين أنَّ التفاصيل التضاريسيَّة الشحيحة والمفتقرة إلى الدقة التي قدمها قيصر لا تسمح بأيِّ درجة من اليقين. لقد كان من مصلحة قيصر التركيز على القوة الطبيعية لموقع معسكرات الشتاء، وكانت منطقة أردين حافلة بالممرات الضيقة الكثيفة الأشجار. وعلى النقيض من هذه المعركة، نجد أن موقع كارثة مثيلة تمخّضَ مؤخراً عن الكثير من الأدلة، ولقد كانت أكبر حجماً، ولحقت بقوةٍ رومية بقيادة فاروس عام 9م في غابة تويتوبورغ الألمانية الواقعة خارج مدينة كالكريسي Kalkriese الحديثة. ومن بين الأشياء العديدة التي عُثر عليها بين المعدات الرومية شيء مُحزن جداً، ألا وهو الهيكل العظمي لبغل نقل الأمتعة. ولقد وُجِدَ أنَّ الجرس البرونزي الكبير المحيط بعنقه محشوٌّ بالقش في محاولة لكتم صوته كيلا تنكشف حركات

الجيش. لو عددنا ما يطلق عليه علماء الآثار تشكيل موقع أثريّ (وهو في هذه الحالة ما حدث للموقع عموماً خلال الفترة الفاصلة بين وقوع الحدث واكتشافه أو التنقيب عنه)، فسيصبح المصير المتناقض لساحتيْ المعركتيْن في السجل الأثري واضحاً. وعلى الرغم من أن ثمة حملة رومية لاحقة بلغت موقع هزيمة فاروس ودفنت بعض جثامين القتلى، فقد ظل موقع ساحة المعركة خارج الإمبراطورية في إقليم القبائل الجِرمانية الحرة، ويبدو أن الجرمانيين تركوا جثامين الروم وبعض معداتهم في أرض المعركة هبةً للأرباب.

بالنسبة للجرمانيين، أمسى موقع المعركة مُقدساً، وأصبح ذكرى باقية لانتصارهم. وكانت تبعات المعركة مختلفة تماماً في أتواتوكا. فقد أعاد الروم احتلال تلك المنطقة في غضون أسابيع، وظلت داخل إقليم بلجيكا الغاليَّة لقرون بعدها. وكانت لدى الروم أسباب تتجاوز الورع والتقوى لدفن موتاهم وتطهير ساحة المعركة.

إن الأحداث التي وقعت في أتواتوكا تُذَكِّرنا كثيراً بأهمية الخدمات اللوجستية في الاستراتيجية والتكتيكات القديمة. فالحاجة إلى العثور على الإمدادات أجبرت قيصر على تقسيم جيشه، وأسهم قطار الأمتعة الطويل جداً في هزيمة سابينوس. وإن الرد بقوةٍ على هجوميْن غاليَيْن على المعسكر المُقام في أتواتوكا، ودفاع كوينتوس شيشرون الناجح عن معسكره الذي تعرَّضَ لأيامٍ من الهجوم المتواصل من جحافل الهمج، يشيران إلى التفوق الذي تمتع به الإغريق والروم في حرب منذ القرن الرابع قبل الميلاد فصاعداً، على الحضارات الأخرى المعاصرة لهما كلها. ويبدو أن من بين الثوابت القليلة جداً الهادفة على مر قرون الحروب قدرةُ القوات النظامية المُجهزة تجهيزاً قوياً داخل التحصينات على تحدي أعداد غفيرة ظاهرياً من المقاتلين غير النظاميين. لقد أثبتت معركة أتواتوكا إمكانات التضاريس في المعارك القديمة. فعلى المنحدرات الوعرة ذات الأدغال، لم يستطع الروم المدججون بالسلاح الإمساك بالغاليّين الأقل تسليحاً الذين كانوا يألفون تلك الظروف القاسية. وأجبر نَشْرُ القواتِ في مساحة محدودة من الأرض المسطحة المكشوفة في قاع الممر الضيق الرومَ على التراصِّ عن قُرب شديد حتى إنهم عجزوا عن القتال بفاعلية، فصاروا هدفاً يسيراً للقذائف. ورغم أهمية العتاد، نجد في رواية قيصر أنَّ الروح المعنوية هي التي تحدد النجاح أو الفشل. يشير قيصر إلى الإنهاك بصفته عاملاً مهماً في تقويض إرادة القتال. وبَلَغَنا أن الغاليين ضارعوا الروم شجاعةً، وأن أثر الروح المعنوية على الجانبين المترتب على مقتل سابينوس وضباطه كان نقطة تحوُّل في المعركة. ويشهد ذلك على طبيعة «التقنية المتدنية» نسبياً للمعارك البرية القديمة.

إن استقرار رأي آخر الجنود الروم على الانتحار الجماعي عوضاً عن محاولة الاستسلام يظهر بوضوح الطبيعة الهمجية لخصومهم. وإنَّ هذا لصدامُ حضارات بين الذين يقاتلون «بطريقة الحرب الغربية» ومَن سواهم. يتماشى جزء كبير من رواية قيصر للغاليّين في هذه المعركة مع القالب التقليديِّ لشخصية الهمجيّ، فهم يكذبون ولا يعتنقون ديناً، وينقضون عهودهم. وفي المعركة، تسمع لهم صخباً وضجيجاً، وتراهم يفضلون الفخاخ والقتال عن بُعد على القتال الالتحامي الصريح. ورغم ذلك، يتلاعب قيصر أيضاً بتوقعات جمهوره. وعلى الرغم من أنه يشدد على الشجاعة الجماعيَّة للروم، ويسرد علينا مقتطفات لبطولات فردية، فإنهم يتصرفون بين الفينة

والأخرى كالهمج. فجنود الفيلق افتقروا إلى الانضباط: أولاً عندما تبادلوا أطراف الحديث طول الليل، فأنهكوا أنفسهم ونبَّهوا العدو، وثانياً عندما تركوا مواقعهم في أرض المعركة وهم يصرخون وينتحبون لإنقاذ ممتلكاتهم الشخصية. وفي المقابل، تصرَّف الهمج في بعض الأحيان تصرفات أشبه بالروم، فقد كانوا يتدربون يومياً، ويطيعون الأوامر الصادرة إليهم، ويحافظون على مراكزهم في صفوفهم بدلاً من نهب أمتعة الروم فُرادى. إن قَلْب قيصر للتوقعات الثقافية الكلاسيكية يُمسي مقبولاً بقدر أكبر لدى جمهوره بسبب المعلومات التي تفيد بأن الفيلق الرومي الرئيس يتكون من مُجندين جُدد، إذ يتسق والمنطق أنهم لم يَبْلغوا بعد مرتبة الانضباط الرومي. لكننا نراه في تحليله الأخير لا يلقي اللوم على القوات وإنما على قائدهم سابينوس.

من بين أبرز سمات رواية قيصر لمعركة أتواتوكا حُكمه على تصرفات جنرالَيْن روميَّيْن. فلقد قال عن سابينوس، الجنرال الذي يخالفه قيصر الرأي: «طفق يركض جيئة وذهاباً، وينظِّم الكتائب، لكن حتى هذه المهمة اضطلع بها بعصبية وبطريقة أثبتت أنه فقد صوابه، وهو ما يحدث عادةً لمَن يضطرون إلى اتخاذ قرارات بعد أن تكون المعركة قد بدأت بالفعل». في حين قال عن كوتا، الجنرال الذي يُزعم أنه سَلَكَ المسلك القويم: «بذل كل ما في وسعه لإنقاذ الجيش، فنادى على الرجال وبث فيهم روح الشجاعة والجسارة، وهو ما يفعله قائدهم الأعلى [يوليوس قيصر] نفسه لو كان مكانه، وقاتل بين الصفوف كأي جندي عادي» (5.33، ترجمة إتش جيه إدواردز). قد يرى القارئ الحديث أنه لو وقع جيشه أسير فخ والجيش خارج التشكيل ومحصور على هيئة طابور مُهلهل، فإن محاولة تحقيق شيء من النظام التكتيكيّ لن تقل أهمية عن كلمات التشجيع وإضافة جندي واحد إلى خط القتال، إن لم تكن حتى أهم من ذلك التشجيع. لكن هذا ليس رأي قيصر. ويُذَكِّرنا ذلك بأن الزعامة-على النقيض من المواد التي خُطَّت وتناولت الموضوع- ليست نشاطاً جامداً ثابتاً عموماً. فما يفعله الجنرالات، وما يُتوقع أن يُقدموا عليه من فعل، في المعارك هو نتاج ثقافتهم.

إن القادة أبطال في إلياذة هوميروس. وفي مقدورهم اتخاذ قرارات تكتيكية قبل المعركة وخلالها. يسدي نستور Nestor النصح إلى زملائه من القادة الإغريق بشأن رسم خط المعركة (2.362-8)، ويُوصَف وهو يُنظِّم صفوف رجاله (4.293-309). وفي أثناء القتال، ينظِّم هكتور جنود طروادة على هيئة خمس وحدات استعداداً للهجوم على معسكر الأعداء (12.81-7). لكن هذه فقرات استثنائية في قصيدة طويلة. وعادة ما يتحرك الأبطال الذين يُفهم من السياق أنهم مصحوبون دوماً بحاشيتهم حول ساحة المعركة، أو حتى بعيداً عنها تماماً، حسبما يتراءى لهم. إن قيادتهم تعتمد على أنْ يكون الواحد منهم نموذجاً يُقتدى به، فيحاول أن يشجع المقاتلين بكلماته ويثبط عزيمة الخصوم، في حين يسعى إلى المجد في القتال الشخصي. وهم ينتمون إلى فئة القادة الذين دائماً ما يشاركون في المعركة، مع أن مشاركتهم لا تكون ليل نهار.

لقد وقعت تغيرات ربما أقلَّ مما توقعنا حدوثه مع نشأة كتيبة الرمَّاحين، فقد كان جنرال الرمَّاحين مشغولاً برسم خطوط القتال في المعركة. وشارك في ذبيحة على سبيل التضحية للتعرف على موقف الأرباب و/أو نيل رضاهم وبركتهم. ولا ينبغي لنا من باب التقمص العاطفي أن نصرف النظر عن هذه الظاهرة بوصفها مهزلة، إمَّا لأنها تبدو غريبة جداً علينا، وإمَّا لأن «النتيجة» في

بعض الأمثلة كانت تتعرض للتزوير. كان الجنرال يلقي خطبة على جنوده. ولا ينبغي نبذ واقع هذه الممارسة على أساس أنَّ الخُطب التي تُلقى قبل المعركة الموجودة بحوزتنا في نصوص أدبية هي من تأليف المؤلف لا الجنرال، أو بسبب الصعوبات العملية التي تكتنف محاولة الجنرال إيصال صوته لكثيرين في جيش ضخم. لقد أعطى الجنرال إشارته للكتيبة بالتقدم. وجاء هوميروس على ذكر الجنرال، ومن ثمَّ أدت الحاجة الماسة لتشجيع المقاتلين، ورغبة الجنرال في إثبات ذاته بين أفضل الرجال، إلى مشاركته في القتال في الصفوف الأمامية. ويُعتقد على نطاق واسع أنَّ هذه الظاهرة، في غياب هيكل قياديٍّ واضح وقصور تدريب الجنود، في جميع الجيوش فيما خلا الجيوش الإسبرطيَّة، حالت دون تنفيذ أيِّ مناورة تكتيكيَّة تقريباً في معارك كتائب الرمَّاحين خلال أول ظهور لها بين عامي 725 و431 ق.م تقريباً. تقدمت الكتيبتان في مواجهة بعضهما مباشرةً. ويبدو غريباً بالنسبة إلينا أنه بالتزامن مع التحوُّل من المعارك الهومريَّة (نسبةً إلى هوميروس) إلى معارك الرمَّاحين، وهو الذي يمكن أن يُعدَّ تحولاً من المعارك «البدائية» إلى «المُتمدنة»، ظل العنصر الرمزيُّ لدور الجنرال ثابتاً، في حين تراجع الجانب العملي له نوعاً ما، إذ تضاءلت قدرته على إعادة تنظيم صفوف المقاتلين فور انضمامه إلى القتال.

لقد شهدت الفترة الممتدة من الحرب البيلوبونيزية تقريباً (431-404 ق.م) إلى القرن الرابع قبل الميلاد تعقيداً متزايداً على ساحة المعارك اليونانية، إذ ظلَّ الرمَّاحون قوام جيوش المدن اليونانية، ولكن أُعطيت أدوار أكبر للخيَّالة والمشاة الخفيفين، وجُرِّبَت تكتيكات أعقد. فعلى سبيل المثال، وفي معركة مانتينيا عام 362 ق.م، استهل أبناء مدينة ثيفا الحرب بهجومٍ للخيَّالة والمشاة الخفيفين معاً، ثم شنوا هجوماً بجناح واحد لكتيبتهم، في حين «رفض» الجناح الآخر شن الهجوم. وفي القرن الرابع قبل الميلاد، ظهر الأدب الذي يستكشف نظرية القيادة العسكرية، وعلى رأسه أعمال مثل «عن قائد الخيَّالة وتعليم كورش الكبير» (On the Cavalry Commander and The Education of Cyrus)، للفيلسوف اليوناني زينوفون، وظهرت أفكار بدا أنها تقوِّض دور الجنرال بوصفه مقاتلاً فعلياً في الحرب. وقال الجنرال الأثيني إيفيكريتس Iphicrates إنه لم يكن خيَّالاً ولا رمَّاحاً ولا نبَّالاً ولا من حَمَلَة الأسلحة الخفيفة (المشاة الخفيفين)، وإنما كان شخصاً يعرف كيف يُوجِّه هؤلاء جميعاً (بلوتارك، مقولات الملوك والقادة 187B). لكن محاولات المناورة بعد التحديد المبدئي لخط القتال ظلت نادرة وتميل إلى إثارة الفوضى والتسبب في حدوث الكوارث. فمن بين أسباب هزيمة الإسبرطيين في معركة ليوكترا عام 371 ق.م، الاضطرابُ الذي وقع بسبب محاولة تغيير التشكيل الحربي بزيادة عمق كتيبتهم لحظة الاشتباك. وظلت الآمال مُعلقة على أنْ يتخذ الجنرال موقعه في المقدمة، وبدا أن كثيراً من الجنرالات ارتقوا إلى تلك الآمال. في معركة ليوكترا، بدا أن إبامينونداس Epaminondas، جنرال ثيفا، كان متخذاً موقعه في جبهة القتال، وإذا به في أثناء دفع الجنود دروعهم بأجسادهم يصيح قائلاً: «تقدموا خطوة واحدة [إلى الأمام] وسيتحقق لنا النصر» (بوليانوس Polyaenus 2.3.3). وحتى في هذه الحقبة، بدا أن جنرال الهوبلايت قائد يشارك عادةً في المعركة، ولو فعل فمن الأرجح أنه كان يشارك فيها حتى النهاية.

لقد كان ملوك مقدونيا ورثةً للفكر اليوناني القديم والحديث المتعلق بالقيادة والزعامة. وقيل إن الإسكندر المقدونيَّ كان ينام وتحت وسادته نسخة من الإلياذة، وإن فيليب الثاني وقع أسيراً في ثيفا

أيام القائد العسكري إبامينونداس. وكانوا أيضاً ورثة الفكر المقدونيِّ الأصلي الخاص بالمحاربين. فقد كان النموذج الثقافي المُعترف به ألا يرتدي المقدونيُّ حزامَ البلوغ حتى يقتل رجلاً في المعركة. وبالنظر إلى تلاقي هذين الفكريْن، لا عجب أنَّ الملوك اتخذوا مراكزهم في طليعة الجيش في المعركة، وتحملوا تبعات ذلك. لقد فَقَدَ الملك فيليب الثاني إحدى عينيه، من بين جروح أخرى، وعانى الإسكندر من ثقب في الرئة. وعلى الرغم من أن القادة المقدونيين قادوا الجيش من طليعته، فيبدو أنهم كانوا أقدر من القادة الإغريق الأسبق لهم على إجراء تعديلات تكتيكية في أثناء المعركة. ففي معركة خيرونيا عام 338 ق.م، استطاع فيليب الثاني وهو في مقدمة الجيش (بوليانوس 4.2.2) إقناع كتيبته بتنفيذ انسحاب تكتيكيٍّ عندما كانت مُشتبكة مع العدو (ديودور الصقلي 16.86.4). ولقد عُزيت إمكانية تنفيذ مثل هذه المناورات إلى ثلاثة عوامل: أولها أن الجيش المقدوني كان يتحلى فعلياً بتسلسل قيادي، وثانيها أن قواته كانت مُدربة تدريباً كافياً على تنفيذ الأوامر على أرض الواقع، وثالثها أن الملوك لا بد أنهم تمتعوا بفترة راحة من الحُكم إذ شاركوا في القتال بأنفسهم. فإمَّا أن يكون بإمكانهم أن ينسحبوا مؤقتاً عبر صفوف الجيش، وإمَّا أن تعود المعركة أحياناً، كما ذكرنا أعلاه، إلى «حالة افتراضية» حين ينفك الاشتباك مؤقتاً بين المقاتلين.

لقد حدث تغيُّر في نظرية الزعامة وممارستها في القرن الثالث قبل الميلاد، قرب بداية ما نُطلق عليه اسم الحقبة الهيلينيَّة في اليونان والجمهورية الوسطى في روما، لأسباب تقتضي مزيداً من الدراسة. فلم يعد من المتوقع في أثناء تسيير الأمور الاعتيادية أن يحتل الجنرالات مواقعهم في مقدمة الصفوف، وقليل منهم مَن فعل ذلك حقاً، وإنما شرعوا يتصرفون على النحو الذي يتصرف به غالباً مَن يُوصفون بأنهم «مديرو المعركة». فقد كانوا يتحركون بين الصفوف على ظهور جيادهم عادةً ووراء طليعة الجيش، ويراقبون التطورات ويشجعون المقاتلين ويصدرون الأوامر التكتيكيّة. ومن قبيل الملاذ الأخير فقط، كانوا يشاركون في القتال بأنفسهم، وفي مثل هذه الظروف غالباً ما كانوا يُقْدِمون على الانتحار. ويتجلى الفكر المتغيِّر بوضوح في النصيحة التي أسداها فيلو البيزنطي Philo of Byzantium (200 ق.م تقريباً) إلى جنرال كان يحاصر إحدى المدن:

أبقِ نفسك بعيداً عن مرمى النيران، أو تحرَّك بطول الصفوف دون أن تكشف عن هويتك، وأسدِ النصح لجنودك، وأثنِ على الذين يثبتون جسارتهم وجرأتهم وأغدق عليهم المديح، وعنِّف الجبناء وأنْزِل بهم العقاب. وبهذه الطريقة سيتصدى جنودك جميعاً للخطر قدر استطاعتهم.

(5.4.68-9)

واستمر أسلوب القيادة هذا طوال فترة الجمهورية الرومية المتأخرة وامتد حتى الإمبراطورية. وعبَّرَ أوناساندر Onasander عن الأساس المنطقي الكامن وراء هذا الأسلوب ببراعة في القرن الأول الميلادي، إذ قال: «طالما أن معرفة الجنرال أهم بمراحل من قوته الجسمانية، فإن ما يمكن أن يُعِين به جيشَه بالمشاركة في القتال أقلُّ بكثير من الضرر الذي يمكن أن يلحقه به إن لقي

حتفه» (33.1). ولقد أشاد العلم الحديث بيوليوس قيصر بوصفه تجسيداً للجنرال «مدير المعركة».

ربما يُنظر إلى التركيز الحديث على «إدارة المعركة» على أنه يضفي انحرافاً طفيفاً ينطوي على مفارقة تاريخية لتقديرنا للقيادة في هذه الحقبة. ويمكن تحليل دور الجنرال القديم في ساحة المعركة من ثلاثة جوانب: الجانب «الجسماني»، ويراد به المشاركة الفعلية في القتال؛ والجانب «العملي»، ويختص بإصدار الأوامر التكتيكيَّة؛ والجانب «الرمزي»، ويُعنى بالتصرفات الهادفة إلى تحويل دفة الروح المعنوية، كأن يمتطي القائد صهوة جواده برصانة ورباطة جأش على الأرض الفاصلة بين الجيشيْن، ويُرسل جواده ويخلع خوذته ويرفع رايةً ويأمر بجلب الأسلحة ويدفع المقاتلين للاصطفاف في الخطوط مجدداً أو حتى يقطع الطريق على رجل يحاول الفرار من ساحة المعركة، ويتواصل أيضاً مع الأرباب ويلقي خطباً رسميةً أو مُرتجلة.

ولقد رأينا بالفعل أن المشاركة «الفعلية» في القتال كانت نادرة، إذ كانت ملاذاً أخيراً لا أكثر، وبعدها كان الانتحار أحياناً هو الخيار المفضل. ولقد كان الجانب «العملي» بالطبع ذا أهمية لا سبيل لإنكارها، ولاسيما في المرحلة التجهيزية للقتال. فقد كان من المتوقع أن يبذل الجنرالات جهوداً حثيثة لبدء القتال في الزمان والمكان الذي يختارونه. وكان لطبيعة ساحة المعركة أثر جسيم. لمَّا وَجَدَ يوليوس قيصر جيشاً غاليّاً بلغ تَلاً كاد يكون محاطاً بالكامل بمستنقع شاسع، أحكم سيطرته على نفاد صبر قواته ورفض إعطاء إشارة البدء بالقتال (الحرب الغَاليَّة 7.18-9). لقد كان العامل الأساسي للجانب العملي للقيادة يتمثل في رسم الخطوط الأمامية للقتال في المعركة وإصدار الأوامر بالتحركات المخططة مسبقاً المزمع اتباعها فور الاشتباك في المعركة. ولمَّا عاينَ قيصر تصرفات العدو ونواياه صباح أحد الأيام في مدينة فارسالا، عدَّلَ خطوط القتال الأمامية وأصر على تعليماته بخصوص تحديد عناصر الجيش التي ستبادر بالهجوم استجابةً لأيِّ إشارة (الحرب الأهلية 3.89). وكان في الإمكان إصدار أوامر بتنفيذ مناورات تكتيكيَّة ارتجاليَّة في خضم القتال. وفي أثناء حصار أليسيا، عثر قيصر على موقع متميز أرسل منه مجموعة من التعزيزات تحت قيادة لابينوس إلى بقعة واحدة في المعركة، قبل أن يتحرك إلى بقعة أخرى أصدر منها أوامره بإرسال مجموعتيْ تعزيزات متعاقبتيْن لمكان آخر في المعركة، قبل أن يقود بنفسه مجموعة ثالثة هناك. ومرَّت هذه الأزمة، وبعدها أَمَرَ بعض القوات بمصاحبته، وأمر مجموعة أخرى أن تسلك مساراً مختلفاً إلى حيث أرسل لابينوس (الحرب الغاليّة 7.85-8). لا ينبغي لنا أن نستنتج تلقائياً أنَّ التحركات التكتيكيَّة الارتجالية كانت دائماً حكراً على الجنرال. فمعرفته بالمعركة كانت محدودة بما يرى ويسمع ويُقال له. وفي بعض الأحيان، كان قادةٌ غيرُه يتولون زمام الأمور. فعندما طُوّق خطُ القتال الثالث للجيش الروميّ في أثناء محاربة قبيلة هيلفيتيا، تحرك الجيش لمواجهة تحدٍ جديد. وجدير بالذكر أن قيصر، الذي لم يشتهر بالتقليل من شأن مشاركته الشخصية في المعارك، لا يُصرِّح بأنه أصدر الأمر (الحرب الغاليَّة 1.25). ولا ينبغي لنا أن نُسلِّم بأن جميع المعارك كانت تنطوي على أوامر تكتيكيَّة عفويَّة. فقد كان قيصر أحياناً «يتوارى عن الأنظار» في أقسام كبيرة من رواياته لمعاركه الخاصة (على سبيل المثال، الحرب الأهلية 3.67-71). وكان من المعترف به أنَّ الإفراط في توجيه الأوامر يمكن ببساطة أن يُربك الجيش، كما فعلت أوامر قيصر نفسه في معركة زيلا (الحرب الإسكندرية 75). وفي بعض المعارك، اختفى دور

«مدير المعركة» الذي كان يؤديه الجنرال بالكامل عندما تجاهلته القوات وتصرفت من تلقاء نفسها، كما اكتشف قيصر في معركة تابسوس في إفريقيا (الحرب الإفريقية 80-6).

لقد كان الجانب «الرمزيُّ» لدور الجنرال مناسباً دوماً، سواء من الناحية النظرية أو العملية، وسواء سارت الأمور على خير ما يُرام أم ساءت وتأزمت.

ولو ألقينا نظرةً ثانية على الفقرة المنسوبة إلى فيلو البيزنطيّ المُقتبسة أعلاه، لرأينا أنه يسلط الضوء على ضرورة أن يرفع الجنرال الروح المعنوية بالتحرك بين الصفوف وتبادل أطراف الحديث مع رجاله. وفي سياق عرض قيصر أنشطتَه في المراحل اللاحقة لانتصاره في معركة فارسالا، يسرد لنا مجموعة من الأوامر التكتيكيَّة، لكنه يلقي كلمتيْن على أسماع رجاله لتشجيعهم على ما يقومون به من عمل بالفعل (الحرب الأهلية 3.95-7). وعندما ساءت الأمور تماماً في معركة سامبر:

أمسك قيصر درعاً من يد جندي في الصفوف الخلفية (فقد جاء بلا درع)، وتحرك نحو مقدمة الجيش وتحدَّثَ إلى قادة المئة بأسمائهم وألقى التحية على الجنود، وأصدر أوامره لحملة الرايات بالتقدم وللوحدات العسكرية بالانتشار بحيث تستطيع استخدام سيوفها بمزيد من السهولة. وبثَّ وصولُه الأملَ في قلوب الجنود ورفع روحَهم المعنوية، فصارت رغبة كل رجل أن يبذل قصارى جهده على مرأى ومسمع من الجنرال حتى في هذا الموقف الميؤوس منه، ومن ثمَّ تعثَّرَ تقدم الأعداء فترةً من الوقت.

(الحرب الغاليّة 2.25)

ربما أثبتت أبحاث مستقبلية أنَّ التركيز على الجانب «العملي» في دور الجنرال القديم لا ينبغي أن يسوقنا إلى تهميش دوره «الرمزيّ»، وأن «إدارة المعركة» بالنسبة إلى القائد القديم كانت تتعلق في جوهرها بتحفيز رجاله بقدر ما كانت تتعلق بالدهاء التكتيكيّ، هذا إن لم تكن تتعلق بتحفيز الجنود بقدر أكبر.

الفصل السابع
إعادة ابتكار فن الحرب الغربي:
«على الناس أن يعرفوا متى تحيق بهم الهزيمة»

في بداية فيلم «المُجالد»، وبينما ينتظر الروم بداية المعركة، نجد ضابطاً يدرس العدو ويقول: «على الناس أن يعرفوا متى تحيق بهم الهزيمة»، ويجيبه الجنرال ماكسيموس Maximus قائلاً: «وهل تعرف أنت، يا كوينتوس؟ وهل أعرف أنا؟». يشير هذا الحوار، فضلاً عن إلقائه بظلال الشك على التمايز الصارم بين الروم المتحضرين والجِرمانيين الهمج، إلى أهمية العوامل النفسية في النصر والهزيمة.

في عام 86م، وبعد إخماد نيران الثورة القبليَّة في شمال إفريقيا، أفادت الأنباء بأن الإمبراطور دوميتيان Domitian قال لمجلس الشيوخ: «لقد أفنِيتُ قبائل الناسامونيين على بكرة أبيها». ويبدو أن المؤرِّخ كاسيوس ديو الذي يقص علينا هذه الرواية قد سجَّلها مثالاً على غطرسة دوميتيان (67.4.6)، فقد استمر وجود قبائل الناسامونيين حتى أواخر القرن الثالث الميلادي عندما اندمجت في اتحاد قبائل لاغواتان. ولم تكن الإبادة الجماعية احتمالاً عملياً في العالم القديم، رغم المزاعم التي ارتبطت بها بين الفينة والأخرى. وغالبية الحروب، ومنها الحرب ضد قبائل الناسامونيين، لم يُكتب النصر فيها بتدمير القدرة العملية للخصوم على القتال، وإنما بتحطيم إرادة المقاومة لديهم.

وفي أثناء الحرب البونية الثانية، عامَ 215 ق.م، أقامَ حنبعل تحالفاً مع فيليب الخامس، ملك مقدونيا الأنتيغونيّ. وافترضت شروط الاتفاقية أنَّ روما ستظل موجودة بعد أن تضع الحرب أوزارها. ومن الواضح أنَّ حنبعل ظنَّ سلسلة انتصاراته سترغم الروم على التماس السلام وفقاً لشروطه. لكن الروم واصلوا القتال بلا انقطاع، مستندين نوعاً ما إلى حقيقة أن غالبية حلفائهم الإيطاليين ظلوا أوفياء ودانوا لهم بالولاء، ومن ثم كان لديهم احتياطي كبير من المحاربين، حتى سعى القرطاجيون أنفسهم إلى طلب السلام بشروط الروم.

واختلفت الظروف كثيراً بين عامَيْ 633 و640م، إذ جُرِّدت الإمبراطورية البيزنطية، ويشير إليها المؤرخون المعاصرون باسم الإمبراطورية الرومية الشرقية، من أقاليمها في سوريا إثر تداعي الإمبراطورية الغربية، ومن بعدها نُزعت مصر من أملاكها بحلول عام 642م على يد العرب تحت راية الإسلام. ليس من السهل تفسير الغزوات العربية، وعادةً ما يندرج البحث عن تفسيرات لتلك الغزوات تحت عنوانيْن: نقاط الضعف البيزنطية ونقاط القوة العربية.

ورغم استحالة تحديد نقاط الضعف، فقد عانت الإمبراطورية البيزنطية من أزمة اقتصادية كاسحة وخسارة واسعة النطاق لليد العاملة في سلسلة من الحروب المتعاقبة مع الفرس الساسانيين استمرت من عام 604 إلى عام 629م. وكان الفرس قد احتلوا سوريا من عام 614 إلى عام 627م، واحتلوا مصر لعشر سنوات منذ عام 617م. وترتب على الأزمات المالية نقصٌ في القوات النظامية الضرورية للذَّوْد عن سوريا. ولم يكن من المعتاد أن تدافع سوريا البيزنطية عن ذاتها، فقد كان البيزنطيون يحاولون تعويض أوجه النقص هذه بإعادة بناء شبكة تحالفاتهم مع حلفائهم العرب غير المسلمين التي دمرها الاحتلال الفارسي، وإذا بالعرب يغزون القبائل نفسها ويحاولون كسب ولائها. وليس من المؤكد إلى أي مدى قوضت الانقسامات الدينية داخل الإمبراطورية البيزنطية دفاعاتها، فقد انعزل مسيحيو سوريا ومصر القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح عن المسيحيين الأرثوذكسيين التابعين للحكومة البيزنطية، وتعرضوا للاضطهاد على أيديهم أيضاً. ولا بد أن سكان سوريا في بداية الأمر عَدُّوا العرب تهديداً همجياً.

ولكن، بالنسبة إلى أولئك الذين حالفهم الحظ بما يكفي ولم يلقوا حتفهم في واحدة من المدن التي نهبها الغُزاة، فقد اكتشفوا أن حُكامهم الجُدد منحوا الأهالي حرية العبادة إلى حد كبير شريطة دفع الجزية. وعلى الرغم من أنه لا يوجد دليل على مساعدة المسيحيين المحليين أصحاب عقيدة الرب الواحد للعرب في سوريا، فإن هناك بعض الأدلة على مشاركتهم في مصر. ولقد أثبتت سنوات من الحكم الفارسي أنَّ السلطة البيزنطية لم تكن حتمية، وأن الاتفاقات التي عقدها السكان المحليون مع الفرس كانت بمثابة سابقة للتعامل مع العرب.

لقد رسَّخَ الإسلام أقدام إيديولوجية جديدة وهيكل سياسي جديد، بما في ذلك نشأة طبقة نخبوية من المستوطنين العرب ينتسبون إلى قبيلة قريش التي حوَّلَت وجهة بسالة العرب الحربية من الحروب التقليدية بين القبائل إلى العالم الخارجي، وحظر الإسلامُ قتال المسلمين الآخرين. ولعل العدوان الخارجي كان منطقياً تحديداً بعد الحروب الأهلية المعروفة باسم «حروب الردة» (632-633م) التي أعقبت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. ويبدو أن هذه الحروب جعلت شبه الجزيرة العربية زاخرة بالعصابات المُسلحة، وترتبت عليها اضطرابات اقتصادية كان في الإمكان أن تعادلها غنائم الحروب. ولا يُمكن أن تُعزى انتصارات العرب إلى أعدادهم الكبرى، إذ بدا في بعض المعارك أنهم أقل نفراً، ولا يجوز أن تُنسب إلى تفوقهم في العتاد والسلاح لأنهم بدوا أقل عتاداً من خصومهم. والظاهر أن انتصارات العرب في المعارك نبعت من روحهم المعنوية العالية التي رسَّخها داخلهم إيمانهم الشديد. فكل رجل يسقط في أرض المعركة سيذهب إلى الجنَّة مباشرةً.

ولقد عُدَّت هزيمة البيزنطيين في معركة اليرموك عام 636م نقطة تحول. فبعدها، رحل البيزنطيون عن سوريا، وطفقوا يعيدون تنظيم قواتهم العسكرية، وحاولوا خلق أرض قاحلة على

الحدود الفاصلة بين إقليمهم المجاور لصقلية وسوريا. ولم تكن هناك محاولات مستمرة لاستعادة سوريا، فقد عُدَّت هزيمة اليرموك خسارة لا رجعة فيها.

لقد ساقت التكاليف الباهظة لتجنيد قوات نظامية وتجهيزها وتدريبها البيزنطيين في بداية القرن السابع الميلادي إلى البدء في تفادي المعارك المفتوحة، وتفضيل المناورات الاستراتيجية والفخاخ عليها.

وعززت هزيمة اليرموك هذا التوجه بشدة. ولكن، على الرغم من أن «طريقة الحرب الغربية» ربما لم تَعُد واقعاً إلى حد كبير بالنسبة إلى البيزنطيين، فقد ظلت هذه الطريقة إيديولوجية قوية. وفي فترة لاحقة، مال المؤرخون البيزنطيون إلى عزو انتصار العرب في اليرموك إلى الدهاء والخديعة.

أخيراً، فلنرجع إلى مبتدأنا وإلى المعركة بين الروم والجِرمانيين في مقدمة فيلم «المُجالد». يمكننا المقارنة بين هذه المعركة وسلسلة أخرى من التمثيلات التصويرية للأحداث ذاتها. يقف عمود ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius البالغ طوله مئة قدم الآن في روما في عُزلة تامة في ساحة كولونا، لكنه كان في فترة من الفترات جزءاً من مُجمَّع معماري ضَمَّ معبداً للإمبراطور المُؤلَّه، وربما ضمَّ أيضاً سلسلة من صفوف الأعمدة. والمنحوتات البارزة، التي كلَّف كومودوس Commodus بإنشائها وبُنيت بين عامي 180 و192م وأحاطت بالعمود، صوَّرَت حروب الأب الراحل للإمبراطور ماركوس أوريليوس ضد الجرمانيين والسارماتيِّين بين عامَيْ 172 و175م.

وغايتنا هنا ليست محاولة أن نرى إلى أيِّ مدى يعكس التصويران «واقع» الحروب. فهذا التصوير يمكن أن يُعدَّ في نهاية المطاف عقيماً لسببيْن على الأقل: واقع مَن ذاك الذي سنبحث عنه؟ أهو واقع ماركوس أم واقع جنرالاته أم جنوده، أم واقع الزعيم أو المقاتل الجرمانيّ؟ علاوة على ذلك، يمكن الظن، على الجانب الروميّ على الأقل، أن المشاركين في الحروب جميعاً فسروا الواقع الذي واجههم عن طريق فرز توقعاتهم التي تشكلت إلى حد كبير بالنظر إلى «فن الحرب» على أنه شبيه بالعمود ذاته. وبدلاً من ذلك، سنفكر فيما تشي لنا به أوجه الشبه والاختلاف في الرسوم التصويريَّة حيال الطرائق التي يُعاد بها تشكيل «طريقة الحرب الغربية» بلا نهاية.

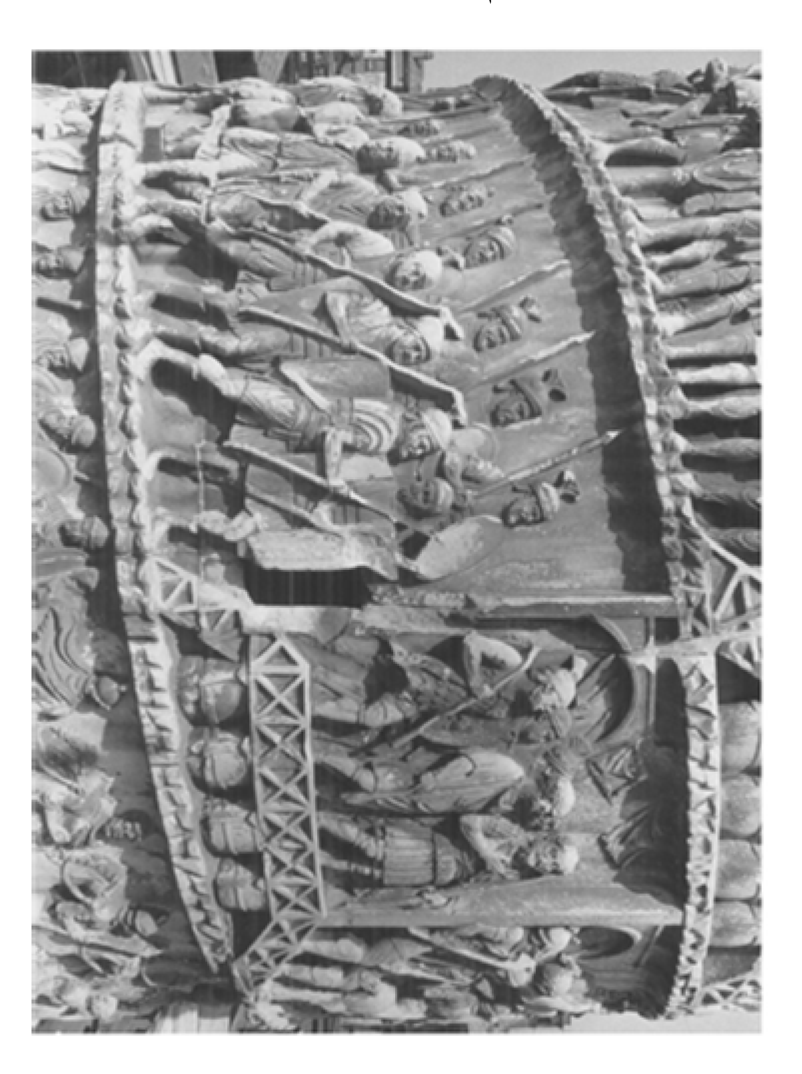
إن كثيراً من الجوانب تظل على حالها بلا تغيُّر (الشكلان 11 و12). يتقدم الروم إلى المعركة في صفوف مُنظَّمَة (لاحظ كيف تميل حِراب الجنود الموجودين في الصف السفلي كلها للأمام، في حين تميل حِراب جنود الصف العلوي كلها إلى الوراء)، والضباط والرايات في طليعة الجيش.

وتتجلى تقنيتهم في معداتهم المُفصَّلَة تفصيلاً، وفي الجسر العائم الذي يعبرونه. وهذا النسق شبيه جداً بالطريقة المنضبطة التي ينتظر بها الروم بدء المعركة في فيلم «المُجالد».

يقاتل الروم في ساحة المعركة قتالاً تلاحمياً ببسالة ورباطة جأش (لاحظ وجوههم التي تبدو «خالية من المشاعر»)، وبطريقة جماعية (لاحظ التشابه الشديد بين وقفات جنود المشاة). أمَّا الهمج في

المقابل فتراهم إمَّا يقاتلون بشراسة لا طائل تحتها (رأس المقاتل المائلة إلى الوراء في منتصف الصف السفلي)، وإمَّا يفرون مذعورين (الإيماءة «اليائسة» باليد المفتوحة للشخص الموجود في منتصف الصف العلوي).

وأياً كان ما يُقْدِمون عليه من عمل، فإنهم يتحرون النزعة الفردية (فجميع وضعياتهم مختلفة). ومرة أخرى، يردِّد فيلم «المُجالد» صدى هذه الأفكار.



11.عمود ماركوس أوريليو Sس 230 78a-b

ومع ذلك، هناك الكثير من الاختلافات بين التصويريْن. فالنسخة الحديثة تزيد الفجوة التقنية بين الجانبيْن، وتضيف قذائف نارية مُتفجرة على الطراز اليوناني لمستودع الأسلحة الرومية. أمَّا النسخة القديمة، فتحوي الكثير من الجوانب «المسكوت عنها» في الفيلم.



12. عمود ماركوس أوريليو Sس 43

هناك شكل إله مُجنَّح عملاق يبرُز لمد يد المساعدة للروم (شكل 13). ومن ذراعيْه المبسوطتيْن، تجتاح سيول كاسحة الهمج وجيادهم، فتحيلهم إلى كومة من الأجساد المشوهة، في حين نجد الروم لم يمسسهم أذى أو اتخذوا لأنفسهم ملاذاً تحت دروعهم. إن الآلهة لا تتدخل في النسخة الحديثة «الواقعية» من المعركة القديمة.

ينهب الروم إحدى القرى (شكل 14). والهمجي الكائن في الجزء العلوي يتضرع إلى الآلهة طلباً للعون والمدد، لكن دعاءه لا طائل منه، فقد رأينا بالفعل الطرف الذي تنحاز إليه الآلهة في هذا الصراع. وفي الجانب الأيمن السفلي، هناك همجي سقط على يديْه وركبتيْه على وشك أن يُنْحَر على يد جندي رومي (قارنه بجندي الفيلق في الفصل السادس). وعلى الجانب الأيسر، ثمة امرأة وطفل يحاولان الفرار، متجاوزيْن جثمان همجي (أهو زوجها أم شقيقها أم والدها؟)، لكن جندياً قبض بيده على شعرها. ونُزعت ملابسها عن كتفها حتى انكشف ثديها الأيمن. وفي ذلك إشارة إلى واقعة الاغتصاب التي تعرضت أو ستتعرض لها.



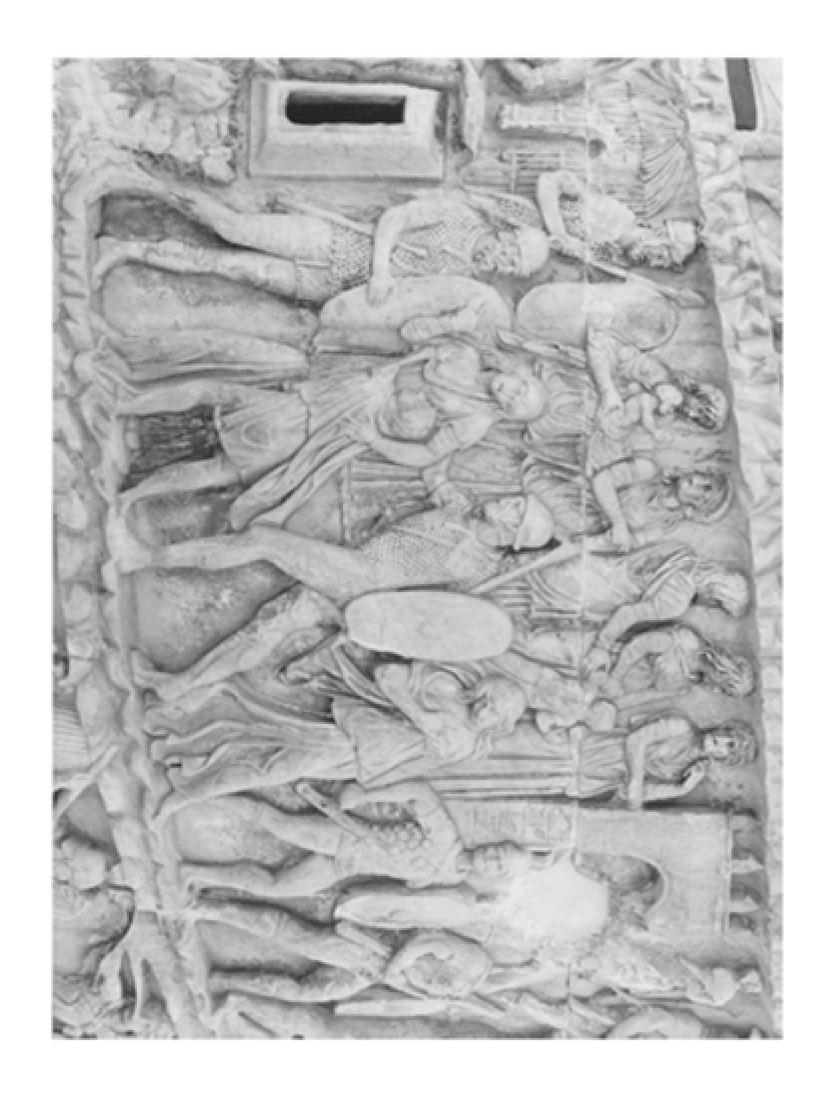
13. عمود ماركوس أوريليوس 16



14. عمود ماركوس أوريليوس 20

هذا المشهد أبعد ما يكون عن فقدان القوات سيطرتهم على أنفسهم بشكل مؤسف. لقد راقب ماركوس بنفسه أعمالَ السلب والنهب، مدعوماً بضباطه وحَمَلَة رايات روما. ولا وجود لهذا اللون من «التطهير العرقي» في إعادة خلق «طريقة الحرب الغربية» القديمة في العصر الحديث.

ووقعت سبع سيدات وثلاثة أطفال في الأسر، وربما أمسوا عبيداً (شكل 15).



15. عمود ماركوسأوريليوس

تجري العملية بطريقة مُنضبطة (انظر الوضعيات المتطابقة تقريباً للجندييْن الواقفيْن جهة اليسار)، لكن الصف السفلي يشير إلى تفسير أكثر فوضويَّة واضطراباً، إذ يجرُّ الجنود السيدتيْن جراً. فملابس السيدتيْن في حالة يرثى لها، وهما تشيران بكفيهما إشارات تنمُّ عن التعاسة. ولا وجود للاغتصاب الجماعي والاسترقاق في فيلم «المُجالد».

وثمة همجيان جثما إلى الأمام استعداداً لتنفيذ حكم الإعدام بحقهما وأيديهما موثوقة خلف ظهريهما (شكل 16). وعلى أقدامهما وقفت ضحيتان سابقتان، واستقر رأس الواحد منهما إلى جوار جسده المُلقى أرضاً. وعلى الجانبيْن، يوجد المزيد من المُدانين ينتظرون دورهم. وعلى الرغم من أن فرقة الخيَّالة الرومية تراقب المشهد من الخلف، فمن اللافت أن منفذي حكم الإعدام همج، شأنهم كشأن ضحاياهم. هل يُجبر الروم أسراهم على أن يقتل بعضهم بعضاً؟ أم ينبغي تفسير ذلك على أنه إشارة إلى الشقاق بين الهمج؟ في فيلم «المُجالد»، يقضي الروم على الهمج الجرحى في أعقاب المعركة مباشرةً، لكن لا توجد أيُّ إشارة إلى قتل جماعي للأسرى عمداً.

ويجلس ماركوس أوريليوس، المعروف في نصوص أخرى في القِدَم وفي العصر الحديث باسم «الإمبراطور الفيلسوف»، وهو يسوق جنوده الأسرى أمامه (شكل 17).



16.عمود ماركوس أوريليوس 61



17. عمود ماركوس أوريليوس 66

لكن هناك جندياً يقدِّم للإمبراطور رأساً مقطوعاً. يَقْلِب فيلم «المُجالد» هذه الفكرة، فيقتصر قطع الرؤوس في الفيلم على الهمج فقط.

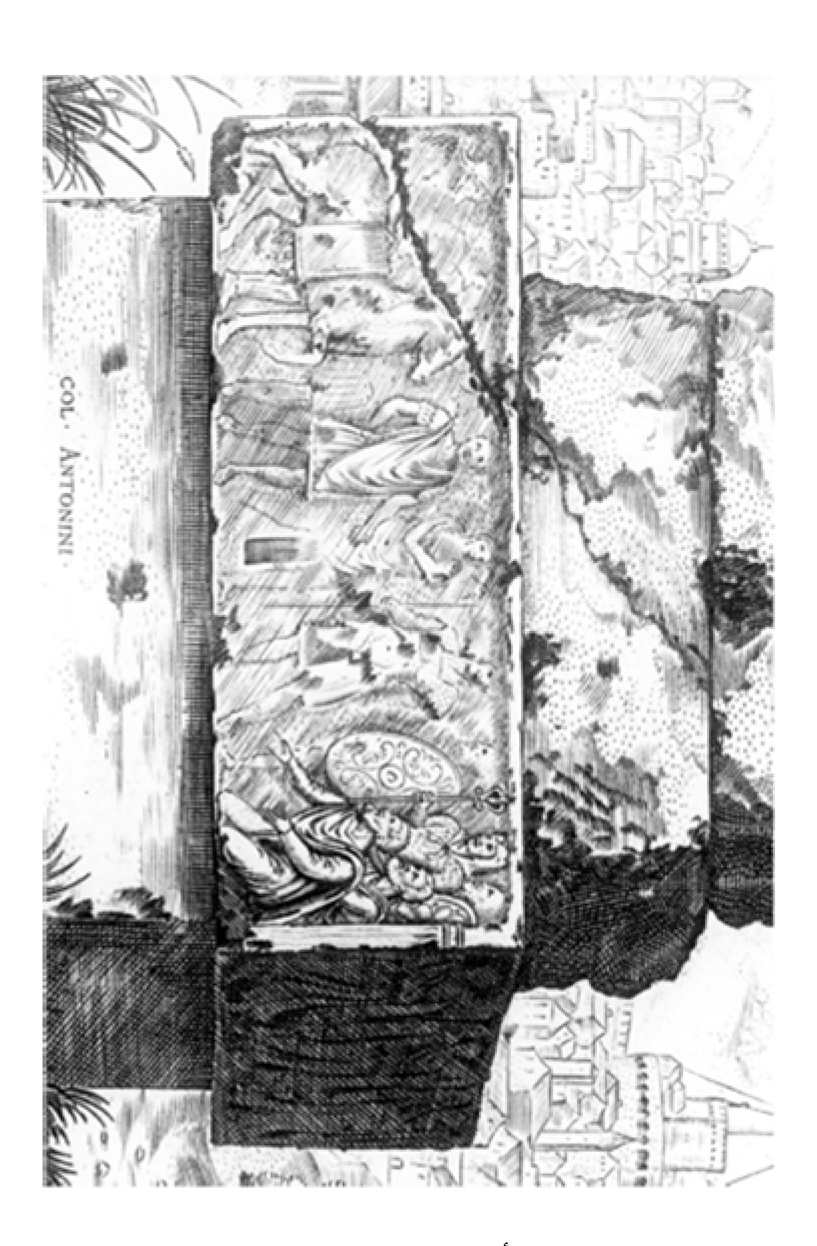
إن العمود زاخر بألوان القتال، لكن المراقب القديم، مهما أبصر مشاهده بعناية أو بشكل عابر أو من أيِّ زاوية أو بأيِّ ترتيب، لا يجد أيَّ إثارة وتشويق. فهو يعلم بالفعل كيف ستنتهي القصة لأنه رأى-وهو ما لا يتأتى لنا- المنحوتاتِ التي دُمرت الآن قُرب مستوى النظر عند القاعدة (شكل 18). وإذ تَكَشَّفَ لنا الجانب الشرقي لقاعدة العمود عبر رسم يرجع إلى عام 1540م تقريباً، فقد أماط اللثام عن النهاية. إلى اليسار وقف الإمبراطور، في حين راقب الجنود الروم-جهة اليمين- الهمجَ الذين ركعوا أمامهم، وأشاروا بإشارات الخضوع والخنوع. وعلى العكس من الهمج في فيلم «المُجالد»، يعلم هؤلاء الهمج متى نزلت بهم الهزيمة.

إن أوجه الشبه والاختلاف بين الرسوم التصويرية للمعارك ذاتها، على العمود القديم لماركوس وفي الفيلم الحديث «المُجالد»، تُبيِّن كيف يُعاد ابتكار «طريقة الحرب الغربية» باستمرار.

ومن واقع الحروب الفارسية، بنى الإغريق رابط الأفكار التي نَصِفها بـ «طريقة الحرب الغربية». وفي سياق هذا المفهوم، نجد أن الهدف المطلق للغربيين في الحرب هو المعركة الضارية التي تهدف إلى إفناء العدو. ويُفَضَّل أن تُدار المعركة بالالتحام اليدويِّ من المشاة الثقيلين. والشجاعة هي

التي تجلب النصر، ومصدرها التدريب والانضباط من ناحية، و«العسكرة المدنية» من ناحية أخرى، إذ ينتمي المقاتلون إلى فئة مُلّاك الأراضي الذين يتمتعون بحرية سياسية.

ولقد كانت هذه إيديولوجية أكثر من كونها واقعاً موضوعياً.



18. عمود ماركوس أوريليو س، الجانب الشرقي للقاعدة 240

لم تكن عناصر «طريقة الحرب الغربية» كلها سارية في فترة من الفترات. ومن قبيل المفارقة أنَّ الفترة التي اعتُقِدَ أنها ربما دنت فيها من الشكل المثالي كانت في العالَم اليوناني ما بين استحداث كتيبة الرمَّاحين والحروب الفارسية. ومع ذلك، كما رأينا من قبل، ليس لدينا سوى معلومات شحيحة عن الحرب في تلك الفترة، ولدينا ما يغرينا بإسقاط وتبسيط معارفنا المتعلقة بالممارسات اللاحقة على تلك الحقبة. والتشديد في هذه الإيدولوجية على الأحرار الذين يقاتلون غير الأحرار يبدو أنه جاء نتيجةً لتصورات الإغريق عن الحروب الفارسية، وينبغي ألا ننسى أن كثيراً من الرمَّاحين في جيوش المدن اليونانية في السنوات ما بين عامي 725 ق.م و490 ق.م تقريباً ربما لم يتمتعوا بأيِّ حرية سياسية، أو تمتعوا بِحُريّة سياسية محدودة، بالمعاني الكلاسيكية للمساواة أمام القانون وحق المشاركة في صناعة القرار السياسي. ولفترات زمنية طويلة، تبقى القليل جداً من الأفكار التي تُشكِّل مفهوم «طريقة الحرب الغربية» في واقع شن الحروب الغربية الأوروبية. على سبيل المثال، أثبت المؤرخ جون لين John Lynn أنَّ «العسكرة المدنية»، فيما خلا بعض الاستثناءات الجزئية، اختفت مع سقوط الجمهورية الرومية في نهاية القرن الأول قبل الميلاد، ولم تعاود الظهور حتى الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. إن الفجوة البالغة 1800 عام في توالٍ مفترض يُقدَّر بـ 2500 عام لا تدعم فرضية قوية.

وبينما لم يكن هناك تعاقب عملي إلا قليلاً، أثبتت إيديولوجية «طريقة الحرب الغربية» أنها متماسكة وفي غاية المرونة. فكثير من المجتمعات الغربية تطلعت إلى الإغريق والروم، وحسبوا أنهم إمَّا ينبغي لهم القتال اقتداءً بالأسلوب الذي أُعجب به المؤلفون الكلاسيكيون، وإمَّا أنهم اقتدوا به بالفعل بمهارة فكرية فذَّة. لقد كانت الرسالة التي كتبها فيجيتوس بعنوان «رسالة حول الشؤون العسكرية» (Epitoma rei militaris) نصاً بالغ الأهمية في نقل الأفكار الكلاسيكية عن الحرب للأجيال اللاحقة. فقد مزج فيجيتوس، عندما خطَّها بين عامَيْ 383 و450م، ما بين الممارسات الماضية والحاضرة وأماني وضع برنامج إرشاديٍّ للحروب الرومية المتأخرة.

ويتحرك فيجيتوس في نصه في عالم النظرية بدلاً من أنْ يعكس الواقع المعاصر. وكثير مما أورده ينسجم تماماً مع «طريقة الحرب الغربية»، من ناحية تشديده على التدريب والانضباط المفضي إلى الشجاعة (انظر على سبيل المثال 1.1؛ 28) وكذلك من حيث رؤيته العرقيَّة للعالم؛ فالجِرمانيون ضخام الجثة، والأفارقة غدَّارون، وسكان القطب الشمالي القارس أغبياء، وسكان الجنوب الحار جُبناء، وهكذا دواليك (1.1-2). لكن الإيديولوجية اقتُبِست من إيديولوجية الماضي. لمَّا كتب فيجيتوس للجنرالات في أعقاب الهزيمة المُنكرة للجيش الرومي على يد القوط في معركة أدريانوبل عام 378م، نراه ينصحهم بأن يحذروا القتال المباشر، وأنَّ عليهم عوضاً عن ذلك أن ينصبوا فخاخاً للعدو (3.9). لو كان في الإمكان أن يعيد فيجيتوس تشكيل «طريقة الحرب الغربية» في العصور القديمة المتأخرة، لمَا كان ذلك شيئاً يُذكر مقارنةً بالتغييرات التي كان من المُقدَّر أن تطرأ عليها لاحقاً. لقد كان فيجيتوس محل إعجاب في العصور الوسطى في أوروبا الغربية. لكن أعماله لم تُقرأ بوصفها نموذجاً للتغيير، وإنما إعادة تأكيد للممارسات المعاصرة. ولمَّا ركَّز نبلاء أوروبا في العصور الوسطى كلمات فيجيتوس على الشجاعة، فسَّروا عمله على أنه دليل نموذجي حول الفروسية. وفي واحدة من الطبعات، سُمي عمله أيضاً باسم «كتاب الفروسية» (Livre de chevalerie).

ورغم ذلك، لم تُجَمِّل «طريقة الحرب الغربية» الواقع المعاصر فحسب، وإنما استُغلّت في بعض الأحيان لتغييره. فمنذ بداية أواخر القرن السادس عشر، استند الجنرال الهولندي موريس أمير ناسو Maurice of Nassau إلى النماذج الكلاسيكية لتدريب جيوشه وتشكيلها، وكان الجندي المواطن ابن روما الجمهورية مصدر إلهام طوال القرن الثامن عشر وبلغ ذروته في جيوش الثورة الفرنسية.

إن القبول الخالي من النقد لإيديولوجية «طريقة الحرب الغربية» التي لا تفتأ تتغير بوصفها واقعاً موضوعياً، والاعتقاد أن هناك تعاقباً أصيلاً للممارسات بين اليونانيين القدماء والغرب الحديث، من الممكن أن تكون لهما نتيجتان خطيرتان. أولاهما أن هذا القبول يمكن أن يفضي إلى الرضا بالوضع الراهن في الغرب، وقد يترتب على ذلك الطرح التالي: «منذ أن سعى اليونانيون إلى القتال الحاسم، مُستلهمين فكرهم من العسكرة المدنية، كُللت جهود الغرب بالنجاح في الحروب في نهاية المطاف. وسيُكتب للغرب النصر دائماً، شريطة أن يظل منهج الغرب نحو شن الحروب على حاله أساساً». ومن هذا المنطلق، يمكن أن يؤدي هذا الفكر وظيفة «الغطاء الإيديولوجي المريح» نفسها التي تؤديها معتقدات الحضارات الكلاسيكية، ومُفادها أن الهمج لم يتغيروا، وأن الهمج الذين نصادفهم حديثاً لم يختلفوا عن أسلافهم في شيء سوى أن مسماهم تغير، وطالما أنهم هُزموا في السابق، فسيهزمون مُجدداً. والنتيجة الخطيرة الثانية ربما تمثلت في تخلي الغرب عن قيود شن الحروب، أو إضعافه لها. ويمكن تلخيص هذا الفكر على النحو التالي: «من طبع طريقة الحرب الغربية السعي إلى القضاء على العدو وتدميره، وعليه فإن أيَّ دولة غربية تتخذ أيَّ إجراء يفضي إلى هذه المحصلة مخلصةٌ لطبيعتها لا أكثر». ويمكن أن يسري ذلك بطريقة خبيثة بشكل مثيل على أفكار الإغريق التي مفادها أن الحروب ضد الهمج لا تحتاج قيداً ولا شرطاً، لأنه من طبع الهمج أن يكونوا عبيداً.

إن من الأفضل والآمَن بكثير أن ننظر لـ «طريقة الحرب الغربية» على حقيقتها بصفتها إيديولوجية قوية مديدة وعالية القدرة على التكيف. فطريقة الحرب الغربية يُعاد ابتكارها باستمرار، كما أُعيد ابتكارها بطبيعة الحال في هذا الكتاب.

مزيد من القراءة

تشمل المقدمات المصورة الشهيرة:

P. Connolly, Greece and Rome at War (London, 1981); A. K. Goldsworthy, *Roman Warfare* (London, 2000); J. Hackett (ed.), *Warfare in the Ancient World* (London, 1989); V. D. Hanson, *The Wars of the Ancient Greeks* (London, 1999); and J. Warry, *Warfare in the Classical World* (London, 1980).

تنتج شركة أوسبري ببليشنج كتباً قصيرة حول جوانب معينة من جوانب الحرب القديمة وتستهدف القراءة الشعبية، وتكون هذه الكتب دائماً كتباً مصورة وأفضلها يحتوي على سرد مبني على علم ودراية بالموضوع، على سبيل المثال:

B. Rankov, *The Praetorian Guard* (Oxford, 1994); and M. Whitby, Rome at War ad 293-696 (Oxford, 2002).

سيمثل كتاب

The Cambridge History of Greek and Roman Warfare, edited by P. Sabin, H. van Wees, and M. Whitby,

الذي سيُنشر قريباً في مجلدين، الكتاب الدراسي المعياري. وتقدم الكتب الخمسة التي ألفها W. K. Pritchett بعنوان

(*The Greek State at War* (Berkeley and Los Angeles, 1971-91)

استقصاءً كاملاً للأدلة الإغريقية.

الغالبية العظمى من النصوص القديمة ذات العلاقة متاحة في سلسلة Loeb (الأصل في الصفحة اليسرى مع ترجمة إلى اللغة الإنجليزية في الصفحة اليمنى) التي نشرتها مطبعة جامعة هارفرد، ومعظمها مترجم إلى اللغة الإنجليزية في إطار سلسلة بنغوين كلاسيكس أو سلسلة أكسفورد وورلد كلاسيكس.

ويُعدُّ معجم أكسفورد الكلاسيكي (الطبعة الثالثة، أكسفورد، 1996)، الذي حرره S. Hornblower و A. Spawforth مرجعاً لا غنى عنه لجميع البحوث المعنية بالعالم القديم. وهو مصدر الاختصارات القياسية المستخدمة للإشارة إلى النصوص الكلاسيكية.

تمهيد

ورد مفهوم «طريقة الحرب الغربية» أول مرة في:

V. D. Hanson, *The Western Way of War: Infantry Battle in Ancient Greece* (Oxford, 1989).

ويجري تناوله بمزيد من التفصيل في:

V. D. Hanson, *Why the West has Won: Carnage and Culture from Salamis to Vietnam* (London, 2001).

وهو يحظى بقبول

J. Keegan, A *History of Warfare* (London, 1993)؛ لكن يواجَه بالرفض ممن J. A. Lynn, Battle: A *History of Combat and Culture from Ancient Greece to Modern America* (Boulder, Colorado, and Oxford, 2003).

وتوجد مقدمة رائعة للتعريف بالإمبراطورية الآشورية الحديثة في: A. Kuhrt, The Ancient Near East c.3000-330 bc (2 vols, London and New York, 1995), pp. 473-546. ويورد لنا A. K. Grayson مقدمة موجزة للحرب الآشورية في J. Boardman, I. E. S. Edwards, N. G. L. Hammond, E. Sollberger, and C. B. F. Walker (eds), *The Cambridge Ancient History, Volume III* (2nd edn, Cambridge, 1991), pp. 217-21. وتوجد دراسة أطول وهي F. Malbran-Labat, L’Armée et L’Orginisation Militaire de L’Assyrie d’après les lettres des Sargonides trouvées à Ninive (Paris, 1982). كما يمكن أيضاً الرجوع إلى Y. Yadin, The Art of Warfare in Biblical Lands in

،the Light of Archaeological Discovery (London, 1963), pp. 291-328
مع عرض لوحات في الصفحات: 380-463. ويمكن الاطلاع على نظرة عامة شعبية (غير مشروحة لكن مصورة جيداً) عن الجيش الآشوري في:

N. Stillman and N. Tallis, Armies of the Ancient Near East 3000 bc to .(539 bc (Worthing, 1984

دراسة كلاسيكية للتغيرات في مفهوم الحرية في إحدى الثقافات نجدها في:

C. Wirszubski, *Libertas as a Political Idea at Rome during the Late* .(*Republic and Early Empire* (Cambridge, 1950

يمكن الاطلاع على مناقشة للزورق Hjortspring في:

K. Randsborg, 'Into the Iron Age: a discourse on war and society', in Ancient Warfare: *Archaeological Perspectives, edited by J. Carman .and A. Harding* (Stroud, 1999), pp. 191-202

فيما يخص Zulus، انظر الفصل الثالث أدناه.

فيما يخص الحرب البيلوبونيزية، يُعدُّ ثوكيديدس مصدرنا الرئيس. ويقدم لنا,S. Hornblower The Greek World 479-323 bc (revised edn, London and New York, 1991) سرداً بليغاً. المعارك المشار إليها في النص هي Delion (424 ق.م) وMantinea (418 ق.م) و(المثال غير المؤكد) Amphipolis (422 ق.م). انظر:

Tacitus, Annals 1.49-2.26 on Germanicus' campaigns; Caesar, Civil War 3.39-73 on Dyrrachium; and Tacitus, Agricola 29-38 on Mons .Graupius

للحصول على لمحات عامة موجزة عن عصر جستنيان Justinian والجيش الروماني الشرقي، انظر - على الترتيب - مساهمات: A. Cameron, pp. 63-85; and M. Whitby, pp. 300-14, in A. Cameron, B. Ward-Perkins, and M. Whitby (eds), The .(Cambridge Ancient History, Volume XIV (2nd edn, Cambidge, 2000
يمكنك أيضاً الاطلاع على:

A. Cameron, *Procopius and the Sixth Century* (London, 1985); and .(J. Moorhead, Justinian (London and New York, 1994

من الأعمال الشعبية المعززة بالرسوم التوضيحية:

R. Boss, Justinian’s Wars: *Belisarius, Narses and the Reconquest of the West* (Stockport, 1993).

الفصل الأول

الإغريق والطرواديون

فيما يخص عدم وجود تقسيم حكمي بين الإغريق والبرابرة في هوميروس، وابتكار هذا التقسيم إبان الحروب الفارسية، انظر:

E. Hall, Inventing the Barbarian. *Greek Self-Definition through Tragedy* (Oxford, 1989).

المزيد عن هوميروس:

H. S. Mackie, Talking Trojan: Speech and Community in the Iliad (Lanham, Md., 1996); and C. F. Salazar, The Treatment of Wounds in Graeco-Roman Antiquity (Leiden, Boston, and Köln, 2000), pp. 126-58.

للاطلاع على تفسير، انظر:

H. van Wees, ‘Homeric Warfare’, in A New Companion to Homer, edited by I. Morris and B. Powell (Leiden, New York, and Köln, 1997), pp. 668-93,

وفيما يلي، في الفصل الثالث، «ثورة المشاة الثقيلين Hoplite في اليونان».

الإغريق والفرس

بشأن صعود المدينة الدولة polis، انظر:

R. Osborne, Greece in the Making 1200-479 bc (London and New York, 1996).

بشأن الجيوش الفارسية، انظر:

P. Briant, ‘The Achaemenid Empire’, in War and Society in the Ancient and Medieval Worlds, edited by K. Raaflaub and N. Rosenstein (Cambridge, Mass., and London, 1999), pp. 105-28; and .(D. Head, The Achaemenid Persian Army (Stockport, 1992

بشأن مسار الحروب الفارسية، انظر:

,(J. F. Lazenby, The Defence of Greece (Warminster, 1993

وبشأن هيرودوت وأبقراط (الزائف)، انظر:

P. Cartledge, The Greeks: A Portrait of Self and Others (Oxford, ,1993), pp. 36-62

وبشأن أسخيلوس، انظر:

E. Hall, ‘Asia unmanned: Images of victory in Classical Athens’, in War and Society in the Greek World, edited by J. Rich and G. ,Shipley (London and New York, 1993), pp. 108-33

وبشأن التفاعلات الثقافية الإيجابية، انظر:

M. C. Miller, Athens and Persia in the Fifth Century bc (Cambridge, .(1997

الرومان والقرطاجيون

بشأن روما في المراحل المبكرة، انظر:

T. J. Cornell, *The Beginnings of Rome* (London and New York, ,(1995

وبشأن الحروب البونية، انظر:

؛(Caven, *The Punic Wars* (London, 1980

وبشأن السياسة التوسعية، انظر:

H. Sidebottom, ‘Roman Imperialism: the changed outward trajectory of the Roman empire’, Historia (forthcoming),

وبشأن الجيش القرطاجي، انظر:

G. Daly, Cannae: *The Experience of Battle in the Second Punic War* (London and New York, 2002),

وبشأن القالب النمطي الإثنوغرافي للقرطاجيين، انظر:

J. P. V. D. Balsdon, *Romans and Aliens* (London, 1979) and S. Lancel, *Hannibal* (Oxford, 1999), pp. 216-21,

وبشأن الرؤية البونية للعالم، انظر:

R. Batty, ‘Mela’s Phoenician Geography’, Journal of Roman Studies, 90 (2000), pp. 70-94,

وبشأن سيبتيموس سيفيروس Septimius Severus،

انظر:

A. R. Birley, The African Emperor Septimius Severus (3rd edn, London, 1988).

الرومان والإغريق

بشأن الفتح الروماني للشرق الإغريقي، انظر:

E. S. Gruen, The Hellenistic World and the Coming of Rome (Berkeley, Los Angeles, and London, 1984)),

وبشأن الهَلْيَنة، انظر:

M. Beard and M. Crawford, Rome in the Late Republic (London, ,1985), pp. 12-24

وبشأن وجهات الرومية في الإغريق، انظر:

J. P. V. D. Balsdon, Romans and Aliens (London, 1979), especially .pp. 30-58

الفن و«طريقة الحرب الغربية»

جاءت صورة الإبريق (الكراتر) crater في:

.J. Hackett (ed.), Warfare in the Ancient World (London, 1989), p. 73

توجد مقدمات رائعة للفن الكلاسيكي يوردها لنا:

R. Osborne, *Archaic and Classical Greek Art* (Oxford, 1998); N. Spivey, *Greek Art* (London, 1997); M. Beard and J. Henderson, Classical Art: From Greece to Rome (Oxford, 2001); and J. Elsner, .(*Imperial Rome and Christian Triumph* (Oxford, 1998

الغريب أنه لا توجد دراسات منهجية حديثة بحجم كتاب عن «فن الحرب» اليوناني والروماني. للاطلاع على دراسات أقصر، انظر مساهمات:

L. Hannestad, pp. 110-119, and N. Hannestad, pp. 146-54, in T. Bekker- Nielsen and L. Hannestad (eds), War as a Cultural and Social Force: Essays on Warfare in Antiquity (Copenhagen, 2001); and T. Hölscher, 'Images of war in Greece and Rome: between military practice, public memory, and cultural symbolism', Journal of .Roman Studies, 93 (2003), pp. 1-17

انظر أيضاً:

H. Sidebottom, Fields of Mars: *A Cultural History of Greek and* .(*Roman Battle* (London, forthcoming

الفصل الثاني

الثقافة

بشأن Bridgeness Slab، انظر:

L. J. F. Keppie and B. J. Arnold, Corpus *Signorum Imperii Romani. Great Britain. Volume 1.4. Scotland* (Oxford, 1984), pp. 27-8 (no. 68), plate 21; and I. M. Ferris, *Enemies of Rome: Barbarians through Roman Eyes* (Stroud, 2000), pp. 113-18.

بشأن Brittunculi tablet، انظر:

A. K. Bowman and J. D. Thomas, The *Vindolanda Writing-Tablets* (London, 1994), pp. 106-108 (no. 164)).

ونجد صورة لعالم الألواح tablets يقدمها لنا:

A. R. Birley, Garrison Life at Vindolanda (Stroud, 2002).

الطبعة القياسية من Agricola هي من تحقيق:

R. M. Ogilvie and I. A. Richmond (Oxford, 1967).

ونجد شرحاً حديثاً مشوقاً في:

K. Clarke, ‘An island nation: re-reading Tacitus’ Agricola’, Journal of Roman Studies, 91 (2001), pp. 94-112.

بشأن الصور الكلاسيكية «للشماليين»، انظر:

A. N. Sherwin-White, Racial Prejudice in Imperial Rome (Cambridge, 1967), pp. 1-61,

وبشأن «البدو الرحل»، انظر:

B. D. Shaw, ‘ “Eaters of Flesh, Drinkers of Milk”: The ancient Mediterranean ideology of the pastoral nomad’, Ancient society, 13/14 (1982/83), pp. 5-31.

يناقش

P. Heather, The Goths (Oxford and Cambridge, Mass., 1996), pp. 51-93,

التغيرات التي طرأت على القبائل الجرمانية.

بشأن عَدِّ الهون من الهمج الأوائل، انظر:

J. O. Maenchen- Helfen, *The World of the Huns* (Berkeley, Los Angeles, and London, 1973), pp. 1-17; and J. Matthews, *The Roman Empire of Ammianus* (London, 1989), pp. 332-42; 353-5.

يمكن الاطلاع على تمحيص لبقاء الفكر الإثنوغرافي في القرن الخامس الميلادي في الغرب في:

P. Heather, ‘The barbarian in late antiquity: image, reality, and transformation’, in R. Miles (ed.), Constructing Identities in Late Antiquity (London and New York, 1999), pp. 234-58.

بشأن الإيديولوجية على الجبهة الشرقية، انظر:

O. Bartov, Hitler’s Army: *Soldiers, Nazis, and War in the Third Reich* (Oxford, 1992)).

النوع الاجتماعي

هناك مقدمات تعريفية بالبحوث الحديثة يوردها لنا:

D. Montserrat, ‘Reading gender in the Roman world’, in J. Huskinson (ed.), Experiencing Rome (London and New York, 2000), pp. 153-81; and D. H. J. Larmour, P. A. Miller, and C. Platter (eds), Rethinking Sexuality: *Foucault and Classical Antiquity* (Princeton, 1998), pp. 3-41.

بشأن المرأة والحرب، انظر:

S. Hornblower, ‘War and the development of ancient historiography’, in P. Sabin, H. van Wees, and M. Whitby (eds), The Cambridge History of Greek and Roman Warfare (Cambridge, forthcoming).

ونجد اهتماماً بالآثار الاجتماعية والاقتصادية غير المباشرة للحرب في:

J. K. Evans, War, Women and Children in Ancient Rome (London and New York, 1991).

تخضع الأمازونيات Amazons بالدراسة في:

K. Dowden, ‘The Amazons: development and functions’, Rheinisches Museum für Philologie, 140 (1997), pp. 97-128.

بشأن النصب التذكاري Nereid، انظر:

W. A. P. Childs and P. Demargue, Fouilles de Xanthos, VIII (Paris, 1989).

المراجع المتعلقة بالنساء وعمليات الحصار التي فُرضت هي:

Plataea, Thucydides 2.78; Byzantium, Cassius Dio 75.12.4; Chios, Plutarch, The Bravery of Women 244E-254C; Argos (physically fighting), Plutarch, The Bravery of Women 245C-F; Argos (throwing roof tiles), Plutarch, Pyrrhus 34.1-2; Rome, Livy 1.11.

فيما يخص الذكورة والحرب، انظر:

H. van Wees, ‘Warfare and society’, in P. Sabin, H. van Wees, and M. Whitby (eds), The Cambridge History of Greek and Roman Warfare (Cambridge, forthcoming); and D. Ogden, ‘Homosexuality and warfare in ancient Greece’, in A. B. Lloyd (ed.), Battle in Antiquity (London and Swansea, 1996), pp. 107-68.

هناك إعادة تفسير حديثة للمخنثين Kinaidos يوردها

,J. Davidson, *Courtesans and Fishcakes* (London, 1998), pp. 167-82

وتبالغ في الشره وتهمِّش السلبية.

الفرد يُعدُّ

(J. Griffin, *Latin Poets and Roman Life* (London, 1985

واحداً من الكلاسيكيات الحديثة. بشأن العشاق كجنود على وجه التحديد، انظر:

M. R. Gale, 'Propertius 2.7: Militia Amoris and the ironies of Elegy',
.Journal of Roman Studies, 87 (1997), pp. 77-91

بشأن الفلاسفة كجنود، انظر:

H. Sidebottom, 'Philosophers' attitudes to warfare under the principate', in J. Rich and G. Shipley (eds), War and Society in the .Roman World (London and New York, 1993), pp. 241-64

بشأن المسيحية المبكرة، يُعدُّ:

(R. Lane Fox, Pagans and Christians (Harmonsworth, 1986

دليلاً ممتازاً. بشأن جنود المسيح، انظر:

A. Harnack, Militia Christi: The Christian Religion and the Military in .the First Three Centuries (English tr., Philadelphia, 1981), pp. 27-64

يوافينا

D. E. E. Kleiner, Roman Sculpture (New Haven and London, 1992),
,pp. 256-9; 301-8; 350-1; 384-92; 455-9

بمقدمة رائعة لتعريفنا بالنواويس

,Sarcophagi

مع مناقشة لناووس

Portonaccio Sarcophagus

في الصفحة 301-3؛ انظر أيضاً:

J. Elsner, Imperial Rome and Christian Triumph (Oxford and New York, 1998), pp. 145-58,

للاطلاع على تفسير أقرب لما ورد في هذا الكتاب.

بشأن عسكرة الخدمة المدنية الرومية، انظر:

R. MacMullen, Soldier and Civilian in the Later Roman Empire (Cambridge, Mass., 1963), pp. 163-5; 171-2.

الفصل الثالث

بشأن Zulus، يُعدُّ:

D. R. Morris, The Washing of the Spears: The Rise and Fall of the Zulu Nation (revised edn, London, 1989)

سرداً كلاسيكيّاً. ويُعدُّ

R. Edgerton, Like Lions They Fought: The Zulu War and the Last Black Empire in South Africa (New York, 1988)

مصدراً ممتازاً للتعرف على حقائق القتال. انظر أيضاً:

J. Keegan, A History of Warfare (London, 1993), pp. 28-32; and W. S. Ferguson, 'The Zulus and the Spartans: a comparison of their military systems', Harvard African Studies, 2 (1918), pp. 197-234.

«ثورة الرمَّاحين» في اليونان

بشأن إبريق الخمر oinochoe الأثيني، انظر:

G. Ahlberg, Fighting on Land and Sea in Geometric Art (Stockholm, ,1971), pp. 12-13

وبشأن «مزهرية

,’Chigi vase‘

انظر:

P. Arias, B. Shefton, and M. Hirmer, A History of Vase Painting .(London, 1962), pp. 275-6

بشأن غينيا الجديدة، انظر:

R. Gardner and K. G. Heider, Gardens of War: Life and Death in the .(New Guinea Stone Age (Harmondsworth, 1974

وجهات نظر Antony Andrewes موضحة في كتابه:

,(The Greek Tyrants (London, 1956

وخصوصاً الصفحات 31-38. من بين من يرون ثورة/إصلاحاً كبيراً:

A. M. Snodgrass, ‘The Hoplite Reform and history’, Journal of Hellenic Studies, 86 (1965), pp. 110-22; P. Cartledge, ‘Hoplites and heroes: Sparta’s contribution to the technique of ancient warfare’, Journal of Hellenic Studies, 97 (1977), pp. 11-27; and J. Salmon, ‘Political Hoplites?’, Journal of Hellenic Studies, 97 (1977), pp. 84-.101

الحجج التي ساقها Joachim Latacz موجودة في:

Kampfparänese, Kampfdarstellung und Kampfwirklichkeit in der Ilias, .(bei Kallinos und Tyrtaios (Munich, 1977

من بين وجهات النظر «التنقيحية» الأخرى:

K. A. Raaflaub, ‘Soldiers, citizens, and the evolution of the early Greek Polis’, in L. G. Mitchell and P. J. Rhodes (eds), The Development of the Polis in Archaic Greece (London and New York, 1997), pp. 49-59; and H. van Wees, ‘The development of the Hoplite phalanx: iconography and reality in the seventh century’, in H. van Wees (ed.), War and Violence in Archaic Greece (London and Swansea, 2000), pp. 125-66.

يمكن الاطلاع على «orthodoxy» المعاد طرحها في:

A. M. Snodgrass, ‘The ‘‘Hoplite reform’’ revisited’, Dialogues d’histoire ancienne, 19.1 (1993), pp. 47-61; and P. A. Cartledge, ‘The birth of the Hoplite: Sparta’s contribution to early Greek military organization’, in P. A. Cartledge (ed.), Spartan Reflections (London, 2001), pp. 153-66.

يمكن الاطلاع على Callinus وTyrtaeus can في:

M. L. West, Greek Lyric Poetry (Oxford, 1993).

تغيّر الفكر: عمليات الدفن،

D. C. Kurtz and J. *Boardman, Greek Burial Customs* (London, 1971), pp. 207-8; dedications, A. M. Snodgrass, Archaic Greece: *The Age of Experiment* (Berkely and Los Angeles, 1980), pp. 105-7; and A. J. B. Wace, ‘Lead figurines’, in R. M. Dawkins (ed.), The Sanctuary of Artemis Orthia at Sparta (London, 1929), pp. 249-84.

«الأزمة الزراعية» في إيطاليا

«وجهة النظر التقليدية» موضحة تماماً في:

K. Hopkins, Conquerors and Slaves: Sociological Studies in Roman History (Cambridge, 1978), pp. 1-75; 102-6؛

وأيضاً بشكل موجز في:

B. Cunliffe, *Greeks, Romans and Barbarians: Spheres of Interaction* (London, 1988), pp. 59-79.

الهجمات على ما سبق:

J. K. Evans, 'Plebs Rustica: *the peasantry of classical Italy', American* Journal of Ancient History, 5 (1980), pp. 19-47; J. W. Rich, 'The supposed manpower shortage of the later second century bc', Historia, 32 (1983), pp. 287-331; and S. L. Dyson, Community and Society in Roman Italy (Baltimore and London, 1992), pp. 23-55.

بشأن الديموغرافيا، انظر:

N. Morley, 'The transformation of Italy, 225-28 BC', Journal of Roman Studies, 91 (2001), pp. 50-62.

بشأن Tiberius Graccus وبشأن الآثار في Etruria، انظر على الترتيب:

D. Stockton, *The Gracchi* (Oxford, 1979), pp. 6-22; and T. W. Potter, *The Changing Landscape of South Etruria* (London, 1979), pp. 120-37.

يقدم لنا لمحة عامة عن النقاش:

N. Rosenstein, 'Republican Rome', in K. Raaflaub and N. Rosenstein (eds), War and Society in the Ancient and Medieval Worlds (Cambridge, Mass., and London, 1999), pp. 205-10.

غرس الهمجية في الجيش الرومي

A. H. M. Jones, *The Later Roman Empire 284-602* (Oxford, 1964), pp. 607-86.

هناك عملان تنقيحيان مهمان وهما:

H. Elton, *Warfare in Roman Europe ad 350-425* (Oxford, 1996); and M. J. Nicasie, Twilight of Empire: The Roman Army from the Reign of Diocletian until the Battle of Adrianople (Amsterdam, 1998).

تشمل التفسيرات التقليدية - على الرغم من أن أياً منها لا يؤيد وجهة النظر الشعبية المبسطة الموضحة في بداية هذا القسم - ما يلي:

A. Ferrill, The Fall of the Roman Empire: The Military Explanation (London, 1986); W. Liebeschuetz, ‘The end of the Roman army in the western empire’, in J. Rich and G. Shipley (eds), *War and Society in the Roman World* (London and New York, 1993), pp. 265-76; and R. MacMullen, *Corruption and the Decline of Rome* (New Haven and London, 1988).

هناك استقصاء لأسباب بقاء الشرق بينما سقط الغرب يقدمه لنا:

S. Williams and G. Friell, *The Rome That Did Not Fall: The Survival of the East in the Fifth Century* (London, 1999).

لماذا تتغير التأويلات التاريخية؟

للاطلاع على بعض التكهنات حول هذا المجال، انظر:

M. J. Nicasie, Twilight of Empire: The Roman Army from the Reign of Diocletian until the Battle of Adrianople (Amsterdam, 1998), p. 97, n.1; and P. A. Cartledge, ‘The birth of the Hoplite: Sparta’s contribution to early Greek military organization’, in P. A. Cartledge (ed.), Spartan Reflections (London, 2001), p. 156.

الفصل الرابع

انظر:

R. Sorabji, 'Take time to win the philosophical battle', The Times Higher Education Supplement, 9 May 2003, p. 16.

اليونانيون القدماء

يقدم

D. Dawson, The Origins of Western Warfare (Boulder, Colorado, and Oxford, 1996),

نبذة مبسطة عن إيديولوجيات الحرب الإغريقية (وكذلك الرومية)، لكن بتركيز أكبر على ما هو منهجي (بالنسبة إلى الإغريق) مما ورد في النص هنا.

من المصادر الأخرى المفيدة أيضاً:

A. Momigliano, 'Some observations on causes of war in ancient historiography', in A. Momigliano (ed.), Studies in Historiography (London, 1966), pp. 112-26; J. Cobet, 'Herodotus and Thucydides on war', in I. S. Moxon, J. D. Smart, and A. J. Woodman (eds), Past Perspectives: Studies in Greek and Roman Historical Writing (Cambridge, 1986), pp. 1-18; M. Defourny, 'The aim of the state: peace', in J. Barnes, M. Schofield, and R. Sorabji (eds), Articles on Aristotle 2: Ethics and Politics (London, 1977), pp. 195-201; and H. van Wees, 'Warfare and society', in P. Sabin, H. van Wees, and M. Whitby (eds), The Cambridge History of Greek and Roman Warfare (Cambridge, forthcoming)).

الروم الجمهوريون

الكتابان المعياريان، وكلاهما باللغة الألمانية، بشأن «الحرب العادلة» الرومية هما:

S. Albert, Bellum iustum: Die Theorie des ‘gerechten Krieges’ und ihre praktische Bedeutung für die auswartigen Auseinandersetzungen Roms in republikanischer Zeit (Kallmunz, 1980); and M. Mantovani, Bellum iustum: Die Idee des gerechten Krieges in der romischen Kaiserzeit (Bern, 1990). :

انظر أيضاً

P. A. Brunt, ‘Laus Imperii’, in P. A. Brunt (ed.), *Roman Imperial Themes* (Oxford, 1990), pp. 288-323; and H. Sidebottom, ‘War, peace, and international relations’, in P. Sabin, H. van Wees, and M. Whitby (eds), The Cambridge History of Greek and Roman Warfare (Cambridge, forthcoming)).

بشأن Fetiales، انظر:

M. Beard, J. North, and S. Price, Religions of Rome (Cambridge, 1998).

الحرب الأهلية

بشأن الجمود في العالم الإغريقي، انظر:

A. Lintott, Violence, *Civil Strife and Revolution in the Classical City* (London and Canberra, 1982); and H.-J. Gehrke, Stasis: Untersuchungen zu den inneren Kriegen in den griechischen Staaten des 5. und 4. Jahrhunderts v. Chr. (Munich, 1985).

يمكن الاطلاع على مناقشة تثقيفية لثوكيديدس

Thucydides بشأن Corcyra في: W. R. Connor, Thucydides (Princeton, 1984), pp. 95-105.

يمكن الاطلاع على مقدمة جيدة للتعريف بمؤامرة كاتيلين

Catiline في: E. Rawson, Cicero: A Portrait (London, 1983), pp. 60-88.

يمثل

J. Henderson, Fighting For Rome: Poets and Caesars, History and (Civil War (Cambridge, 1998

قراءة ممتعة وإنْ مفعمة بالتحديات بشأن وجهة النظر الرومية في الحرب الأهلية بشكل عام.

اليونانيون تحت مظلة روما

يمكن الاطلاع على دراسة للنظريات الإغريقية يقدمها لنا:

H. Sidebottom, 'Philosophers' attitudes to warfare under the principate', in J. Rich and G. Shipley (eds), War and Society in the .Roman World (London and New York, 1993), pp. 241-64

للاطلاع على تفسير مختلف نوعاً ما، انظر:

D. Dawson, The Origins of Western Warfare (Boulder, Colorado, and .Oxford, 1996), pp. 132-8

المسيحيون تحت حكم روما

بشكل عام، انظر:

R. H. Bainton, *Christian Attitudes Towards War and Peace: A* .(*Historical Survey and Critical Re-evaluation* (London, 1961

يورد

(H. Chadwick, Augustine (Oxford, 1986

مقدمة للموضوع، وللاطلاع على التفاصيل، انظر:

L. J. Swift, 'Augustine on war and killing: another view', Harvard .Theological Review, 66 (1973), pp. 369-83

وفيما يخص التأثير المتأخر، انظر:

J. Barnes, ‘The Just War’, in N. Kretzmann, A. Kenny, and J. Pinborg (eds), The Cambridge History of Later Medieval Philosophy .(Cambridge, 1982), pp. 771-84

الفصل الخامس

استراتيجيات أم تخيلات

على حد علمي، لا توجد مناقشة حديثة للأفكار الكلاسيكية عن المخططات غير المنجزة للفتوحات الضخمة كظاهرة. للاطلاع على وجهات نظر حول الأمثلة الفردية الواردة في النص، انظر:

D. Kagan, *The Peace of Nicias and the Sicilian Expedition* (Ithaca and London, 1981), pp. 170-3; 248-50; R. Lane Fox, Alexander the Great (London, 1973), pp. 475-80; M. Gelzer, Caesar: Politician and Statesman (English tr., Oxford, 1968), p. 322; B. C. McGing, *The Foreign Policy of Mithridates VI Eupator King of Pontus* (Leiden, 1986), pp. 164-5; and (on Sassanid kings) D. S. Potter, *Prophecy and History in the Crisis of the Roman Empire* (Oxford, 1990), pp. .370-80

يورد

S. P. Mattern, Rome and the Enemy (Berkeley and Los Angeles, ,1999), pp. 41-66

مقدمة جيدة للجغرافيا الكلاسيكية والاستراتيجية. كان أول من طرح مفهوم

odological thinking» P. Janni, La Mappa e il Periplo: Cartografia» .(Antica e Spazio Odologico (Rome, 1984

«استراتيجية كبرى» للإمبراطورية الرومية

E. N. Luttwak, The Grand Strategy of the Roman Empire (Baltimore .(and London, 1976

هناك مساهمتان تدعمان Luttwak

بشكل أو بآخر، وهما:

A. Ferrill, *Roman Imperial Grand Strategy* (New York, 1991); and E. L. Wheeler, 'Methodological limits and the mirage of Roman strategy', Journal of Military History, 57 (1993), pp. 7-41; 215-40,

حيث يشير الأخير إلى أن منتقدي Luttwak يحرفون، في بعض الأحيان، ما يسوق من حجج.

تشمل الهجمات التي تعرضت لها أفكار

Luttwak: J. C. Mann, 'Power, force and the frontiers of the empire', Journal of Roman Studies, 69 (1979), pp. 175-83; F. Millar, 'Emperors, frontiers and foreign relations, 31 bc to ad 378', Britannia, 13 (1982), pp. 1-23; B. Isaac, The Limits of Empire: *The Roman Army in the East* (Oxford, 1990); and C. R. Whittaker, *Frontiers of the Roman Empire* (Baltimore and London, 1994).

الحملات والإمدادات اللوجستية: بعض الاعتبارات العامة

هناك مقدمة مثار اهتمام للموضوعات التي نوقشت في هذا القسم ولأشياء أخرى كثيرة نجدها في:

Y. Garlan, *War in the Ancient World* (English tr., London, 1975).

بشأن تمويل الكوليسيوم Colosseum من غنائم الحرب، انظر:

G. Alföldy, 'Eine Bauinschrift aus dem Colosseum', Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik, 109 (1995), pp. 195-226.

بشأن اقتصادات الحرب وأجور القوات المسلحة، انظر مساهمات:

V. Gabrielsen, D. W. Rathbone, and D. Lee to The Cambidge History of Greek and Roman Warfare, edited by P. Sabin, H. van Wees, and M. Whitby (Cambridge, forthcoming).

تشمل الدراسات الأكاديمية للمرتزقة:

H. W. Parke, *Greek Mercenary Soldiers from the Earliest Times to the Battle of Ipsus* (Oxford, 1933); G. T. Griffith, *Mercenaries of the Hellenistic World* (Cambridge, 1935); and M. Bettalli, I Mercenari nel mondo Greco. I. Dalle origini alla fine del V sec. A. C. (Pisa, 1995).

للاطلاع على نظرة عامة شعبية، انظر:

S. Yalichev, Mercenaries of the Ancient World (London, 1997).

للاطلاع على مقدمة للوجستيات، انظر:

J. P. Roth, ‘War in the Hellenistic World and Roman Republic’, in P. Sabin, H. van Wees, and M. Whitby (eds), The Cambridge History of Greek and Roman Warfare (Cambridge, forthcoming).

تشمل الدراسات التي بحجم كتاب المذكورة في النص:

D. W. Engels, *Alexander the Great and the Logistics of the Macedonian Army* (Berkeley, Los Angeles, and London, 1978); P. Erdkamp, Hunger and the Sword: Warfare and Food Supply in Roman Republican Wars (Amsterdam, 1998); and J. P. Roth, The Logistics of the Roman Army at War (264 bc-ad 235) (Leiden, Boston, and Koln, 1999).

بشأن معسكرات السير في اسكتلندا marching camps، انظر: C. M. Gilliver, The Roman Art of War (Stroud and Charleston, SC, 1999).

الحملات والإمدادات اللوجستية

انظر:

R. P. Lindner, ‘Nomadism, horses and Huns’, Past and Present, 92 (1981), pp. 3-19.

من الباحثين الذين يسيرون على خطى

Lindner: C. R. Whittaker, *Frontiers of the Roman Empire* (Baltimore .and London, 1994), p. 214

انظر:

E. L. Wheeler, ‘Methodolical limits and the mirage of Roman strategy’, Journal of Military History, 57 (1993), pp. 15-16, for a .dissenting voice

بشأن الهون بشكل عام، انظر:

(E. A. Thompson, *The Huns* (Oxford and Cambridge, Mass., 1996

فيما يخص التاريخ، وانظر:

(I. Bóna, Das Hunnenreich (Stuttgart, 1991

فيما يخص الآثار، بالإضافة إلى الأعمال المذكورة أعلاه ضمن الفصل الثاني: الثقافة.

الفصل السادس

انظر:

J. Keegan, The Face of Battle: *A Study of Agincourt, Waterloo and* .(*the Somme* (London, 1976

أفضل دراسة لاحقة، وإلى حد بعيد، لهذا المجال هي

R. Holmes, Firing Line (London, 1985؛ وقد أعيد نشرها الآن تحت عنوان Acts .(of War, London, 2003

يُعدُّ بحث تجربة المحاربين الكلاسيكيين في القتال موضوعاً محوريّاً في:

H. Sidebottom, *Fields of Mars: A Cultural History of Greek and* .(*Roman Battle* (London, forthcoming

الرماحون

بشأن تمثال الرماحون، انظر:

H. van Wees, ‘The development of the Hoplite phalanx: iconography and reality in the seventh century’, in H. van Wees (ed.), War and Violence in Ancient Greece (London and Swansea, 2000), pp. 129-31.

تُعدُّ كتب A. M. Snodgrass مورداً لا غنى عنه فيما يخص عتاد المشاة الثقيلين:

Early Greek Armour and Weapons from the End of the Bronze Age to 600 BC (Edinburgh, 1964); and Arms and Armour of the Greeks (London, 1967)).

للاطلاع على وجهة النظر المقبولة عموماً في معركة المشاة الثقيلين Hoplite، انظر:

V. D. Hanson, *The Western Way of War: Infantry Battle in Ancient Greece* (Oxford, 1989).

للاطلاع على وجهات النظر الأخرى، انظر:

G. L. Cawkwell, *Philip of Macedon* (London, 1978); and A. K. Goldsworthy, ‘The Othismos, myths and heresies: the nature of Hoplite battle’, War in History, 4.1 (1997), pp. 1-26.

الفيلق المقدوني

للاطلاع على مقدمات جيدة لفن الحرب عند المقدونيين والإغريق، على الترتيب، انظر:

A. B. Bosworth, Conquest and Empire (Cambridge, 1988), especially pp. 259-77; and Y. Garlan, ‘War and siegecraft’, in F. W. Walbank and A. E. Astin (eds), The Cambridge Ancient History, 7.1 (2nd edn, Cambridge, 1984), pp. 353-62.

يحوي

N. Sekunda, The Army of Alexander the Great (London, 1984).

رسوماً توضيحية رائعة، لكنه قد يبدو لبعض القراء مفرط الثقة في تأكيداته.

يمكن الاطلاع على مناقشة متخصصة حديثة في:

N. V. Sekunda, ‘The Sarissa’, Acta Universitatis Lodziensis, 23 (2001), pp. 13-41.

المحاولة الأولى لإجراء معالجة على «طريقة كيجان Keegan-style» للمحاربين المقدونيين هي:

A. B. Lloyd, ‘Philip II and Alexander the Great: the moulding of Macedon’s army’, in A. B. Lloyd (ed.), Battle in Antiquity (London and Swansea, 1996), pp. 169-98.

يمكن الاطلاع على مقدمات جيدة للتعريف بالمشاة الخفيفين في العصور القديمة في:

J. G. P. Best, *Thracian Peltasts and Their Influence on Greek Warfare* (Groningen, 1969); and J. K. Anderson, Military Theory and Practice in the Age of Xenophon (Berkeley and Los Angeles, 1970), pp. 111-140.

جندي الفيلق

يمكن الاطلاع على وصف لتطور الفيالق الرومية في:

L. Keppie, *The Making of the Roman Army* (London, 1984); and G. Webster, *The Roman Imperial Army* (3rd edn, London, 1985).

يمكن الاطلاع على استقصاءات رائعة في:

M. C. Bishop and J. C. N. Coulston, Roman Military Equipment (London, 1993); and M. Feugère, Weapons of the Romans (English tr., Stroud, 2002).

يشمل العدد المتنامي من التحليلات على «طريقة كيغان»:

A. K. Goldsworthy, *The Roman Army at War 100 bc to ad 200* (Oxford, 1996); A. D. Lee, ‘Morale and the Roman experience of battle’, in A. B. Lloyd (ed.), Battle in Antiquity (London and Swansea, 1996), pp. 199-217; P. Sabin, ‘The face of Roman battle’, Journal of Roman Studies, 90 (2000), pp. 1-17; A. Zhmodikov, ‘Roman Republican heavy infantrymen in battle (IV-II centuries bc)’, Historia, 49 (2000), pp. 67-78; and G. Daly, Cannae: *The Experience of Battle in the Second Punic War* (London and New York, 2002).

الخيَّالة

هناك مقدمات عامة للحرب الراكبة تجدونها في:

J. Ellis, Cavalry (Newton Abbot, 1978); and J. Keegan and R. Holmes, Soldiers (London, 1985), pp. 77-96.

تشمل الدراسات الأكاديمية:

G. R. Bugh, *The Horsemen of Athens* (Princeton, 1988); I. G. Spence, *The Cavalry of Classical Greece* (Oxford, 1993); L. J. Worley, *Hippeis: The Cavalry of Ancient Greece* (Boulder, Colorado, and Oxford, 1994); R. E. Gaebel, *Cavalry Operations in the Ancient Greek World* (Norman, 2002); K. R. Dixon and P. Southern, *The Roman Cavalry* (London, 1992); J. B. McCall, *The Cavalry of the Roman Republic* (London and New York, 2002); and I. P. Stephensen and K. R. Dixon, Roman Cavalry Equipment (Stroud and Charleston, SC, 2003).

الحافز: أقليل هم الذين يقاتلون؟

ما نسبته 25% فقط يحاربون في:

S. L. A. Marshall, Men against Fire (New York, 1947),

وما نسبته 37-55% في:

S. L. A. Marshall, Infantry Operations and Weapons Usage in Korea ,(London and Washington, 1988, first published 1952), pp. 4-5; 61-2

وما نسبته 25% في:

A. K. Goldsworthy, *The Roman Army at War* (Oxford, 1996), pp. 187-.8; 219

للاطلاع على نقد لأرقام مارشال Marshall، انظر:

.J. Bourke, *An Intimate History of Killing* (London, 1999), pp. 75-6

حرب الحصار

يمكن الاطلاع على لمحة عامة بديعة في:

P. B. Kern, *Ancient Siege Warfare* (Bloomington and Indianapolis, .(1999

تشمل الدراسات المتخصصة ذات العلاقة:

F. E. Winter, *Greek Fortific ations* (London, 1971); A. W. Lawrence, Greek Aims in Fortification (Oxford, 1979); J. Maloney and B. Hobley (eds), *Roman Urban Defences in the West* (London, 1983); S. Johnson, *Late Roman Fortifications* (London, 1983); and E. W. .(Marsden, Greek and Roman Artillery (2 vols, Oxford, 1969-71

تشمل الإشارات إلى المصادر الأدبية المذكورة في النص:

Thucydides 2.71-8; 3.20-4; 51-68 (Plataea); Diodorus Siculus 20.82-8; 91-100 (Rhodes); Julius Caesar, Gallic War 7.68-89 (Alesia); Josephus, Jewish War 5.47-7.20 (Jerusalem); and Ammianus .(Marcellinus 19.1.1-8.12 (Amida

بشأن دراسة آثار الحصارين المعينين، انظر:

M. I. Rostovtzeff, *The Excavations at Dura Europos* (New Haven, 1936), and Y. Yadin, *Masada* (London, 1966).

وينبغي قراءة الأخير مع:

N. Ben-Yehuda, Sacrificing Truth: Archaeology and the Myth of Masada (New York, 2002),

الذي يبيّن كيف فسر القائمون بالحفريات ما عثروا عليه ليتناسب مع كل من سرد Josephus القديم ورغبات إسرائيل الحديثة في الانتساب إلى ماضٍ بطولي.

الحروب البحرية

يورد J. S. Morrison, J. F. Coates, and N. B. Rankov, The Athenian Trireme (Cambridge, 2000)، المتمحور حول إعادة بناء Olympias،

مقدمة مبسطة لهذا الموضوع. على الرغم من تقادمها في بعض مجالات التفسير، يمكن أيضاً الاطلاع على مقدمات موجزة وجذابة في:

The Greek and Macedonian Art of War (Berkeley, Los Angeles, and London, 1957), pp. 29-46, and *The Roman Art of War under the Republic* (Cambridge, Mass., 1940), pp. 29-45, both by F. E. Adcock.

تشمل اللمحات العامة المفيدة الأخرى:

L. Casson, *The Ancient Mariners* (2nd edn, Princeton, 1991); J. S. Morrison and R. T. Williams, Greek Oared Ships (Cambridge, 1968); J. S. Morrison and J. F. Coates, *Greek and Roman Oared Warships* (Oxford, 1996); and J. Rougé, Ships and Fleets of the Ancient Mediterranean (English tr., Middletown, Conn., 1981).

يورد G. F. Bass, A History of Seafaring based on Underwater Archaeology (London, 1972) استعراضاً واسعاً جداً ومعزَّزاً بالرسوم التوضيحية.

يمكن الاطلاع على اقتصادات الحرب البحرية القديمة في:

V. Gabrielsen, *Financing the Athenian Fleet* (Baltimore and London, .(1994

المادة المقارنة مصدرها:

.(N. A. B. Rodger, The Wooden World (London, 1986

معسكرات الشتاء: استكشاف معركة وقيادة عسكرية

تُرجمت «تعليقات قيصر» ليوليوس قيصر إلى الكثير من اللغات الحديثة.

توجد دراستان تتناولان كيف يطرح قيصر معركة Atuatuca وهما:

K. Welch, 'Caesar and his officers in the Gallic War commentaries' (pp. 85-110; at 93-7) and A. Powell, 'Julius Caesar and the presentation of massacre' (pp. 111-37; at 115-21), both in K. Welch and A. Powell (eds), Julius Caesar as Artful Reporter: The War Commentaries as Political Instruments (London and Swansea, .(1998

بشأن (عدم وجود) الشواهد الأثرية على Atuatuca، انظر:

E. M. Wightman, Gallia Belgica (London, 1985), p. 40. بشأن Kalkriese، يُعدُّ P. S. Wells, The Battle That Stopped Rome: Emperor Augustus, Arminius, and the Slaughter of the Legions in the Teutoburg Forest ((New York and London, 2003

نموذجاً لكتاب ألَّفه أكاديمي لجمهور شعبي.

T. Rice Holmes, Caesar's Conquest of Gaul (2nd edn, London, مازال (1911

مصدراً مفيداً، على الرغم من قِدمه وطوله وتفنيداته الوقحة بشكل مذهل لوجهات نظر الباحثين الآخرين. ويوجد مصدر أحدث وأوجز وأكثر تهذيباً يتمثل في:

L. Keppie, The Making of the Roman Army: From Republic to Empire .(London, 1984), pp. 80-102

بشأن الحرب الغاليَّة Gallic، انظر:

A. K. Goldsworthy, *The Roman Army at War 100 bc to ad 200* (Oxford, 1996), pp. 53-60; L. Rawlings, ‘Caesar’s portrayal of Gauls as warriors’, in K. Welch and A.Powell (eds.), Julius Caesar as Artful Reporter (London, and Swansea, 1998), pp. 171-92; and (for pictures) P. Connolly, Greece and Rome at War (London, 1981), pp. .113-26

تعدُّ قدرة القوات النظامية المتمركزة خلف التحصينات على أن تتحدى في العادة أعداداً هائلة من الجنود غير النظاميين واحدة من الاستنتاجات المدهشة الكثيرة التي نطالعها في:

L. H. Keeley, *War Before Civilization: The Myth of the Peaceful* .(*Savage* (Oxford, 1996

هذا الكتاب الواسع الملهم النطاق لم يؤت بعد تأثيره على الدراسات الأكاديمية للحرب الكلاسيكية.

هناك دراستان مثيرتان للقيادة العسكرية الكلاسيكية تتخذان مسارَيْن مختلفَيْن نوعاً ما عن المسارات المتخذة هنا، وهما:

E. L. Wheeler, ‘The general as hoplite’, in V. D. Hanson (ed.), Hoplites: The Classical Greek Battle Experience (London and New York, 1991), pp. 121-70; and A. K. Goldsworthy, ‘ ‘‘Instinctive genius’’: The depiction of Caesar the general’, in K. Welch and A. Powell (eds), Julius Caesar as Artful Reporter (London and .Swansea, 1998), pp. 193-219

يوجد عملان مقارنان ملهمان وهما:

P. Griffith (ed.), *Wellington Commander: The Iron Duke’s Generalship* (Chichester, 1985); and J. Keegan, *The Mask of* .(*Command* (London, 1987

ويطبق الأخير منهجية واحدة في تناول القيادة العسكرية في طائفة واسعة من الثقافات، بينما يتناول الأول قائداً عسكريّاً واحداً من مجموعة متنوعة من الزوايا المختلفة.

الفصل السابع

بشأن النسمونيين Nasamones، انظر: D. J. Mattingly, Tripolitania (London, 1995), pp. 28; 33; 72-3; 173-6، الذي يناقش فن الحرب عند قبائل شمال إفريقيا القديمة في الصفحتين 40-41.

فيما يخص الأعمال الحديثة عن الحرب البونية الثانية، انظر أعلاه، الفصل الأول، الرومان والقرطاجيون.

بشأن الفتوحات العربية وغيرها الكثير، انظر:

G. E. M. de Ste.

يورد

Croix, The Class Struggle in the Ancient Greek World (London, 1981), pp. 483-4,

استقصاء موجزاً ببراعة للقضايا الأساسية.

على الرغم من تأليفه منذ زمن طويل، وعدم احتوائه على أي شروح، واتخاذه خطأً ساذجاً في محاولة تجميع (دون بيان الكيفية) المصادر التي يتعذر التوفيق بينها غالباً في سرد واحد، يتسم J. B. Glubb, The Great Arab Conquests (London, 1963) بمزايا تأليفه بقلم مؤلف يعرف عن كثب جغرافية الأماكن ذات الصلة، وقاد القوات العربية هناك، ومن ثمَّ يظل مقدمة ممتعة لهذا الموضوع.

للاطلاع على المناقشات العلمية حول الفتح العربي لسوريا، من المنظور البيزنطي، انظر:

W. E. Kaegi, *Byzantium and the Early Islamic Conquests* (Cambridge, 1992); and W. E. Kaegi, *Heraclius Emperor of Byzantium* (Cambridge, 2003), pp. 229-64؛

ومن المنظور الإسلامي، انظر:

F. Gabrieli, *Muhammad and the Conquests of Islam* (English tr., London, 1968), pp. 145-66; and F. M. Donner, The Early Islamic Conquests (Princeton, 1981), pp. 91-155.

يجري تناول القوات العسكرية للجانبين في سياق تطورها التاريخي في:

J. Haldon, Warfare, *State and Society in the Byzantine World, 565-1204* (London, 1999); and H. N. Kennedy, *The Armies of the Caliphs: Military and Society in the Early Islamic State* (London, .(2001

يمكن الاطلاع على ثلاثة أوصاف حديثة لمعركة اليرموك في:

W. E. Kaegi, *Byzantium and the Early Islamic Conquests* (Cambridge, 1992), pp. 112-46; D. Nicolle, Yarmuk 636 ad: *The Muslim Conquest of Syria* (London, 1994); and J. Haldon, *The* .*Byzantine Wars* (Stroud, 2001), pp. 56-66

يمكن الاطلاع على سجل فوتوغرافي كامل للمنحوتات الموجودة على عمود ماركوس أوريليوس في:

.(C. Caprino et al., La Colonna di Marco Aurelio (Rome, 1955

يمكن الاطلاع على مقدمة تقليدية للتعريف بالعمود في:

D. E. E. Kleiner, *Roman Sculpture* (New Haven and London, 1992), .pp. 295-301

من بين المقالات المثيرة للاهتمام، وإنْ كانت أحياناً مفرطة في النظرية، التي جُمعت في:

J. Scheid and V. Huet (eds), Autour de la Colonne Aurélienne ،((Turnhout, 2000

فإن مقالات

P. Zanker (‘Die Frauen und Kinder der Barbaren auf der Markussäule’, pp. 163-74) and J. Balty (‘L’Armée de la colonne (Aurélienne: images de la cohésion d’un corps’, pp. 197-203

وثيقة الصلة بشكل خاص بشواغلنا هنا، وأما مقال

M. Beard ('The spectator and the column: reading and writing the (language of gesture', pp. 265-79

فيورد مقدمة نابضة بالحياة لإمكانات تفسير هذه المنحوتات ومشاكلها، ومن ثم غيرها من المنحوتات.

يمكن الاطلاع على ترجمة لـ Vegetius، مع مقدمة وحواش مفيدة، يوردها:

N. P. Milner, *Vegetius: Epitome of Military Science* (2nd edn, .(Liverpool, 1996

بشأن Vegetius في القرون الوسطى، انظر:

.(P. Contamine, *War in the Middle Ages* (English tr., Oxford, 1994

يقدم

J. A. Lynn, Battle: *A History of Combat and Culture from Ancient* (*Greece to Modern* America (Boulder, Colorado, and Oxford, 2003

لمحة عامة جيدة عن التأثيرات اللاحقة للحرب الكلاسيكية في سياق هجومه على واقع «طريقة الحرب الغربية» كاستمرارية للممارسة.

تسلسل زمني للأحداث

مُـيّـزَت «الفترات» التي قسَّمَ فيها المؤرخون المعاصرون التاريخ القديم تاريخياً بخط سميك، وكُتبت العصور الرومية بخط مائل.

1575/50-1100 ق.م	**اليونـان الموكيانية**
1200 ق.م	حرب طروادة؟
1100-776 ق.م	**اليونـان في عصر الظلام**
934-609 ق.م	الإمبراطورية الآشورية الحديثة
776-479 ق.م	***اليونـان القديمة***
753-509 ق.م	***الفترة المَلكيَّة في روما***
نحو عام 750 ق.م فصاعداً	نشأة المدينة اليونـانية (الدولة المدينة)
750-550 ق.م تقريباً	«عصر الاستيطان» اليونـاني

725-650 ق.م تقريباً	استحداث الإغريق تشكيلة الهوبلايت السلامية
550-330 ق.م	الإمبراطورية الأخمينية الفارسيَّة
509-287 ق.م	***الجمهورية الرومية الأولى***
490-479 ق.م	الحروب الفارسية
490 ق.م	معركة ماراثون
480 ق.م	معركة ترموبيل
480 ق.م	معركة أرطيميسيوم
480 ق.م	معركة سلاميس
479 ق.م	معركة بلاتايا
479-323 ق.م	اليونان القديمة
472 ق.م	عرض مسرحية «الفُرس» لإسخيلوس لأول مرة
432-430 ق.م	حصار أثينا لبوتيدايا

431-404 ق.م	الحرب البيلوبونيزية
431-427 ق.م	حصار إسبرطة لبلاتايا
430 ق.م	الأثينيون ينتصرون على الإسبرطيين في معركة نوباكتوس البحرية
415-413 ق.م	حملة أثينا إلى صقلية
405 ق.م	الأثينيون يخسرون معركة أيغوسبوتامي البحرية أمام الإسبرطيين
405-367 ق.م	ديونيسيوس الأول، حاكم سرقوسة المُستبد
371 ق.م	أبناء ثيفا يهزمون الإسبرطيين في معركة ليوكترا
362 ق.م	أبناء ثيفا يهزمون الإسبرطيين في معركة مانتينيا (الثانية)
359-336 ق.م	حُكم الملك فيليب الثاني المقدونيّ
338 ق.م	الملك فيليب الثاني يهزم تحالفاً من الإغريق في خيرونيا
336-323 ق.م	حُكم الملك الإسكندر الأكبر
333 ق.م	الإسكندر يهزم الفرس في معركة إسوس

323-30 ق.م	**اليونان الهيلينيَّة**
305-304 ق.م	ديميتريوس يحاصر رودس
287-133 ق.م	***الجمهورية الرومية الوسطى***
264-241 ق.م	الحرب البونية الأولى
247-241 ق.م	الإمبراطورية الفرثية (إمبراطورية أرساسيد)
218-201 ق.م	الحرب البونية الثانية (حرب حنبعل)
214-205 ق.م	الحرب المقدونيَّة الأولى
213-211 ق.م	الحصار الرومي لسَرَقُوسَة
200-196 ق.م	الحرب المقدونيَّة الثانية
197 ق.م	الروم يهزمون المقدونيين في معركة كينوسكيفالاي
192-189 ق.م	الحرب الرومية ضد أنطيوخوس الثالث (ملكٌ سلوقيٌّ)

171-168 ق.م	الحرب المقدونية الثالثة
149-147 ق.م	الثورة المقدونية (مقدونيا تتحول إلى مقاطعة رومية)
146 ق.م	اليونان ينضم إلى مقاطعة مقدونيا الرومية
149-146 ق.م	الحرب البونية الثالثة

133-30 ق.م	***الجمهورية الرومية المتأخرة***
133 ق.م	تيبريوس غراكوس المدافع عن العامة يسن تشريعات الإصلاح الزراعي
133 ق.م	مملكة بيرغاموم تُصبح إحدى المقاطعات الرومية في آسيا
107 ق.م	القنصل ماريوس يُجَنِّد غير المُلاك في الفيالق
63 ق.م	موت ميثريداتس السادس ملك البُنطس
63-2 ق.م	المؤامرة الكاتيلينية
58-50 ق.م	يوليوس قيصر يغزو منطقة الغال

53-54 ق.م (شتاءً)	الغاليون يقهرون الروم بقيادة سابينوس في أتواتوكا
53 ق.م	الفرثيون يهزمون الروم في معركة كارهاي، ووفاة كراسوس
52 ق.م	يوليوس قيصر يحاصر أليسيا
48 ق.م	يوليوس قيصر يهزم الجمهوريين بقيادة بومباي في فارسالا
47 ق.م	يوليوس قيصر يهزم فارناكس الثاني ملك البنطس في زيلا
46 ق.م	يوليوس قيصر يهزم الجمهوريين في تابسوس
44 ق.م	اغتيال يوليوس قيصر

30 ق.م- 235م	***عهد الزعامة (الإمبراطورية الرومية الأولى، أو أوج الإمبراطورية الرومية)***
30 ق.م- 14م	حُكم أغسطس
9م	الجِرمانيون يهزمون الروم بقيادة فاروس في غابة تويتوبورغ
14-16م	الحملات الرومية بقيادة جرمانيكوس ضد الجِرمانيين

40-112م تقريباً	حياة الفيلسوف ديو كريسوستوم
43م	الغزو الرومي لبريطانيا بقيادة كلوديوس
50-120م تقريباً	حياة بلوتارك
55-135م تقريباً	حياة إبيكتيتوس
73/74م	حصار الروم لحصن متسادا اليهوديّ
83م	الروم يهزمون الكالدونيين بزعامة أغريكولا في معركة مونس غروبيوس
86م	قوات دوميتيان تهزم النسامونيين
98م	ألَّف تاسيتس كتاب «أغريكولا»
122-6م	بناء سور هادريان
139/42-154/8 تقريباً و158-64م تقريباً	الاستيلاء على السور الأنطونيوسي في شمال بريطانيا
160-220م تقريباً	حياة المؤلف الأمازيغي ترتليان
172-5م	ماركوس أوريليوس يحارب الجِرمانيين والسارماتيين

180-92م	حُكم كومودوس/بناء عمود ماركوس أوريليوس
185-254م تقريباً	حياة البابا أوريجانوس
193-211م	حُكم الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس
224م	الفرس الساسانيون يُطيحون بالفرثيين
235-84م	***«أزمة القرن الثالث» للإمبراطورية الرومية***
235-8م	حُكم ماكسيمينوس ثراكس
257م تقريباً	حصار الفرس الساسانيين لمدينة دورا أوربوس
284-476م	عهد السيادة (الإمبراطورية الرومية المتأخرة)
307-37م	حُكم قسطنطين العظيم
354-430م	حياة القديس أوغسطينوس
357م	معركة ستراسبورغ

359م	حصار الفرس الساسانيين لمدينة آميدا
نحو عام 370م	القوطيون يهزمون الروم في معركة أدريانوبل
451م	«الروم» يهزمون الهون في معركة شالون
475-6م	حُكم رومولوس أوغستولوس، آخر إمبراطور رومي غربي

476-1453م	***الإمبراطورية البيزنطية***
604-29م	حروب بين البيزنطيين والفرس الساسانيين
632-3م	حروب الردة في الجزيرة العربية
633-40م	العرب يفتحون سوريا، ويطردون البيزنطيين
636م	العرب يهزمون البيزنطيين في معركة اليرموك
642م	العرب يفتحون مصر، ويطردون البيزنطيين
561م	سقوط الإمبراطورية الفارسية الساسانية
1453م	سقوط القسطنطينية في يد الأتراك

1812/16-28م	ظهور جيش الزولو (حُكم الملك تشاكا)
1976م	صدور كتاب «وجه المعركة» لجون كيغان
1976م	صدور كتاب «الاستراتيجية العظمى للإمبراطورية الرومية» لإدوارد لوتواك
2000م	فيلم «المُجالد» للسير ريدلي سكوت

الفهرس

1. كلمة مشتقة من «الهوبلون»، وتعني في اليونانية «التُّرس» (المترجم). ↑

2. التشكيلة السلامية هي تشكيلة تكتيكية عسكرية تتألف عادة من المشاة الثقيلين بالكامل، وتكون مسلَّحة برماح البايك أو الساريسا. المصطلح غير معروف في العربية، وجرى تعريبه من الكلمة الإنجليزية phalanx التي تعني سلاميات اليد (المترجم). ↑

Table of Contents